العبادة في الإسلام

وأثرها

في الفرد والجماعة

تأليف

الدكتور علي عبد اللطيف منصور

الأستاذ المساعد بكلية أصول الدين

جامعة الأزهر

دار الصفوة للطباعة والنشر والتوزيع

بالغردقة

العبادة فى الإسلام

اهداءات ٢٠٠١

الدكتور/ القطب محمد طبلية

القاهرة

دار الصفوة
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

ش. م. م. الغردقة - البحر الأحمر ت : ٤٤١٣١٥/٤٤١٥٧٠ - فاكسميل : ٤٤١٣١٥ ت . القاهرة ت : ٣٦٠٦٣٢٠ - فاكسميل : ٣٦٠٦٣٢٠

الله

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدمـــة

بقلم : محمد زكى الدين محمد أبو القاسم

خلق الله تعالى الإنسان على صورة فريدة متميزة ؛ فيها جماع ماف هذا الكون من الخصائص ، والعناصر :

ذلك : أنه مخلوق من الطين ؛ فى مراحله ، وأطواره ، وَمُمَدٌّ بكل ما فى الغرائز من ؛ حاجات ، ومطالب ... ومزود بطاقة الروح ، بكل مافيها من سمو ، وإشراق ، وهو – فى نفس الوقت – ممنوح طاقة الفعل ؛ بكل مافيها من معانى : الإدراك ، والتمييز ، والمفاضلة ، والحكم .

ذلك الذى وصفه بعضهم بقوله :

وتـحـسب أنـك جِرْمٌ صغـير وفيـك انطوى العالمُ الأكبرُ ؟

وهو : إذ خلق على هذا المستوى من الخلق ، وكُوِّن على هذه المنزلة من الإعداد ، المتميز ؛ فقد كرِّم بشتى ألْوان التكريم :

الناشئة عن طبيعة الخلق ؛ كما فى معرفة الأسماء – حسبما يراه فريق من المحققين –

أو المترتبة على حكمة الخلق ؛ كما فى إسجاد الملائكة له ؛ سجود إجلال ، وتقدير – بيقين – لاسجود عبادة ، وأنقياد ، وهو أسمى مايكون من التكريم ، وأعظم مايكون من التجِلَّة ، والاحترام .

بل إن قضيــة التكـريم – فيــه – لم تكن وقفاً على أصله ممثلاً فى شخص آدم عليه السلام .

وإنما كانت سمة لازمة للنوع الإنسانى – كله – على مدى الأزمنة ، والأمكنة ، وفى كل حال ...

يقول الخالق جل ، وعلا :

﴿ ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾ .

وفى تسخير ماسخر الله تعالى : من كونه الأعلى والأدنى ، مانعرف ، وما لانعرف - **لخدمة هذا الإنسان** : أبلغ آية على هذا التكرم ، وأسمى دليل على هذا الإجلال ..

وهنا يأتى تساؤل لابد منه ... وهو : لمَ ذلك كله ؟

فى حين أن الإنسان يحمل فى ضمن تكوينه الطبعى : ماكان سبباً إلى الاستفسار عن حكمة التكريم الإلهى للإنسان ؛ إذ قالوا :

﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟

قال : أنى أعلم مالا تعلمون ﴾ .

ومن تأمل قضية : الخلق الإنسانى يجد : أن القرآن الكريم يؤسس ذلك كله على قاعدتين أساسيتين :

الأولى : أنه مخلوق لأسمى رسالة .

الثانية : أنه مخلوق لأشرف غاية .

فأما رسالته فهى : الخلافة عن الله فى الأرض .

﴿ إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ .

والخلافة - فى معناها الإجمالى - : إدراك الممكن من علاقات الخلق ، والإستفادة بها فى تسخير الكون للخير ، وإقامة منهج الله تعالى فيه ، وتحقيق مراد الله تعالى من عباده .

وهو مايتم به تحقيق القاعدة الثانية :

وهى : أنه مخلوق لأشرف غاية .

إذ يقول خالقه ، ومبدعه الحكيم :

﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ماأريد منهم من

رزق ، وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ .

وحتى هاتين القاعدتين ـ المتمثلتين فى الرسالة والغاية ـ من تأملهما جيداً يجد : أن كل واحدة فيهما تفيض بعائدها على شرعة الأخرى .

لذلك : **فإن فهم أكثر الناس لمفهوم العبادة** ـ فى حقيقته ـ دون المراد منها ، أو مخالفاً للمقصود بها ..

وكم كانت حاجتنا ، وحاجة الأجيال من بعدنا ملحَّة لكى نجد : من يبصرنا بحقيقة العبادة ، وصحة أدائها ، وصور قبولها .

ـ خاصة فى هذه العصور التى اخْتلَّت فيها الموازين ، واضطربت القيم ، واختلطت المفاهيم ـ .

ولقد كانت فى هذا المجال جهود مباركة ، ودراسات ذات شأن ـ ولاشك ـ لايجوز لنا أن ننساها ، أو نغفل دورها فى إحياء مفهوم العبادة ، أو تقريب مدلولها .. والتبصير بها ، وذلك مثل : كتاب العبادة : للمغفور له فضيلة الدكتور **عبد الحليم محمود** .

وكتاب العبادة ـ أيضاً ـ لفضيلة الأستاذ الدكتور **يوسف القرضاوى** .

ومنهج البحث الذى نقدمه للقراء .. ـ اليوم ـ .. هو : نسيج متميز . باعتباره : دراسة متخصصة ، مستفيضة موثَّقة ، مستوعبة لكل أطراف الموضوع ، وشتى آفاقه : تلتزم المنهج العلمى الدقيق فى التعريف ، والتقسيم ، والاستدلال ، والاستنتاج .

بالإضافة إلى ما يتميز به ـ عن الدراسات الأكاديمية ـ من : سلاسَة الأسلوب ، وجاذبية العرض ، وإشراق المأخذ ، ووجدانية الاستنباط

شأن مؤلفه : العلامة الفاضل : الأستاذ الدكتور **على عبداللطيف منصور** ـ ولا نزكّى على الله أحداً ـ فى مسيرة حياته ، وطبيعته الفذة المتميزة : بسعة الاطلاع ، وسهولة الأداء ، وقوة الإقناع ، وبساطة العبارة

فى سمت : يدل على الغـاية ، ويرشد إلى القدوة .. وتواضع جمٌّ : تحصنه عزة المؤمن ، وخشية لله : ـ غير مفتعلة ، ولامتكلفة ـ قائمة على فهم دقيق للحياة ، ومعرفة باصرة بالناس ، لايشوبها شائبة الانطواء ، بل يدعمها ممارسة عمليةٍ للدور الرسالى الناشىء عن : فقه فى الدين ، وبصر بالحضارة والتطور .

وإذا كان القـارىء الكـريم يراه ـ أحسن الله جزاءه ـ فى هذا الكتاب : كاتباً سلساً ، جذاباً ، ومفكراً ؛ دقيقاً ، وعالماً فاقهاً .

فقد عرفَتْهُ **منابرُ الدعوة** : فى مصر ، وفى ليبيا ، والكويت .

ومقاصير العلم : فى الأزهر الشريف ، والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

وأجهزة الإعلام : فى الإذاعات القرآنية والبرامج العامة فى ليبيا ، والمملكة العربية السعودية ، ودولة الكويت .

عَرفَتْهُ رجلاً متميز الأسلوب ، متميز العرض ، متميز الفكرة ..

ـ ومن هنا ـ كان هذا الكتاب ـ الذى نقدمه ، للقراء ـ : جماع مايتطلع إليه الباحث من مواطن الفهم ، والدارس المتفحص عن دقائق العلم ، والمسترشد إلى أفضل مناهج الدعوة .

بما يحويه البحث من استيعاب الكتاب ، وروح الكاتب .

سائلين الله تعـالى أن يجعله خالصـاً لوجهـه وثقلاً فى ميزان حسنات مؤلفه ، وأن يجعله نافعاً ـ لنا ، وله ـ ولجميع المسلمين .

وهو حسبنا ونعم الوكيل

الغردقة : فى الرابع والعشرين من رمضان المبارك ١٤١١هـ .
الموافق ٩ من إبريل ١٩٩١م .

مقدمة الكتاب

الحمد لله ، نحمده على نعمته ، ونشكره على عطائه ومنته ، ونستعينه على القيام بواجب شكره وعبادته .

ونسأله من فضله المعونة والتوفيق ، والهداية لأقوم طريق : فإن مفاتيح الخير كلها بيده ، ﴿ **مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم** ﴾ . [١]

ونصلى ونسلم على سيدنا محمد ، خاتم أنبيائه ، وقدوة أحبابه وأصفيائه ، الرحمة المهداة والنعمة المسداة، والسراج المنير، والنور المبين.

ورضى الله عن آله وأصحابه : الذين اعتصموا بحبله ، وتخلقوا بخلقه ، ونهجوا فى التعرف إلى ربهم والإقبال عليه نهجه ، فأذاقهم الله حلاوة قربه ،ومنحهم الصفو من ودِّه ، وحُبِّه ، وأثنى عليهم فى كتابه ، وأعلى شأنهم بين أوليائه وأحبابه ، وذلك هو الفوز العظيم .

وبعد :

فإن السر فى خلق الإنسان ، وتشريفه بالعقل ، وإمداده بالمعارف ومواجهته بالخطاب هو أن يعبد الله وحده ، ويتعرف إليه ، قال جل شأنه :

﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق ، وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين** ﴾ [٢] .

ولما كان الإنسان قد خلق لهذه المهمة العظيمة ، ورزق من المواهب ما يؤهله للقيام بها ، والدعوة إليها ، والجهاد فى سبيلها كانت منزلته

(١) سورة فاطر : ٢ (٢) سورة الذاريات : ٥٦ ـ ٥٨

عند ربه تابعة لمعرفة ذلك ، والقيام به ، والغيرة عليه .

وَلا وزن لما وراء ذلك من معـارف وأعمـال إذا نسى العبـد هذا الواجب ، أو تهاون به وقصر فيه ولو أن إنسانا افترض فيه القيام بكل ما كلفه من واجبات نحو نفسه وأسرته وجماعته ، ثم أهمل عبادة ربه فهو مقصر ، ولا ينفعه ذلك عند ربه ، ولو أن إنسانا افترض فيه معرفة كل ما يستطيع عقل بشر أن يعرفه ، ثم لم يعرف ربه فهو جاهل ولا تنفعه تلك المعرفة عند ربه .

والعبـادة إذا كانت صحيحـة أنـارت للعبـد طريقه ، وعبدت مَسْلكه ، وأثمرت له حب الله وخشيته ، وقربه ومودته ، وارتقت به إلى مقام الإحسان .

وإنهـا لغـاية الغايات أن يصل عبد إلى هذه المنزلة من الحب والقرب ، ويحقق الحكمة التى خلق من أجلها أفضل تحقيق ، ويصبح عبدا ربانيا ، يفيض من عقله وقلبه وعلمه وأدبه ، وحكمته ورحمته على إخوانه المؤمنين ثم على الناس أجمعين ، فيعرف الناس بربهم ، ويذكرهم بعفوه وغفرانه ، وفضله وإحسانه ، **كما قال جل شأنه** :

﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآيتنا يوقنون ﴾ . [1] سورة السجدة : ٢٤

كذلك : فإن الأمة التى تؤمن بربها ، وتستجيب لأمره وتقف عند حدوده ، وتسارع فى مرضاته ، وتستقيم على طريقته ، وتجاهد فى سبيله .

مثل هذه الأمة تلقى من ربها المعونة والتوفيق ، والنصر والتأييد .

والوعود الربانية للمتقين والمحسنين والمؤمنين فى ذلك يضيق بها نطاق الحصْر :

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم فى

الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ﴾ . (١)

ولما كان أكثر الناس قد غفلوا عن هذا الأمر العظيم ، وقصروا فيه ، وتهاونوا به ، مع أنه ـ كما علمنا ـ مصدر خيرهم وعزتهم ، وينبوع رفعتهم وسعادتهم ـ **فقد انشرح صدرى للكتابة** فى موضوع العبادة وآثارها والحكم التى تترتب عليها ، **ليكون ذلك بياناً** للناس ، يذكر المؤمنين ، وينير الطريق للعابدين ، **ويضع مادة أمام الدعاة** والمرشدين . وقد جعلت عنوان هذا البحث : ـ

العبادة فى الإسلام وأثرها فى الفرد والجماعة

ولقد شجعنى على الكتابة فى هذا الموضوع ما أشعر به من شدة الحاجة إليه .

فقد فترت صلة الناس بربهم ، وانصرف كثير منهم عن العبادة ، بل عن الدين جملة وتفصيلا ، وفسقوا عن أمر ربهم ، **وأقبلوا على شهواتهم ومآربهم غير مبالين بعواقب ، أو مفكرين فى نتائج ، فأظلمت قلوبهم** ، وانطمست بصائرهم وصدق فيهم قول الحق سبحانه :

﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ﴾ (٢) .

وتحولت العبادة لدى كثير من الناس إلى عادات مألوفة ، لها مظهر العبادة ، وليس فيها حقيقتها وروحها ، فلم تثمر لأصحابها ما تثمره العبادة الصادقة من خلق حميد ومسلك سديد ، وصدق خشية من الله ، ورجاء فيه ، وحب له .

---

(١) سورة النور : ٥٥ (٢) سورة مريم : ٥٩

والله أسأل أن يجعل من هذا البحث منارا للسالكين ، وهداية للحائرين وتذكرة للعابدين ، وأن يثبت به الإيمان . ويقوم به الأخلاق ، وأن يجعل منه غذاء للأرواح ، وشفاء لما فى الصدور ، إنه ولى التوفيق ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وقد بنيت هذا الموضوع على مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة :

ثم ذكرت أهم المراجع التى اعتمدت عليها مرتبة على حروف المعجم ، وذكرت أسماء مؤلفيها ومحققيها وناشريها .

وراعيت فى الآيات القرآنية ذكر سورها وأرقامها ، وفى الأحاديث النبوية عزوها إلى مخرجيها معتمدا على الأحاديث الصحيحة ، معرضا عن الأحاديث الضعيفة مكتفيا من الأحاديث الشريفة بقدر ما هو ضرورى لبيان الفكرة وإقامة الحجة .

وأحمد الله سبحانه فقد كان توفيقه لى ومعونته أكبر من جهدى وعملى والحمد لله وأعود فأعترف بأنه لو أتيح لى فرصة مراجعة الكتاب مرة أخرى فربما حذفت وأضفت وقدمت وأخرت وهذا شأن البشر وسبحان من تفرد بالكمال والحمد لله فى كل حال .

والله أسأل أن ينفع بهذا الكتاب كل من اطلع عليه ، ونظر فيه ، واعتنى به ، وأن يجعله هداية للقلوب ونوراً للبصائر ، فإنه ولى ذلك ، والقادر عليه ، لا حول ولا قوة إلا به ، ولا ملجأ منه إلا إليه .

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير .

تمهيـد

الكائنات خلـق الله

إن نظرة إلى هذا الكون العظيم الخلق ، البديع الصنع ، المحكم التدبير لتملأ قلوب المنصفين إكبارا وإجلالا وإعظاما واحتراما للخالق العظيم ، والمدبر الحكيم ، الذى خلق فسوى وقدر فهدى ، وأعطى كل شىء خلقه ثم هدى وخلق كل شىء فقدره تقديرا .

فهذه السموات قد رفعت بغير عمد نراها ، زينت بالمصابيح ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ .[1]

ترى الشمس التى جعلها الله سراجا وهاجا ، تمنح الحياة ، وتنشر الضوء والحرارة ، وترى النجوم والقمر تسبح فى أفلاكها فى نظام دقيق ، وإحكام وإتقان ، بلا تقديم ولاتأخير .

﴿والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾ [2].

وهذا بعض حديث القرآن الكريم فى الدعوة إلى التأمل والنظر فى هذا الكون : السماء وماحوت .

﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج ﴾ [3]

﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ﴾ [4]

﴿ الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش

---

(١) سورة الملك : ٥
(٢) سورة يس ٣٨ ، ٤٠
(٣) سورة ق : ٦
(٤) سورة نوح : ١٥ ، ١٦

وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون ﴾ [1] .

فإذا ما وجهنا أنظارنا إلى الأرض ومن فيها من إنس وجن ، وما فيها من حيوانـات وجمـاد فهذه جبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، وفى الأرض معـادن مختلفة ، وفى الأرض جنات وعيون ، وزروع مختلفة الأشكال والألوان .

﴿ وفى الأرض قطع متجـاورات وجنـات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ [2]

﴿ والأرض مددنـاهـا وألقينـا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا ، كذلك الخروج ﴾ [3] فى الأرض بحار وأنهار .

﴿ هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ، ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ [4] .

إلى غير ذلك من الآيات البينات فى الأرض والسماوات التى نحس بعض ظواهرها وآثارها ، ويخفى علينا معظم أخبارها وأسرارها مما يدهش النظر ، ويحير الفكر ، ويبهر الألباب ، وصدق الله إذ يقول :

﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به

---

(١) سورة الرعد : ٢
(٢) سورة الرعد : ٤
(٣) سورة ق : ٧ ـ ١١
(٤) سورة فاطر : ١٢

الأرض بعـد موتهـا وبث فيهـا من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ [(١)] .

هذه الكائنات وتلك المخلوقات العلوية والسفلية بمن فيها وما فيها لابد لها من خالق أوجدها وبارىء فطرها ، وصانع أتقنها إِنَّه الله رب العالمين .

﴿ الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل ﴾ [(٢)]

﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض ﴾ [(٣)]

﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها ، وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ، وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم ، هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ؟ بل الظالمون فى ضلال مبين ﴾ [(٤)] .

وبـأدنى نظرة لمن عنـده مسكة من عقل ، أوذرة من تفكير فى هذه الآيات التى تتحدث عن مخلوقات الله فى الأرض أو السموات يدرك أن هذا الخلق العجيب وذاك الترتيب المحكم المتقن لا يستغنى عن صانع يدبره ، وفاعل يحكمه ويقدره .

وهذا منطق الفطرة المستقيمة ـ فالفطرة السليمة تشهد بكونها مقهورة تحت تسخيره ، ومصرفة بمقتضى تدبيره **﴿ أفى الله شك فاطر السموات والأرض ﴾** [(٥)] .

والعقـل السليم يشهد بكمال الصانع ، وحسن تدبيره وشمول قدرته وسعة علمه ويقول مع أولى الألباب **﴿ ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك ﴾** [(٦)] .

---

(١) سورة البقرة ١٦٤
(٢) سورة الزمر : ٦٢
(٣) سورة فاطر : الآية الاولى
(٤) سورة لقمان : ١٠ ـ ١١
(٥) سورة إبراهيم : ١٠
(٦) سورة ال عمران : ١٩١

الكائنات مسـخـرة للإنسان
والإنسان مخلوق لعبادة ربه والتقرب إليه

الكائنات كلها علوها وسفليها من سموات وأرضين ومافيها من شموس وأقمار من ثوابت وسيارات ، من ملائكة وإنس وجن ، مما نعلمه ومالانعلمه ، هي خلق الله وملكه ، وهو سبحانه المهيمن عليها ، والمتصرف فيها ، والمسخر لها ، له الخلق والأمر ، وله السلطان والقهر ، هو المنفرد بالخلق والاختراع ، والمتوحد بالإيجاد والإبداع :

﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله قل أفلا تذكرون ؟ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله قل فأنى تسحرون ﴾ (١) . **﴿ ثم استوى إلى السماء وهى دخان ، فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أوكرها قالتا أتينا طائعين ﴾** (٢) .

هذه الكائنات التى هى خلق الله وملكه ، وتحت هيمنته وسيطرته ، مسخرة للإنسان ميسرة له ، يستخدمها وينتفع بها ، ويستفيد منها .

ونظرة إلى بعض الآيات التى تحدثت عن تسخير هذه المخلوقات سواء فى الأرض أوفى السماء ترينا عظيم فضل الله ، وجميل كرمه ، وواسع جوده ، وعظيم إحسانه .

﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ . (٣)

---

(١) سورة المؤمنون : ٨٤ - ٨٩

(٢) سورة فصلت : ١١

(٣) سورة ابراهيم : ٣٢ - ٣٤

﴿ يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾ (١)

وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال :

كنت رديف النبى ﷺ على حمار فقال لى : «يامعاذ أتدرى ماحق الله على العباد ؟»

قلت : الله ورسوله أعلم . قال :

«حق الله على العباد أن يعبدوه ولايشركوا به شيئا » (٢)

وحقه عليهم لا يستطيعون الوفاء ببعضه .

يقول الشيخ محمد خليل الخطيب رحمه الله وأثابه :

ولن تفى من حقه بذرة ولو أطعت ماحييت أمره

فهو الذى خلقك من العدم ، وأمدك بأسباب الحياة ، صورك فى أحسن صورة ، ورزقك من الطيبات ، وسخر لك الكائنات ، وفضلك على كثير ممن خلق تفضيلا .

﴿ ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ (٣)

﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار ﴾ . (٤)

﴿ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين﴾ (٥)

---

(١) سورة البقرة : ٢١ ـ ٢٢
(٢) متفق عليه .
(٣) سورة الاسراء : ٧٠
(٤) سورة ابراهيم : ٣٢
(٥) سورة البلد : ٨ ـ ١٠

ومن **أجلك** أيها الإنسان أنزل سبحانه كتبه ، وأرسل برسله ليأخذ بيدك إلى الحياة الطيبة التى تقوم على الوفاء بالحقوق ، ورعاية الحرمات ، والشكر للمنعم ، **ولتكون حياتك** على هذه الأرض فى ظل الحب ، والتراحم ، والخير والايثار **وليذكرك** بوظيفتك فى هذه الأرض ، وأنك مستخلف فيها **وأن حياتك** فيها إنما هى فترة ابتلاء واختبار .

فمن عقل عن الله ما أراده الله اجتاز هذه الفترة كريما طيباً ، ولقى ربه راضيا مرضيا .

وأما من غفل وقصَّر ، وتهاون وأعرض ، ونسى المهمة التى خلق لها فلن يجنى إلا ما غرس ، ولن يلقى إلا الخزى والحسرة والندامة يوم توفى كل نفس ما عملت ، فليذكر المسلم ذلك ولا يغفل عنه .

ففى ذكره النجاة والسعادة ، والحسنى وزيادة .

لله على خلقه حق الطاعة
وعليهم واجب الاستجابة

سبق أن عرفنا أن هذه الكائنات خلق الله ، وأنها مسخرة للإنسان وأن الإنسان مخلوق لله : إليه يتعرف ، وله يتعبد ، ولو جهه يقصد ؛ **وذلك لأن الله تعالى خالقه** ، ومالك أمره ، ومدبر شأنه ، ومصلح حاله ، والقائم به ، لاملجأ ولا منجى منه إلا إليه منه الخلق والبداية ، وإليه المرجع والمصير . **﴿ إليه مرجعكم جميعا وعد الله حقا إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾** [(١)] .

وإذا كان الله سبحانه هو الخالق البارىء المصور المدبر الحكيم الغنى . . الغنى عما سواه ، والمحتاج إليه كل ماعداه ، **فإن له سبحانه** على عباده المخلوقين المملوكين المرزوقين حق الطاعة ، وعليهم واجب الاستجابة وتحقيق العبادة ، حقه سبحانه وهو المتفضل بالإيجاد والإمداد أن يطاع فلايعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر . . .

الانسان مخلوق لله ليعبده ويتعرف إليه :

وإذا كان الله تعالى قد خلق كل شىء وسخره للإنسان ، فما السر فى خلق هذا الإنسان ؟ وما الغاية من وجوده فوق هذه الأرض ؟ وهل خلقه عبثا ؟ حاشا لله .

إن **أفعال العقلاء** ، منزهة عن العبث ، والإنسان لايرضى لنفسه أن تكون أفعاله عبثا ، أنت أيها الإنسان لاترضى لنفسك بالعبث أفترضى

---

(١) سورة يونس : ٤

لربك مالاترضاه لنفسك أيهبك الكمال ولا يكون موصوفا به ؟ حاشاه

إنه خلق السموات والأرض بالحق .

﴿ وما خلقنا السموات والأرض ومابينهما إلا بالحق ﴾ [1] ﴿ وخلق الله السموات والأرض بالحق ﴾ [2]

﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ماخلقناهما إلا بالحق ﴾. [3]

وإذا كانت الكائنات المسخرة لك قد خلقت بالحق ، والحق ناموس الكون فأنت لم تخلق عبثا ولن تترك سدى ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لاترجعون ﴾ [4] ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى . . ﴾ [5]

لقد خلقت بالحق ، وكلفت بالحق من الحق ، وأنت فى سعادة بمعرفة الحق والاستجابة له ، ومن أعرض عن الحق فقد ضيع نفسه ، وخسر حياته ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن لا يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الامر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون ، فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ﴾ [6] .

والله تعالى هو المالك لكل شىء له مافى السموات ومافى الأرض خلقا وإيجادا وملكا وتصرفا .

ويذكر الله عباده بتفرده بخلق الكون والسيطرة عليه ، والتصرف فيه ، والتدبير له ، ويصرف القول فى ذلك تذكيرا لعباده ، وتسجيلا لحقائق لا

---

(١) سورة الحجر : ٨٥
(٢) سورة الجاثية :٢٢
(٣) سورة الدخان : ٣٨ ، ٣٩
(٤) سورة المؤمنون : ١١٥
(٥) سورة القيامة :٣٦
(٦) سورة يونس : ٣١ ، ٣٢

تمترى فيهـا نفس مستقيمـة وفـطرة سليمة . ﴿ ألم تعلم أن الله له ملك السمـوات والأرض ﴾ [1] ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير ﴾ [2] ﴿ ولله ملك السمـوات والأرض والله على كل شىء قدير ﴾ [3] ﴿ ولله ملك السمـوات والأرض ومـابينهما يخلق مايشاء ﴾ [4] ﴿ ولله ملك السمـوات والأرض وما بينهما وإليه المصير ﴾ [5] ﴿ لله ملك السموات والأرض ومافيهن ﴾ [6] ﴿ وإن الله له ملك السموات والأرض يحيى ويميت ﴾ [7] ﴿ وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ﴾ [8] ﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو فأنى تصرفون ﴾ [9] ﴿ لله ملك السمـوات والأرض يخلق مايشـاء ﴾ [10] ﴿ وتبـارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما ﴾ [11] ، ﴿ له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير ﴾ [12] ﴿ له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور ﴾ [13] ﴿ يسبح لله مافى السموات ومافى الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ﴾ [14] ﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير ﴾ [15] .

---

(١) سورة البقرة : ١٠٧
(٢) سورة آل عمران : ٢٦
(٣) سورة آل عمران : ١٨٩
(٤) سورة المائدة : ١٧
(٥) سورة المائدة : ١٨
(٦) سورة المائدة : ١٢٠
(٧) سورة التوبه ١١٦
(٨) سورة الاسراء : ١١١
(٩) سورة الزمر : ٦
(١٠) سورة الشورى : ٤٩
(١١) سورة الزخرف : ٨٥
(١٢) سورة الحديد : ٢
(١٣) سورة الحديد : ٥
(١٤) سورة التغابن : ١
(١٥) سورة الملك : ١

وإذا كانت هذه الآيات وغيرها تدل على ملكية الله للسموات وللأرض ومافيها فان له على مخلوقاته حق الطاعة المطلقة وعليهم واجب الاستجابة التامة ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم ﴾ (١) ﴿ سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ (٢) .

وإذا هم استجابوا لربهم بإطاعة أمره وعبدوه حق عبادته امتثالا لأمره ، ووفاء بحقه ، واعترافا بآلائه ، وشكرا على نعمائه ، فإنه تفضلا وتكرما — يرضى عنهم ويزيدهم توفيقا ﴿ إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ولايرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ﴾ (٣) .

وفى الحديث يقول عليه الصلاة والسلام : « إن الله يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا : يرضى لكم أن تعبدوه ولاتشركوا به شيئا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله عليكم ويكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال » (٤)

وإذا رضى الله عن شىء فقد دعا إليه ، وحبب فيه ، وأمر به ، ووجب على العباد ، أن يسمعوا ويطيعوا ويحققوا وينفذوا عرفانا بقدر المنعم الوهاب وشكرا لصاحب الآلاء المتفضل الجواد .

وإذا كان كل شىء قد سخر لك أيها الإنسان فأنت مخلوق لله : لمعرفته ، ولعبادته ﴿ وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ (٥)

ما أكرمك وما أعظمك أيها الإنسان إذا عرفت ربك وأدركت الغاية من

---

(١) سورة الإسراء : ٤٤
(٢) سورة الحشر : ١
(٣) سورة الزمر: ٧
(٤) رواه مسلم
(٥) سورة الذاريات : ٥٦

خلقك ، أنت مخلوق كريم على الله ، أنت نفخة من روحه ﴿ **فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين** ﴾[1]

جعلك الله خليفته فى الأرض وأسجد لك ملائكته تكريما لك وتشريفا ، وعلمك مالم تكن تعلم ﴿ **الرحمن علم القرآن ، خلق الإنسان علمه البيان** ﴾ [2] وأنت بفطرتك ـ مالم تلوث ـ متعبد تطلب معبودك .

ومن رحمة الله بالإنسان أنه لم يتركه لفطرته ولا للعهد الذى أخذه عليه يوم (ألست بربكم) وإنما أقام له الآيات فى الأنفس والآفاق، وفى الأرض والسموات ، وأرسل له الرسل ، وأنزل من أجله الكتب وحذره من الغرة به ، والغفلة عنه : ﴿ **يأيها الإنسان ماغرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ماشاء ركبك** ﴾. [3]

فأنت أيها الإنسان لك بداية ولك نهاية وبدايتك معروفة . ﴿ **كلا إنا خلقناهم مما يعلمون** ﴾ ونهايتك معلومة ﴿ . **ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون** ﴾[4] ﴿ **الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم** ﴾. [5]

وبعد هذه الحياة فسوف تصير إلى الحياة الأخرى وإنها لجنة أبدا أو لنار أبدا . **فإذا حققت عبوديتك** لمعبودك وربوبيتك لخالقك فأنت من السعداء وإذا ساقك الجحود والكفران واستكبرت عن طاعته ومعرفته وما خلقت من أجله فأنت الجانى على نفسك ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾

وشتان بين من يهان ، ويحق عليه الحرمان والخذلان ، ويستغيث ولامغيث ، ويصطرخ ولامنقذ ولامجير ، ويجابه بالسوء تبكيتا وتنكيلا

---

(١) سورة ص : ٧٢
(٢) سورة الرحمن : ١ ـ ٤
(٣) سورة الانفطار : ٦ ـ ٨
(٤) سورة المؤمنون : ١٥، ١٦
(٥) سورة الروم : ٤٠

وتعذيبا ، شتان بين هذا وبين من يكرم بدار السلام ويلقى التحية والسلام من الملك القدوس السلام ومن ملائكته المقربين وعباده الصالحين ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ (١) ﴿ لايستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ (٢) .

---

(١) سورة الرعد : ٢٤

(٢) سورة الحشر : ٢٠

الباب الأول
العبادة وما يتعلق بها

تعريف العبادة :

العبادة هى الغاية التى من أجلها خلق الله الإنسان وكرمه ، وأمده بقوى التفكير والتعبير ، وجعله خليفة فى الأرض ، وأمده بأسباب البقاء والمعاش . ومن أجل ذلك خلق له الكائنات ، وسخر له المخلوقات قال سبحانه وتعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ (١) .

وقد يكون من المفيد هنا ، بل من الضرورى أن نتحدث عن معنى العبـادة فى اللغة ، ثم عن مفهومها لدى علماء الشريعة ، ثم نبين مدى شمولها واتساعها معقبين على كل مانذكر بما يوضحه ، ويبين الرأى فيه ، وذلـك لكى يتجـلى أمـام أبصارنا مفهوم كلمة العبادة ، وتتضح أطراف الموضوع الذى نحن بصدد بحثه ، والحديث عنه .

ولنبدأ بعرض معناها فى اللغة باعتباره الأصل ، ثم نثنى بأقوال علماء الشريعة وآرائهم ، ثم نختم ببيان مدى شمول العبادة لكيان الإنسان كله ، ثم لحياته جميعها ، فنقول وبالله التوفيق ، وهو الهادى لأقوم طريق : ـ

العبادة فى اللغـة :

أصل العبادة فى اللغة : التذليل من قولهم طريق معبد ، أى بكثرة الوطء عليه ، ومنه أخذ العبد لذله لمولاه .

والعبادة والخضوع والتذلل والاستكانة قرائب فى المعانى يقال ، تعبد فلان لفلان ـ إذا تذلل له ، وكل خضوع ليس فوقه خضوع فهو عبادة ، طاعة كان للمعبود أو غير طاعة ، وكل طاعة لله على جهة الخضوع والتذلل

---

(١) سورة الذاريات : ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨

فهى عبادة ، والعبادة نوع من الخضوع لايستحقه إلا المنعم بأعلى أجناس النعم كالحياة والفهم والسمع والبصر . [1] .

والعبدية والعبودية والعبودة والعبادة : الطاعة .

والاعتباد ، والاستعباد : التعبيد ، وتعبد : تنسك ، وتعبد فلانا : اتخذه عبدا . العبد الإنسان حراكان أو رقيقا ، يذهب بذلك إلى أنه مربوب لباريه عز وجل ، والعبد المملوك خلاف الحر قال سيبويه : هو فى الأصل صفة قالوا : رجل عبد ، ولكنه استعمل استعمال الأسماء ، والجمع أعبد وعبيد ، مثل أكلب وكليب ، وهو جمع عزيز ، وعباد وعبد ، مثل سقف وسقاف وسقف ، وأنشد الأخفش :

انسب العبد إلى آبائه ... أسود الجلدة من قوم عبد

ومنه قرأ بعضهم وعبد الطاغوت ، ويقال : فلان بين العبودة والعبودية والعبدية ، وأصل العبودية الخضوع والتذلل وفى حديث أبى هريرة : (لايقل أحدكم لمملوكه : عبدى وأمتى وليقل : فتاى وفتاتى) هذا على نفى الاستكبار عليهم وأن ينسب عبوديتهم إليه ، فإن المستحق لذلك الله تعالى هو رب العباد كلهم والعبيد .

وجعل بعضهم العبادة لله بخلاف العبدية وغيرها فهى تجعل لله وللمخلوقين . قال الأزهرى : ولايقال عبد يعبد عبادة إلا لمن يعبد الله ، ومن عبد دونه إلها فهو من الخاسرين . وأما عبد خدم مولاه فلا يقال عبده .

قال الليث : ويقال للمشركين هم عبدة الطاغوت . ويقال للمسلمين عباد الله يعبدون الله . والعابد : الموحد . **قال الزجاج** : قوله : وعبد الطاغوت معطوف عطف النسق على من لعنه الله ، المعنى من لعنه الله ومن عبد الطاغوت من دون الله عز وجل قال : وتأويل عبد الطاغوت

---

(١) المخصص لابن سيدة : ١٣ / ٨٦

أى أطاعه يعنى الشيطان فيما سول له وأغواه ، **قال** : والطاغوت الشيطان . وقال فى قوله تعالى : ﴿ **إياك نعبد** ﴾ أى نطيع الطاعة التى يخضع معها وقيل : إياك نوحد قال ومعنى العبادة فى اللغة : الطاعة مع الخضوع ومنه طريق معبد إذا كان مذللا بكثرة الوطء .

وقوله تعالى : ﴿ **وقومهما لنا عابدون** ﴾ ، أى دائنون . وكل من دان لملك فهو عابد له

وقال ابن الأنبارى : فلان عابد ، وهو الخاضع لربه المنقاد لأمره ، وقوله تعالى : ﴿ **اعبدوا ربكم** ﴾ أى أطيعوا ربكم ، والمتعبد المنفرد بالعبادة والمعبد : المكرم المعظم كأنه يعبد قال :

تقول : ألا تمسك عليك فإننى ... أرى المال عند الباخلين معبدا

والتعبيد : التذليل ، وبعير معبد : مذلل ، وطريق معبد : مسلوك مذلل ، ذكر الأزهرى الأقوال فى قوله تعالى : ﴿ **قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين** ﴾ [1] **ثم قال** : ذكرت الأقوال وفيه قول أحسن من جميع ماقالوا ، وأسوغ فى اللغة ، وأبعد من الاستكراه ، وأسرع إلى الفهم .

روى عن **مجاهد** فيه أنه يقول : إن كان لله ولد فى قولكم فأنا أول من عبدالله وحده وكذبكم بما تقولون .

قال الأزهرى : وهذا واضح . ومما يزيده وضوحا أن الله عز وجل قال للنبى ﷺ قل يامحمد للكفار : إن كان للرحمن ولد فى زعمكم فأنا أول العابدين لإله الخلق أجمعين ، الذى لم يلد ولم يولد ، وأول الموحدين للرب ، الخاضعين المطيعين له وحده لأن من عبد الله ، واعترف بأنه معبوده وحده لاشريك له ، فقد دفع أن يكون له ولد فى دعواكم ، والله عز وجل واحد لا شريك له ، وهومعبودى الذى لا ولد له ولاوالد .

---

(١) سورةالزخرف : ٨١

قال الأزهرى : وإلى هذا ذهب إبراهيم بن السرى وجماعة من ذوى المعرفة . قال : وهو الذى لايجوز عندى غيره .

وقوله عز وجل : ﴿ **فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى** ﴾ أى فى حزبى **قال الزجاجى فى قوله تعالى** : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ [1] المعنى : ماخلقتهم إلا لأدعوهم إلى عبادتى وأنا مريد للعبادة منهم ، وقد علم الله قبل أن يخلقهم من يعبده ومن يكفر به ولو كان خلقهم ليجبرهم على العبادة لكانوا كلهم عبادا مؤمنين قال الأزهرى : **وهذا قول أهل السنة والجماعة** .

والمتأمل فى هذه النقول التى أوردناها عن هؤلاء الصفوة من فقهاء اللغة ونقلتها يجد أن المعانى التى ذكروها بيانا لهذه الكلمة أعنى كلمة العبادة لاتتجاوز هذه المعانى : الخضوع ، الطاعة ، التذلل ، التنسك . . . [2]

العبادة فى الشرع

يقول ابن تيمية رحمه الله : والعبادة أصل معناها الذل : يقال طريق معبد إذا كان مذللا قد وطئته الأقدام .

لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب ، فهى تتضمن غاية الذل لله تعالى بغاية المحبة له ، فإن آخر مراتب الحب : هو التتيم ، وأوله : العلاقة لتعلق القلب بالمحبوب ، ثم الصبابة لانصباب القلب إليه ، ثم الغرام وهو الحب الملازم للقلب ثم العشق ، وآخرها التتيم ، يقال : تيم الله أى عبدالله ، فالمتيم المعبد لمحبوبه .

ومن خضع لإنسان مع بغضه له لايكون عابدا له ، ولوأحب شيئا ولم

(١) سورة الذاريات : ٥٦

(٢) لسان العرب ، لابن منظور : ٤ /٢٦٤ ـ ٢٦٧

يخضع له لم يكن عابدا له ، كما قد يحب الرجل ولده وصديقه ، ولهذا لايكفى أحدهما فى عبادة الله تعالى ، بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شىء وأن يكون الله أعظم عنده من كل شىء ، بل لايستحق المحبة ، والخضوع التام إلا الله ، وكل ما أحب لغير الله فمحبته فاسدة ، وما عظم بغير تعظيم أمر الله فتعظيمه باطل، قال الله تعالى: **﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم﴾ . . . الآية** [1] . **فجنس المحبة** ، تكون لله ولرسوله كالطاعة ، فإن الطاعة ، لله ولرسوله ، ولإرضاء الله ورسوله والله ورسوله أحق أن يرضوه . . . والإيتاء لله ولرسوله ، **﴿ ولوأنهم رضوا ماآتاهم الله ورسوله ﴾** [2] **الآية** .

ويقول ابن القيم : (العبادة : تجمع أصلين : غاية الحب بغاية الذل والخضوع ، والعرب تقول : طريق معبد ، أى مذلل ، والتعبد : التذلل والخضوع فمن أحببته ولم تكن خاضعا له لم تكن عابدا له ، ومن خضعت له بلا محبة لم تكن عابدا له حتى تكون محبا خاضعا) [3] ا. هـ .

ويقول ابن كثير رحمه الله عند تفسيره لقول الله تعالى : **﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ والعبادة فى اللغة** : من الذلة يقال طريق معبد ، أى مذلل . **وفى الشرع** : عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف ، وقدم المفعول وهو إياك وكرر للاهتمام والحصر أى لانعبد إلا إياك ولا نتوكل إلا عليك ، وهذا هو كمال الطاعة ، والدين يرجع إلى هذين المعنيين .

وهذا كما قال بعض السلف : الفاتحة سر القرآن وسرها هذه الكلمة **﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾** . **فالأول** : تبرؤمن الشرك ، **والثانى** : تبرؤ

---

(١) سورة التوبة : ٢٤ .

(٢) سورة التوبة : ٥٩ . العبودية لابن تيمية : ٤٤ ، ٥٥ .

(٣) مدارج السالكين : ١/ ٧٤ .

من الحول والقوة والتفويض إلى الله عز وجل وهذا المعنى فى غير آية من القرآن الكريم كما قال تعالى : ﴿ **فاعبده وتوكل عليه وماربك بغافل عما تعملون** ﴾ [1] . ﴿ **قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا** ﴾ [2] ﴿ **رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا** ﴾ [3] وكذلك هذه الآية الكريمة ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ [4] . .

★ ★ ★

---

(١) سورة هود : ١٢٣

(٢) سورة الملك : ٢٩

(٣) سورة المزمل : ٩

(٤) سورة الفاتحة ، تفسير ابن كثير ١ /٢٥ .

تعقيب واستطراد

من هنا نستطيع:أن ندرك أن العبادة التى قصد إليها الشارع ، والتى تعلى الإنسان وتشرفه ، وترفع من قدره ومكانته ، وتجعله يحس بإنسانيته وكرامته ، هى تلك التى تجمع بين الخضوع لله سبحانه ، والمحبة له ، والخشية منه .

ومهما اكتملت هذه المعانى فى عبد كان أقرب إلى ربه وأكرم عليه ، من غيره ، وأحق بالإمامة فى الدين ، وقيادة المتقين ، والحديث عن رب العالمين . .

الخضوع

وهذه هى العبادة فى صورتها المثلى : إنها تجمع الخضوع الذى تشترك فيه سائر الكائنات ، وتستظل بلوائه كل المخلوقات، من ماء وشجر ونبات ، وثوابت وسيارات طوعا أوكرها . **والخضوع** يعنى طاعة الله ، والاستجابة لأمره ، والمسارعة فى مرضاته ، والوقوف عند حدوده ، نعم : إن الكون كله خاضع لله ذى الجلال فى عبادة دائمة ، فى طاعة مستمرة فى خضوع واستسلام لايشوبهما تمرد ولا عصيان . **﴿ ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ، ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ﴾** (١) .

﴿ ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال ﴾ (٢) . . . **﴿ ولله يسجد مافى السموات وما فى الأرض من دابة**

---

(١) سورة الحج : ١٨

(٢) سورة الرعد : ١٥

والملائكة ، وهم لايستكبرون يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون مايؤمرون﴾ (١) **﴿ الشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان ﴾** (٢) .

هذا الخضوع الدائم ، وتلك العبادة الدائمة من الكون كله : علويه وسفليه ، أرضه وسمواته ، ماعلمنا منه ومالم نعلم ، ما أبصرنا وما لم نبصر ، يتفق وطبيعة هذه المخلوقات على اختلاف أنواعها ، وتنوع عباداتها ، **﴿ ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه ، و الله عليم بما يفعلون ﴾** (٣) . **﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ، ولكن لاتفقهون تسبيحهم ، إنه كان حليما غفورا ﴾** (٤) .

وأساس الخضوع لله تعالى هو الإحساس الصادق بهيبته وعظمته وسلطانه وقدرته ، وأنه المعطى المانع ، الضار النافع ، المحيى المميت الخافض الرافع ، المعز المذل ، السميع البصير ، الذى ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ، وَ إِلَيْه المصير يُطعِم ، ولايطعم ، يجير ولايجار عليه ، غنى عن كل ما سواه ، محتاج إليه جميع ماعداه .

والإنسان يكون فى قمة التواضع إذا سجد لخالقه ، ومولاه ، وقام بحق من خلقه وصوره ، وشق سمعه وبصره ، وهو بذلك يكون فى أسمى حالات القرب ، وأرجى أسباب القبول . يقول الصادق المصدوق ﷺ : **« أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء »** (٥) .

---

(١) سورة النحل : ٤٩ ، ٥٠
(٢) سورة الرحمن : ٥ ، ٦
(٣) سورة النور : ٤١
(٤) سورة الإسراء : ٤٤
(٥) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى

وفى معناه قول الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ **واسجد واقترب** ﴾ [١] . عن أبى فراس ربيعة بن كعب الأسلمى رضى الله عنه أنه قال : (**كنت أبيت** مع رسول الله ﷺ فآتيه بوضوئه وحاجته فقال سلنى **فقلت** : أسألك مرافقتك فى الجنة ، **فقال** :

«**أوغير ذلك**»

قلت : هو ذاك ، **قال** : «**فأعنى على نفسك بكثرة السجود** » [٢] .

وعن أبى عبدالله ويقال أبو عبدالرحمن ثوبان مولى رسول الله ﷺ — رضى الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **عليك بكثرة السجود فإنك لن تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة ، وحط عنك بها خطيئة** » [٣] .

وفى السجود كمال الخضوع والانقياد لمن بيده ملكوت كل شىء وهو الله رب العالمين ، وفى خضوع العبد لربه نجاحه وفلاحه ، وعزه وشرفه ، وحريته وكرامته ، وإلى هذا يشير القرآن الكريم فى ﴿ **ياأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون** ﴾ [٤] .

وكمال الخضوع إنما يتم إذا استجاب العبد لربه ، وآثره على ما سواه ، وقدم شريعته على كل الشرائع ، وأمره على كل الأمور ، وعرف معرفة الشاكرين عظيم حقه عليه ، ورحمته به ، وجميل إحسانه إليه ، وهو إذا لم يستجب طوعا فهو مستجيب كرها ﴿ **أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون** ﴾ [٥] .

---

(١) سورة العلق : ١٩
(٢) رواه مسلم
(٣) رواه مسلم
(٤) سورة الحج : ٧٧
(٥) سورة آل عمران : ٨٣

الحــب :

والإنســان الذى يحس بعظيم فضل ربه عليه ، ويدرك فيض نعمه المتعـددة وآلائـه المستمرة المتجددة ، وإحسانه الدائم وعطائه المتواصل ، وعفـوه وستره ، ورحمته ومغفرته **فإنه يحب ربه** أعظم الحب ، ويتفانى فى رضائه أشد التفانى .

ومعنى حبه لله أن يحب ما أحب الله ، ويبغض ما أبغض ، مسارعا فى مرضاته ، فارا من سخطه إلى رضاه ، ومن عقوبته إلى مغفرته ، ومن معصيته إلى طاعته ، ومنه إليه .

فالله سبحـــانـه يحب من عبـاده من كان صادق الإيمان به وكـامـل الإخـلاص له وعـظيم التوكل عليه ، وجميل الثقة بوعده ، **ثم هو يحب** المتقين ويحب المحسنين ويحب الصابرين ، فهو يحب من الأعمال والناس ما أحب الله فبادله الله سبحانه حبا بحب وودا بود . . . ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا** ﴾ [1]

إذا كان من البشر من انحرف وخضع وأحب غير الله فإن المؤمنين رأوا أن الله هو مطلوبهم ، وهـو مقصـودهم ، فلم يحبـوا غيره ، ولم يخضعـوا لسـواه ، ﴿ **ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله** . . .) [2] والذين عرفوا ربهم وأحبوه أحبوا رسوله ﷺ الذى عرفهم به ودلهم عليه ، بَلْ لايتم الإيمان حتى يكون الرسول ﷺ أحب إلى الإنسان من كل شى حتى نفسه التى بين جنبيه .

يقول عليه الصلاة والسلام : « **لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين** » [3] .

---

(١) سورة مريم : ٩٦

(٢) سورة البقرة : ١٦٥

(٣) رواه البخارى

وعن عبد الله بن هشام قال :

كنا مع النبى ﷺ ـ وهو آخذ بيد عمر ـ **فقال عمر** : يارسول الله ، لأنت أحب إلى من كل شىء إلا نفسى

فقال الرسول ـ ﷺ ـ «لا والذى نفسى بيده ـ حتى أكون أحب إليك من نفسك»

فقال عمر : فإنه الآن لأنت أحب إلى من نفسى

فقال رسول الله ﷺ : **«الآن ياعمر»** (1) .

ومعنى الآن ياعمر أى الآن فقط تم إيمانك . . .

ومحبة الله ورسوله هى غاية الغايات ، ونهاية النهايات ، ومطلب الأخيار الأبرار إذ هى لذة القلب ونعيمه ، وراحته ورحمته ، وجماله وأنسه ، وما من خلق قبل المحبة إلا هو طريقها ودليلها ، والموصل إليها ، كالتوبة والصبر ، وما من لذة وثمرة ونتيجة بعدها إلا وهى من آثارها ، ولازيادة نور إلا بتحقق وجودها وانتشار ظلالها فى قلب المحب ، الذى أحب بعد معرفة ، وتذوق بعد تجربة .

إن محبة الله ورسوله إذا حلت فى القلب آثرت المحبوب على كل ماعداه ، وقدمته على جميع من سواه ، وكل محبة بعد ذلك فهى تابعة ، وكل خوف بعد ذلك كان حرصا على زوالها ورحيلها بعد أن تذوق القلب رحيقها وجمالها مع تنزيه الله عن الشبيه والمثال ، والصورة والخيال ، وكل ما يخطر بالبال ، فالله ﴿ **ليس كمثله شىء وهو السميع البصير** ﴾ (2) ، ﴿ **لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير** ﴾ (3) .

---

(1) رواه البخارى وأحمد

(2) سورة الشورى : 11

(3) سورة الأنعام : 102

وإذا كان هذا الحب هو الذى ينبغى أن تشد اليه الرحال ، وأن يكون المطلوب فى كل حال **فما حقيقته ؟ وهل يمكن إدراك كنهه أو رسم صورته ؟**

يرى بعض علماء الكلام أن الحب الحقيقى لايخلو من مراقبة العبد لله ، **وقالوا** : إن معنى الحب لله هو المواظبة على طاعته . أما حقيقته فهى محال إلا مع الجنس والمثال .

يقول الإمام الغزالى رحمه الله : ولما أنكروا المحبة أنكروا الأنس والشوق ولذة المناجاة وسائر لوازم الحب وتوابعه ، ولابد من كشف الغطاء عن هذا الأمر ، ونحن فى هذا الكتاب نبين شواهد الشرع فى المحبة ، ثم بيان حقيقتها وأسبابها ثم بيان أن لا مستحق للمحبة إلا الله تعالى . . . [1]

ثم يفيض الإمام الغزالى فى بيان ذلك ونقتبس بعضا من كلامه المشرق الجميل يقول : اعلم أن الأمة مجمعة على أن الحب لله تعالى ولرسوله ﷺ فرض وكيف يفرض مالا وجود له ؟ وكيف يفسر الحب بالطاعة ، والطاعة تبع الحب وثمرته ؟ فلابد أن يتقدم الحب ، ثم بعد ذلك يطيع من أحب .

ويدل على إثبات الحب لله تعالى قوله عز وجل : ﴿ **يحبهم ويحبونه** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **والذين آمنوا أشد حبا لله** ﴾ [2] . وهو دليل على إثبات الحب ، وإثبات التفاوت فيه .

وقد جعل رسول الله ﷺ الحب لله من شرط الإيمان فى أخبار كثيرة إذ قال **أبو رزين العقيلى** : يارسول الله ما الإيمان ؟ قال : «**أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما**» [3] .

وفى حديث آخر : « لايؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » [4] .

---

(١) الاحياء للغزالى ٢٥٧١/١٤
(٢) سورة البقرة : ١٦٥
(٣) رواه الامام أحمد
(٤) متفق عليه من حديث أنس

وفى حديث آخر : « لايؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين وفى رواية ومن نفسه » (١)

وقال البخارى : ومن والده وولده (٢) كيف وقد قال الله تعالى : قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم . . الآية (٣) وإنما أجرى ذلك فى معرض التهديد والإنكار) اهـ .

لأن ختام الآيات ﴿ فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لايهدى القوم الفاسقين ﴾ ومعنى تربصوا . أى انتظروا ما يحل بكم من عقابه ، وشديد نكاله وعذابه ، وهو وعيد من الله لمن كان أهله وماله وماذكر فى الآية أحب إليه وآثر لديه من الله ورسوله والجهاد فى سبيله ، فلينظر ما يحل به من الوبال والنكال .

وماهددنا الله فى ختام الآية إلا ليحفزنا ويثير فينا ما جبلنا عليه وما فى استطاعتنا أن نحققه من محبة الله ورسوله ، والجهاد فى سبيله ، ولو كنا غير قادرين على تحقيق ذلك ، أو كان فوق طاقتنا لما كلفنا به ، ولكنه سبحانه رحمة بنا يدعونا إلى ما فيه كما لنا ، وتحقيق الغاية من وجودنا ، وهى معرفته ومحبته ، والخضوع له ، حتى نكون قد تحققنا بقوله سبحانه : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ (٤) .

فنتذوق لذة الشعور بالاتصال بالله ، ولذة المناجاة ، وحلاوة الأنس بالحبيب الذى لايغيب ، والمعبود المشهود ، الرحيم الودود ، الذى يمن على أحبابه ، والطالبين له بآلاء ونعم لاتوصف ولاتحد ، ولايحيط بها إحصاء ولاعد .

---

(١) متفق عليه من حديث أنس واللفظ لمسلم

(٢) تخريج العراقى فى الاحياء

(٣) سورة التوبة : ٢٤

(٤) سورة الذاريات : ٥٦

يفيض على أحبابه فى الدنيا ـ تفضلا وتكرما ـ نعيما ورحيقا من التلذذ بذكره والشعور برحمته ، ولذة الأنس بمناجاته ويعطيهم فى الآخرة ما يجل عن الوصف ويعجز عن إدراكه الخيال وفى الحديث القدسى عن النبى ﷺ فيما يرويه عن ربه : « **أعددت لعبادى الصالحين » فى الجنة مالاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولاخطر على قلب بشر ، بله ماأطلعتم عليه ، واقرأوا إن شئتم قول الله تعالى : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعلمون ﴾** (١) .

يقول ابن تيمية رحمه الله :

ليس عند القلب السليم أحلى ولا ألذ ولا أطيب ، ولا أسر ولا أنعم ، من حلاوة الإيمان ، المتضمن عبوديته لله ، ومحبته له ، وإخلاصه له ، وذلك يقتضى انجذاب القلب منيبا إلى الله ، خائفا منه ، راغبا راهبا ، كما قال تعالى : **﴿ من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ﴾** (٢)

إذ المحب يخاف من زوال مطلوبه أو عدم حصول مرغوبه ، فلا يكون عبداً لله ومحبا لله إلا بين خوف ورجاء كما قال تعالى : **﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا ﴾** (٣)

الخـوف :

والخوف الذى أضافه العلامة ابن كثير ـ رحمه الله ـ إلى تعريف العبادة ونبه عليه يعطى أن عباد الله بحق الذين عرفوا ربهم ، وخضعوا له ، واستجابوا لأمره ، وأثمرت لهم هذه المعرفة حبا وشوقا يخشون ربهم ، ويخافون زوال محبوبهم من قلوبهم ، وهم دائما بين خوف ورجاء ورغبة ورهبة .

---

(١) سورة السجدة : ١٧
(٢) سورة ق : ٣٣
(٣) سورة الإسراء : ٥٧

وقد امتدح الله سبحانه عباده الذين يخشونه ويخافون حسابه ، والوقوف بين يديه يوم العرض عليه ، فقال سبحانه : ﴿ والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ﴾ (١) وقال : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى ﴾ (٢) وقال :

﴿ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ، والذين هم بآيات ربهم يؤمنون والذين هم بربهم لا يشركون ، والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ، أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون ﴾ (٣) .

وأولو الألباب لا يغفلون عن لقاء ربهم ، والتفكير فى أمر آخرتهم ، والابتهال إلى ذى الجلال سبحانه أن يقيهم عذاب النار ، وأن يدخلهم مدخل الأبرار يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار ﴾ (٤) .

ومن دعوات عباد الرحمن التى يلهجون بها لربهم ﴿ والذين يقولون : ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما ، إنها ساءت مستقرا ومقاما ﴾ (٥) .

وكلما قويت معرفة العبد بربه كلما اشتدت خشيته منه ، وتعظيمه له ، ولذلك كان الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام وهم أعرف الخلق بالحق

---

(١) سورة الرعد : ٢١
(٢) سورة النازعات : ٤٠، ٤١
(٣) سورة المؤمنون : ٥٧ ـ ٦١
(٤) سورة آل عمران : ١٩٠ ـ ١٩٢
(٥) سورة الفرقان : ٦٥، ٦٦

جل جلاله ، وأشدهم حبا له ، وشوقا إليه ، ورجاء فيه ـ أشد الناس خشية لربهم .

وفى القرآن ألوان من دعواتهم التى تكشف عن أحوالهم فى ذلك وصفاتهم .

فهـذا هو الخليل عليه السلام يدعو ربه ويقول : ﴿ ولا تخزنى يوم يبعثون يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ (١) .

ويدعو يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام ربه فيقول : ﴿ رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين ﴾ (٢) .

ويخبر سبحانه عن زكريا وآله عليهم الصلاة والسلام فى إقبالهم على ربهم ، ورغبهم فيه ، وخشيتهم منه ، واستحقاقهم من أجل ذلك أجزل العطاء ، فيقول سبحانه : ﴿ وزكريا إذ نادى ربه رب لاتذرنى فردا وأنت خير الوارثين فاستجبنا له ، ووهبنا له يحيى ، وأصلحنا له زوجه ، إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ، ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين﴾ (٣) .

والنبى ﷺ يقـول : « كيف أنعم وصـاحب القرن قد التقم القرن واستمـع الإذن متى يؤمر بالنفخ فينفخ » فكأن ذلك ثقل على أصحاب رسول ﷺ فقال لهم : «قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل » (٤) .

وأخبر عليه الصلاة والسلام عن مدى علمه بالله . وخشيته له فقال . « أما والله إنى لأعلمكم بالله ، وأشدكم له خشية ـ الحديث » (٥) وفى رواية

---

(١) سورة الشعراء : ٨٧ ـ ٨٩
(٢) سورة يوسف : ١٠١
(٣) سورة الأنبياء ٨٩ ـ ٩٠
(٤) رواه الترمذى . وقال حديث حسن
(٥) حديث صحيح متفق عليه .

أخرى : « **إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا** » [1]

والذى لاشك فيه أن تعريف ابن كثير للعبادة أضاف معنى جليلا ونبه إلى أمر عظيم ، ينبغى التيقظ له ، والالتفات إليه ، **فالخوف ركن جوهرى** من أركان العبادة والإقبال على الله جل علاه ، إذ المطيع الذى انشرح بحب الله صدره ، ولانت بعبادته جوارحه ما لم تهذبه الخشية ويقومه الخوف ربما قصر وأهمل ، واطمأن إلى خضوعه ومحبته ، وأدل بعمله وأعجب بمسلكه ، فأتى من حيث لايدرى ولايحتسب .

لذلك ينصح النبى الأمين صلوات الله وسلامه عليه فيقول : « **من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة** » . [2]

وقبل أن نفرغ من الكلام عن العبادة وعناصرها الثلاثة من الخضوع والحب والخشية **فإننا نود أن نذكر** أن الخضوع الذى يراد هنا إنما هو الخضوع الناشىء عن إسلام الوجه لله ، وكمال الانقياد لشريعة محمد ﷺ ، لا الخضوع للأوهام وما تهوى النفوس .

وكذلك نريد بالمحبة المحبة الصحيحة السليمة التى يعرب عنها قوله تعالى : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم** ﴾ . [3]

لا المحبة المزعومة التى ادعاها اليهود والنصارى لأنفسهم كذبا وبهتانا إذ قالوا : ﴿ **نحن أبناء الله وأحباؤه** ﴾ [4] وكذبوا حيث حرفوا كتبهم وبدلوها وغيروها وكفروا بما أنزل على محمد ﷺ وهو الحق مصدقا لما معهم ، وشرعوا

---

(1) حديث صحيح متفق عليه .
(2) رواه الترميذى ، وقال : حديث حسن
(3) سورة آل عمران : ٣١
(4) سورة المائدة : ١٨

لأنفسهم ولأتباعهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴿ **فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون** ﴾ (١) .

وقد دعاهم خاتم المرسلين إلى التكميل والتصحيح ، والسير على المنهج الصحيح ونادى فيهم بما أوصاه الله إليه بشأنهم : ﴿ **قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم : أن لانعبد إلا الله ، ولانشرك به شيئا ، ولايتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون** ﴾ (٢) .

كذلك فإن المراد بالخوف ما يحض على العمل ، ويدفع إلى الخير ، ويكف عن الشر والإثم والتقصير قال سبحانه وتعالى : ﴿ **وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى** ﴾ (٣) .

---

(١) سورة البقرة : ٧٩

(٢) سورة آل عمران : ٦٤

(٣) سورة النازعات : ٤٠ ، ٤١

شمول العبادة للإنسان بجميع جوانبه

عقله ، وقلبه ، وحواسه ، وجوارحه

ليس الإنسان هو هذا الهيكل الترابى فحسب ، ولكن فيه نفحة إلهية ونفخة روحية قال الله سبحانه : ﴿ **إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين** ﴾ [(١)] .

إن الإنسان كائن متميز ، ومخلوق مهيأ للتكريم والتفضيل ، خلقه ربه فى أحسن صورة ، وكمله بالعقل والبيان ، وطبعه فى أصل فطرته على إدراك الحق والخير ، وتمييز الطيب من الخبيث .

والله الذى خصه بهذه المزايا العظيمة ، وأهله ليكون خليفة فى أرضه ، لم يدعه لعقله ، ولا لما جبل عليه فى أصل فطرته .

وإنما أرسل إليه الرسل مبشرين ومنذرين ، محذرين ومذكرين ، وأنزل من أجله الكتب ، حتى يأخذ الرسل بأيدى البشر إلى صراط الله السوى وطريقه المستقيم ، وحتى ينقوا فطرته مما علق بها من انحراف ، واعتراها من ضلال ، وحتى ينظفوا عقله مما يكون قد تراكم عليه من أمراض وأدواء نتيجة لسيطرة الهوى عليه ، وغلبة الشهوات على نفسه ، وحتى يبصروه بأقوالهم وأحوالهم بالطريق الذى يتعين عليه سلوكه ليظفر برضا مولاه ، ورحمة ربه ، ويذكروه بما أودع فى فطرته من خير ومعرفة لأن كثيرا من الناس ضلوا وانحرفوا .

بل إن بعضهم علم ، ولكن علمه لم يغن عنه من الله شيئا ، إذ آثر هواه على مولاه ، وهذا كفر غليظ ، وضلال بعيد ﴿ **أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره**

(١) سورة ص : ٧١

غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ﴾ [1] .

فهذا الذى عبد هواه من دون الله ما انتفع بالعلم الذى وصله ، ولا البلاغ الذى سمعه ، فعطل ما وهبه الله من نعم التفكير وحسن التقدير ، فأضله الله لعلمه باستحقاقه لذلك ، وقامت الحجة عليه ، فأصبح لا ينتفع بما يسمع ، ولايعى شيئا يهتدى به وليس له من حجة يستنيرها (**فمن يهديه من بعد الله ؟**) .

انحرف كثير من البشر ، وضلوا عن سواء السبيل ، وزين لهم الشيطان سوء أعمالهم وذهبوا فى الضلال مذاهب شتى ، وطرائق قددا ، **فمنهم** من أنكر الخالق الكريم ، وكفر بالمدير الحكيم ، **ومنهم** من اتخذ إلهين من دون الله ، **ومنهم** من اتخذ ثلاثة ، **ومنهم** من عبد الشمس والقمر والكواكب ، **ومنهم** من عبد الأحجار والأشجار والأبقار من دون الله ، **ومنهم** من جعل لكل قوة من قوى الكون إلها خاصا بها ، **ومنهم** من أنكر الحياة بعد الموت وكفر بالبعث واللقاء . **ومنهم** من أتبع نفسه هواها وتركها ترتع فى الشهوات ، وتلغ فى الموبقات ، غير واقف عند غاية ، أو منته إلى نهاية .

وهكذا تخبط العقل البشرى فيما يتعلق بالألوهية ، وتخبط كذلك فيما يتعلق بالحياة الآخرة ، وتخبط فى أخلاقه وسلوكه ، وتخبط فى كل مناحى الحياة سواء ما يتعلق منها بالفكر والنظر ، أو بالعمل والتطبيق ، حتى أصبح العقل البشرى لدى السواد الأعظم من الناس وكأنه لاوجود له فى انتفاء الفائدة منه ، وفى هؤلاء الضالين المكذبين يأتى قول الحق جل جلاله : **﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام ، بل هم أضل سبيلا ﴾** [2]

---

(١) سورة الجاثية : ٢٣

(٢) سورة الفرقان : ٤٤

ويأتى حديثه عن عاقبة أمرهم ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لايفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لايسمعون بها ، أولئك كالأنعام ، بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ (١)

ويأتى حديثهم عن أنفسهم وشهادتهم عليها يوم القيامة ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ﴾ (٢)

والذى عرف المنعم بفطرته ، وبآثار نعمته ، وبآلائه المتجددة المتواصلة ، الدائمة المتتالية بلا انقطاع : هذا الصنف الذى أعمل قلبه وعقله فى الخير ، فسارع فى الخيرات وفر من المخالفات ، هم أولئك الذين اهتدوا وهم أولو الألباب ، عقولهم فى عاقبة أمرها متدبرة ، وقلوبهم من ربها وجلة ، وألسنتهم بذكره رطبة ، وجوارحهم بعبادته والإقبال عليه طيعة لينة .

هؤلاء هم الذين استفادوا من حياتهم ، وانتفعوا بشكر ما أنعم الله به عليهم ، والله سبحانه بمنه وفضله ، وكرمه ولطفه ، جعل لعباده ألوانا من القربات فى العبادة الواحدة فللقلب النية والعزيمة ، والرغبة فى الخير ، وللسان الذكر والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وللجوارح عباداتها الواضحة الكثيرة المتنوعة .

ولنتأمل الآن بشىء من التفصيل والإيضاح بعد هذه المقدمة كيف كانت العبادة شاملة للإنسان بجميع جوانبه : عقله وقلبه ، ولسانه وجوارحه ، حسه ونفسه فنقول :

إن الله ـ بحكمته ـ لم يطلب من الناس أن يعبدوه بجوارحهم مغفلا قلوبهم ، أو يعبدوه بقلوبهم تاركا جوارحهم ، ولم يطلب منهم أن يتعرفوا إليه

---

(١) سورة الاعراف : ١٧٩
(٢) سورة الملك : ١٠

فى المسجد وينصرفوا عن أمره حين يباشرون أسباب معاشهم ، ويتقلبون فى حرفهم وتجاراتهم ، بل إنه أراد منهم أن تكون عباداتهم بقلوبهم وعقولهم ، وألسنتهم وجوارحهم وأن يكون تَوَجُّهُهُمْ إليه دائما على تغاير الأزمنة والأماكن ، وأن يكون التوجه إليه وحده فيعبدوه مخلصين له الدين ، يقول النبى ﷺ : « **اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن** » (١)

وكلما استطاع العبد أن يحقق ما طلب منه ربه من ذلك فى صورته المثلى كلما كان أقرب إلى ربه ، وأحق بعطائه ، وأولى بفضله ونعمائه ، وأكرم عليه ، وآثر لديه ، ولعل خير ما نسوقه فى معرض الاستدلال لهذه الحقيقة ما أوصى به الله جل جلاله نبيه وحبيبه محمدا ﷺ ﴿ **قل : إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لاشريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين** ﴾ (٢) .

يقول الكاتب المسلم **الأستاذ مصطفى صادق الرافعى** رحمه الله : **هذا الدين فيه ثلاث عبادات** يشد بعضها بعضا ، **إحداها للأعضاء ، والثانية للقلب ، والثالثة** للنفس فعبادة الأعضاء طهارتها واعتيادها الضبط ، وعبادة القلب طهارته وحبه للخير ، وعبادة النفس طهارتها وبذلها فى سبيل الإنسانية اهـ .

وللعلامة شمس الدين ابن القيم ـ رحمه الله ـ كلمات طيبة موفقة فى هذا المقام ضمنها مراتب العبودية موزعة على القلب وسائر الحواس ، آثرنا أن نسوقها بتمامها لما فيها من البيان والتفصيل ، سائلين الله أن يهدى بها سواء السبيل .

قال رحمه الله : ورحى العبودية تدور على خمس عشرة قاعدة ، من

---

(١) رواه الترمذى وقال : حديث حسن

(٢) سورة الانعام : ١٦٢، ١٦٣

كملها كمل مراتب العبودية . وبيانها : أن العبودية منقسمة على القلب واللسان والجوارح ، وعلى كل منها عبودية مختصة .

والأحكام التى للعبودية خمسة : واجب ، ومستحب ، وحرام ، ومكروه ، ومباح ، **وهى** لكل واحد من القلب واللسان والجوارح ، فواجب القلب منه متفق على وجوبه ومختلف فيه ، **فالمتفق على وجوبه** كالإخلاص ، والتوكل ، والمحبة والصبر ، والإنابة ، والخوف والرجاء ، والتصديق الجازم ، والنية فى العبادة ، **وهذا قدر زائد** على الإخلاص فإن الإخلاص هو إفراد المعبود عن غيره ، ونية العبادة لها مرتبتان (١) تمييز العبادة عن العادة (٢) تمييز مراتب العبادات بعضها عن بعض ، **والأقسام الثلاثة واجبة** . وكذلك الصدق ، والفرق بينه وبين الإخلاص أن للعبد مطلوبا وطلبا فالإخلاص : توحيد مطلوب ، والصدق توحيد طلب .

فالإخلاص : أن لا يكون المطلوب منقسما ، والصدق أن لايكون الطلب منقسما فالصدق بذل الجهد ، والإخلاص إفراد المطلوب .

واتفقت الأمة على وجوب هذه الأعمال على القلب من حيث الجملة ، **وكذلك النصح** فى العبودية ومدار الدين عليه ، وهو بذل الجهد فى اتباع العبودية على الوجه المحبوب للرب ، المرضى له ، وأصل هذا واجب وكماله مرتبة المقربين .

وكذلك كل واحد من هذه الواجبات القلبية **له طرفان** : واجب مستحق وهو مرتبة أصحاب اليمين ، وكمال مستحب وهو مرتبة المقربين .

وكذلك الصبر واجب باتفاق الأمة ، قال الإمام أحمد : ذكر الله الصبر فى تسعين موضعا من القرآن أو بضعا وتسعين وله طرفان أيضا : واجب مستحق وكمال مستحب .

وأما المختلف فيه كالرضا ففى وجوبه قولان للفقهاء والصوفية فمن أوجبه قال : السخط حرام ولاخلاص عنه إلا بالرضا وما لاخلاص عن

الحرام إلا به فهو واجب واحتجوا بأثر (**من لم يصبر على بلائى ولم يرض بقضائى فليتخذ ربا سواى**) ومن قال هو مستحب قال : لم يجىء الأمر به فى القرآن ولا فى السنة بخلاف الصبر فإن الله أمر به فى مواضع كثيرة من كتابه .

وكذلك التوكل ، قال تعالى : ﴿ **إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين** ﴾ (١) وأمرنا بالإنابة فقال : ﴿ **وأنيبوا إلى ربكم** ﴾ (٢)

وأمر بالإخلاص فى قوله : ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين** ﴾ . (٣)

وكذلك الخوف كقوله : ﴿ **فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين** ﴾ (٤) وقوله : ﴿ **فلا تخشوهم واخشون** ﴾ (٥) وقوله : ﴿ **وإياى فارهبون** ﴾ (٦) **وكذلك الصدق** قال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾ (٧) . وكذلك المحبة وهى أفرض الواجبات إذ هى قلب العبادة المأمور بها ومخها وروحها ، وأما الرضا فإنها جاء فى القرآن مدح أهله والثناء عليهم لا الأمر به .

وهذا الخلاف بينهم إنها هو فى الرضا بقضائه الكونى ، أما الرضا به ربا وإلها وهو الرضا بأمره الدينى فمتفق على فرضيته ، بل لايصير العبد مسلما إلا بهذا الرضا ، أن يرضى بالله ربا وبالإسلام دينا ، وبمحمد ﷺ رسولا . . والمقصود أن هذه الأعمال واجبها ومستحبها هى عبودية القلب فمن عطلها فقد عطَّل عبودية الملك ، وإن قام بعبودية رعيته من الجوارح ،

---

(١) سورة يونس : ٨٤
(٢) سورة الزمر : ٥٤
(٣) سورة البينة : ٥
(٤) سورة آل عمران : ١٧٥
(٥) سورة المائدة : ٣
(٦) سورة البقرة : ٤٠
(٧) سورة التوبة : ١١٩

والمقصود أن يكون ملك الأعضاء ، وهو القلب قائما بعبوديته لله ـ سبحانه ـ هو ورعيته . وأما المحرمات التى عليه فالكبر والرياء ، والعجب والحسد ، والغفلة والنفاق ، وهى نوعان كفر ومعصية . .

فالكفر : كالشك والنفاق ، والشرك وتوابعه .

والمعصية نوعان : كبائر وصغائر :

فالكبائر : كالرياء والعجب والكبر والفخر ، والخيلاء والقنوط من رحمة الله ، واليأس من روح الله ، والأمن من مكر الله ، والفرح والسرور بأذى المسلمين ، والشماتة بمعصيتهم ومحبة أن تشيع الفاحشة فيهم ، وحسدهم على ما آتاهم الله من فضله ، وتمنى زوال ذلك عنهم .

وتوابع هذه الأمور التى هى أشد تحريما من الزنا وشرب الخمر وغيرهما من الكبـائر الظاهرة ، ولاصلاح للقلب ولا للجسد إلا باجتنابها والتوبة منها ، وإلا فهو قلب فاسد وإذا فسد القلب فسد الجسد .

وهذه الآفات إنما تنشأ من الجهل بعبودية القلب ، وترك القيام بها ، فوظيفة (**إياك نعبد**) على القلب قبل الجوارح ، فإذا جهلها وترك القيام بها امتلأ بأضدادها ولابد ، وبحسب قيامه بها يتخلص من أضداها ، وهذه الأمور ونحوها قد تكون صغائر فى حقه ، وقد تكون كبائر بحسب قوتها وغلظها وخفتها ودقتها .

ومن الصغائر أيضا : شهوة المحرمات وتمنيها وتتفاوت درجات الشهوة فى الكبر والصغر بحسب تفاوت درجات المشتهى ، فشهوة الكفر والشرك : كفر ، وشهوة البدعة فسق ، وشهوة الكبائر معصية ، فإن تركها لله مع قدرته عليها أثيب عليها ، وإن تركها عجزا بعد بذله مقدوره فى تحصيلها استحق عقوبة الفاعل لتنزيله منزلته فى أحكام الثواب والعقاب ، وإن لم ينزل منزلته فى أحكام الشرع .

ولهذا قال النبى - ﷺ - « **إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار ، قالوا هذا القاتل يا رسول الله . فما بال المقتول ؟ قال إنه كان حريصا على قتل صاحبه** »[1] فنزله منزلة القاتل لحرصه على قتل صاحبه فى الإثم دون الحكم ، وله نظائر كثيرة فى الثواب والعقاب .

وقد علم بهذا مستحب القلب ومباحه .

عبوديات اللسان لله :

أما عبوديات اللسان الخمس فواجبها النطق بالشهادتين ، وتلاوة ما يلزمه تلاوته من القرآن ، وهو ما تتوقف عليه صحة صلاته ، وتلفظه بالأذكار الواجبة فى الصلاة التى أمر الله بها ورسوله ، كما أمر بالتسبيح فى الركوع والسجود ، وأمر بقوله ربنا ولك الحمد بعد الاعتدال ، وأمر بالتشهد ، وأمر بالتكبير . ومن واجبه رد السلام وفى ابتدائه قولان : ومن واجبه : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتعليم الجاهل ، وإرشاد الضال ، وأداء الشهادة المتعينة وصدق الحديث .

وأما مستحبه : فتلاوة القرآن ، ودوام ذكر الله ، والمذاكرة فى العلم النافع وتوابع ذلك .

وأما محرمه : فهو النطق بكل مايبغضه الله ورسوله . كالنطق بالبدع المخالفة لما بعث الله به رسوله ، والدعاء إليها وتحسينها وتقويتها ، وكالقذف ، وسب المسلم وأذاه ، بكل قول ، والكذب وشهادة الزور ، والقول على الله بلا علم ، وهو أشدها تحريما .

ومكروهه : التكلم بما تركه خير من الكلام به ، مع عدم العقوبة عليه . . .

---

(١) رواه الشيخان وأحمد وأبو داود والنسائى

عبوديات الجوارح لله :

وأما العبوديات الخمس على الجوارح : فعلى خمس وعشرين مرتبة أيضا إذ الحواس خمس وعلى كل حاسة خمس عبوديات . .

عبودية السمع :

فعلى السمع : وجوب الانصات والاستماع لما أوجبه الله ورسوله عليه السلام من استماع الإسلام والإيمان وفرض منها ، وكذلك استماع القراءة فى الصلاة إذا جهربها الإمام واستمع لخطبة الجمعة فى أصح قولى العلماء .

ويحرم عليه استماع الكفر والبدع ، إلا حيث يكون فى استماعه مصلحة راجحة من رده أو الشهادة على قائله أو زيادة قوة الإيمان والسنة بمعرفة ضدهما من الكفر والبدعة ونحو ذلك . وكاستماع أسرار من يهرب عنك بسره ، ولايحب أن يطلعك عليه ، ومالم يكن متضمنا لحق لله يجب القيام به ، أو لأذى مسلم يتعين نصحه وتحذيره منه . وكذلك استماع أصوات النساء الأجانب اللائى تخشى الفتنة بأصواتهن إذا لم تدع حاجة من شهادة أو معاملة ، أو استفتاء أو محاكمة ، أو مداواة أو نحوها ، وكذلك استماع المعازف وآلات الطرب واللهو .

وأما السمع المستحب : كاستماع المستحب من العلم ، وقراءة القرآن ، وذكر الله ، واستماع كل مايحبه الله ، وليس بفرض .

والمكروه : عكسه وهو استماع كل ما يكره ولا يعاقب عليه . والمباح ظاهر .

عبودية النظر :

وأما النظر الواجب : فالنظر فى المصحف ، وكتب العلم عند تعين تعلم العلم الواجب منها ، والنظر إذا تعين لتمييز الحلال من الحرام من

الأعيان التى يأكلها أو ينفقها أو يستمتع بها ، والأمانات التى يؤديها إلى أربابها ليميز بينها ونحو ذلك .

والنظر الحرام : النظر إلى الأجنبيات بشهوة مطلقا وبغيرها إلا لحاجة كنظر الخاطب ، والمستام ، والمعامل ، والشاهد ، والحاكم ، والطبيب ، وذى المحرم .

والمستحب : النظر فى كتب العلم والدين التى يزداد بها الرجل إيمانا وعلما ، والنظر فى المصحف ، ووجوه العلماء الصالحين ، والوالدين ، والنظر فى آيات الله المشهودة ، ليستدل بها على توحيده ومعرفته وحكمته .

والمكروه : فضول النظر الذى لامصلحة فيه ، فإن له فضولا كما للسان فضول وكم قاد فضوله إلى فضول عز التخلص منها وأعيا دواؤها .

وقال بعض السلف : كانوا يكرهون فضول النظر ، كما يكرهون فضول الكلام .

والمباح : النظر الذى لا مضرة فيه فى العاجل والآجل ولامنفعة .

والحرام : النظر إلى العورات وهى قسمان : عورة وراء الثياب ، وعورة وراء الأبواب ، **ولو نظر فى العورة التى** وراء الأبواب فرماه صاحب العورة ، ففقأ عينه لم يكن عليه شىء وذهب هدرا بنص قول رسول الله ﷺ فى الحديث المتفق على صحته وإن ضعفه بعض العلماء لكونه لم يبلغه النص أو تأوله فى البخارى ومسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« من اطلع فى بيت قوم بغير إذنهم فقد حل لهم أن يفقئوا عينه » .

ورواه أبو داود وفيه (**ففقئوا عينه فقد هدرت**) - مابين القوسين ليس فى الأصل - .

وهذا إذا لم يكن للناظر سبب يباح النظر لأجله ، كعورة له هناك ينظرها ، أوريبة هو مأمور أو مأذون له فى الاطلاع عليها .

أما الذوق الواجب : فتناول الطعام والشراب عند الاضطرار إليه وخوف الموت ، فإن تركه حتى مات ، مات عاصيا قاتلا لنفسه ، **قال الإمام أحمد وطاووس** : من اضطر إلى أكل الميتة فلم يأكل حتى مات دخل النار .

ومن هذا تناول الدواء إذا تيقن النجاة به من الهلاك على أصح القولين وإن ظن الشفاء به فهو مستحب مباح أو الأفضل تركه ؟ فيه نزاع معروف بين السلف والخلف .

والذوق الحرام : كذوق الخمر ، والسموم القاتلة ، والذوق الممنوع منه للصوم الواجب وأما المكروه : فكذوق المشتبهات ، والأكل فوق الحاجة ، وذوق الطعام الفجاءة ، وهو الطعام الذى تفجأ آكله ، ولم يرد أن يدعوك إليه ، وأكل أطعمة المرائية فى الولائم والدعوات ونحوها ، وفى السنن أن رسول الله ﷺ **نهى عن طعام المتباريين** وذوق طعام من يطعمك حياء منك لابطيبة نفس .

والذوق المستحب : أكل مايعينك على طاعة الله عز وجل ، مما أذن الله فيه والأكل مع الضيف ليطيب له الأكل ، لينال منه غرضه ، والأكل من طعام صاحب الدعوة الواجب إجابتها أو المستحب ، وقد أوجب بعض الفقهاء الأكل من الوليمة الواجب إجابتها للأمر به عن الشارع .

والذوق المباح : مالم يكن فيه إثم ولارجحان .

وأما تعلق العبوديات الخمس بحاسة الشم .

فالشم الواجب : كل شم تعين طريقا للتمييز بين الحلال والحرام ، كالشم الذى تعلم به هذه العين هل هى خبيثة أو طيبة ؟ وهل هى سم قاتل أو لامضرة فيه ؟ أويميز به بين مايملك الانتفاع به ، ومالايملك ؟ ومن هذا شم المقوم ورب الخبرة عند الحكم بالتقويم ، و (شم) العبيد ونحو ذلك .

وأما الشم الحرام : فالمتعمد لشم الطيب فى الإحرام ، وشم الطيب المغصوب والمسروق وتعمد الشم من النساء الأجنبيات خشية الأفتنان بما وراءه .

وأما الشم المستحب : فشم مايعينك على طاعة الله ، ويقوى الحواس ، ويبسط النفس للعلم والعمل . ومن هذا هدية الطيب والريحان إذا أهديت لك . ففى صحيح مسلم عن النبى - ﷺ - من عرض عليه ريحان فلايرده ، فإنه طيب الريح ، خفيف الحمل والمكروه كشم طيب الظلمة ، وأصحاب الشبهات ، ونحو ذلك .

وأما المكروه : فكالعبث واللعب الذى ليس بحرام ، وكتابة مالافائدة فى كتابته ولامنفعة فيه فى الدنيا والآخرة .

والمستحب : كتابة كل مافيه منفعة فى الدين أو مصلحة للمسلم والإحسان بيده بأن يعين صانعا ، أويصنع لأخرق ، أو يفرغ من دلوه فى دلو المستسقى أو يحمل له على دابته ، أو يمسكها حتى يحمل عليها ، أويعاونه بيده فيما يحتاج إليه ونحو ذلك ، ومنه : لمس الركن بيده فى الطواف ، وفى تقبيلها بعد اللمس قولان والمباح : ما لا مضرة فيه ولاثواب .

وأما المشى الواجب : فالمشى إلى الجمعات والجماعات فى أصح القولين لبضعة وعشرين دليلا ، مذكورة فى غير هذا الموضع . والمشى حول البيت للطواف الواجب والمشى بين الصفا والمروة بنفسه أو بمركوبه والمشى إلى حكم الله ورسوله إذا دعى إليه والمشى إلى صلة رحمه وبر والديه والمشى إلى مجالس العلم الواجب طلب تعلمه والى الحج إذا قربت المسافة ولم يكن عليه فيه ضرر .

والحرام : المشى إلى معصية الله وهو من رجل الشيطان . قال تعالى :

﴿ **وأجلب عليهم بخيلك ورجلك** ﴾ [1] **قال : مقاتل** : استعن عليهم بركبان جندك ومشاتهم فكل راكب وماش فى معصية الله فهو من جند إبليس .

وكذلك تتعلق هذه الأحكام الخمسة بالركوب أيضا .

فواجبه : فى الركوب فى الغزو ، والجهاد ، والحج الواجب .
ومستحبه فى الركوب المستحب من ذلك ، ولطلب العلم وصلة الرحم ، وبر الوالدين وفى الوقوف بعرفة نزاع ، هل الركوب فيه أفضل أم على الأرض ؟

والتحقيق : أن الركوب أفضل إذا تضمن مصلحة ، من تعليم المناسك واقتداء به وكان أعون على الدعاء ، ولم يكن فيه ضرر على الدابة .

وحرامه : الركوب فى معصية الله عز وجل .
ومكروهه : الركوب للهو واللعب وكل ماتركه خير من فعله .
ومباحه : الركوب لما لم يتضمن فوت أجر ولاتحصيل وزر

والمباح : مالامنع فيه من الله ولاتبعة ، ولافيه مصلحة دينية ، ولاتعلق له بالشرع .

وأما تعلق هذه الخمسة بحاسة اللمس ، فاللمس الواجب ، كلمس الزوجة حين يجب جماعها والأمة الواجب إعفافها .

والحرام : لمس مالا يحل من الأجنبيات . .

والمستحب : إذا كان فيه غض بصره ، وكف نفسه عن الحرام ، وإعفاف أهله .
والمكروه : لمس الزوجة فى الإحرام للذة .
وكذلك فى الاعتكاف ، وفى الصيام إذا لم يأمن على نفسه .

ومن هذا لمس بدن الميت ـ لغير غاسله ـ لأن بدنه قد صار بمنزلة عورة الحى تكريما له ، ولهذا يستحب ستره عن العيون وتغسيله فى قميصه فى أحد القولين ولمس فخذ الرجل إذا قلنا هى عورة .

والمباح : إذا لم يكن فيه مفسدة ولامصلحة دينية .

وهذه المراتب أيضا مرتبة على البطش باليد ، والمشى بالرجل . وأمثلتها لاتخفى فالتكسب المقدور للنفقة على نفسه وأهله وعياله : واجب . وفى وجوبه لقضاء دينه خلاف . والصحيح : وجوبه ليمكنه من أداء دينه ولايجب لإخراج الزكاة وفى وجوبه لأداء فريضة الحج نظر . والأقوى فى الدليل وجوبه لدخوله فى الاستطاعة : وتمكنه بذلك من أداء النسك والمشهور عدم وجوبه . ومن البطش الواجب : إهانة المفطر ، ورمى الجمار ، ومباشرة الوضوء والتيمم . .

والحرام : كقتل النفس التى حرم الله قتلها ، ونهب المال المعصوم ، وضرب مالايحل ضربه ، ونحو ذلك ، وكأنواع اللعب المحرم بالنص كالنرد ، أو ماهو أشد تحريما منه عند أهل المدينة . كالشطرنج . أو مثله عند فقهاء الحديث كالإمام أحمد وغيره ، أودونه عند بعضهم . ونحو كتابة البدع المخالفة للسنة تصنيفا أو نسخا ، إلامقرونا بردها ونقضها وكتابة الزور والظلم والحكم الجائر والقذف والتشبيب بالنساء الأجانب وكتابة مافيه مضرة على المسلمين فى دينهم أو دنياهم . ولاسيما إن كسبت عليه مالا ﴿ فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ﴾ [1] وكذلك كتابة المفتى على الفتوى ما يخالف حكم الله ورسوله ، إلا أن يكون مجتهدا مخطئا فالإثم موضوع عنه .

فهذه خمسون مرتبة على عشرة أشياء هى القلب واللسان ، والسمع

(١) سورة البقرة : ٧٩

والبصر ، والأنف ، والفم ، واليد والرجل ، والفرج والاستواء على ظهر الدابة (ا هـ) [1] .

وبهذا التفصيل وبذاك البيان الدقيق العميق يتجلى ويتبين لنا كيف شملت العبادة فى الإسلام كيان المسلم كله ، ظاهره وباطنه ، سره وعلانيته ، وجعلته فى عبادة دائمة فى جميع حالاته وكافة شئونه ، وبهذا يكون قد حقق عبوديته ، وحقق أو تحقق بقول الله عز وجل : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ [2] .

ثانيا : شمول العبادة للحياة جميعها وللدين كله :

ليست العبادة فى الإسلام ، انزواء وانطواء أو عزلة عن الحياة والأحياء وانقطاعاً عن الناس للقيام ببعض الشعائر كالصلاه والذكر ، والاستغفار ، والدعاء ، كما يتصور بعض الناس ، ويظنون أنهم إذا قاموا بذلك منقطعين مبتعدين عن الحياة والأحياء فهم العباد وأنهم أحباب الله وأنهم القائمون بحق العبودية لله فهذا مفهوم خاطىء للعبادة وقاصر .

هذه الشعائر المتمثلة فى الصلاة والزكاة والحج والصيام والذكر والدعاء والاستغفار نوع من العبادة وليست كل العبادة المطلوبة .

فمفهوم العبادة فى الإسلام أرحب وأشمل وأدق وأعمق من هذا التصور المحدود المعدود : إن العبادة فى الإسلام تشمل الدين كله والحياة بأسرها كما شملت كيان الإنسان كله من قلب وسمع وبصر ونظر . . إلى آخر ما تقدم بيانه .

---

(١) مدارج السالكين ١ / ١٢٢

(٢) سورة الفاتحة : ٥

العبادة اتباع لقانون الله

حقيقة العبادة : هى العبودية لله تعالى ، أن تكون عابدا لمعبود واحد وأن تكون خاضعا لإله واحد لا رب لك غيره ولامعبود لك سواه هو ربك وأنت عبده فلست خاضعا لهواك ، ولا لأحد من المخلوقات .

فكل عمل تعمله وكل فكرة تنفذها ، وكل اتجاه تسير فيه ، وكل وجهة يممت وجهك نحوها فهى لله وحده . فأنت إذا أمرت بالمعروف وقلت الحق ، ونطقت الصدق ، وأصلحت بين المتخاصمين وقلت للناس حسنا فكلامك هذا عبادة كالصلاة والصيام . وإذا اجتنبت الكذب والغيبة والنميمة وغيرها من الرذائل مستحضرا أن الذى نهاك عن هذا هو الله وحده ، فهذه عبادة ، كذلك إذا أكلت أو شربت أو نمت أو استيقظت أو باشرت عملك أو رجعت منه من أكبر أمر إلى أصغره ، ومن قليله أو كثيره والمقصد لله ، والمتوجه إليه هو لاغيره كل ذلك يصبح عباده .

فكل عمل تقصد به وجه ربك يصبح عبادة ولوكان عملا دنيويا بحتا .

وخلاصة الكلام : أن إلهك الذى آمنت به وصدقت بوجوده وحكمته ، وعلمه وقدرته وفضله ورحمته ، وصدقت بالكتاب الذى جاءك من عنده ، والوصايا الصادرة منه إليك على ألسنة رسله وخاتمهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وخضعت لقانون ربك ومنهجه فى الحياة . مصدقا أن هذا الرسول عليه الصلاة والسلام جاء بالحق من الله الحق . يأمرك أن تنفذ وأنت بمقتضى إيمانك نزلت على حكمه ، ورضيت أمره وأحببت ماشرع ولو كان فيه مخالفة لما تهواه ، وما تريده .

بل لايتم لك الإيمان ، ولاتتم لك العبادة حتى يكون هواك تبعا لما جاء

به رسولك ﷺ ، يقول عليه الصلاة والسلام : « ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ ، نبيا ورسولا » [1] ومن رضى بالله رضى بحكمه ونفذ أمره وهجر نهيه وهو فى غاية الرضى والانقياد وفى غاية الخضوع المقرون بغاية المحبة والخشية ، والا فليدّع غير الإيمان وغير العبادة ﴿ **فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما** ﴾ [2] ﴿ **وما كان لمؤمن ولامؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا** ﴾ [3]

وبعد ذلك تكون هذه العبادات المفروضة بمثابة نماذج للتربية للعبادة الكبرى المنشودة ، ومن أجل ذلك كانت هذه العبادات التى افترضها الله علينا كأسس للعبادات الأخرى الشاملة للإ نسان والحياة والدين كله .

يقول الإمام ابن تيمية فى شأن العبادة ، عندما سئل عن قول الله عز وجل : ﴿ **يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ [4] ما العبادة ؟ وما فروضها ؟ وهل مجموع الدين داخل فيها أم لا : وما حقيقة العبودية : وهل هى أعلى مراتب المقامات فى الدنيا والآخرة أم فوقها شىء من المقامات ؟

وليبسط لنا القول فى ذلك . فقد أجاب رحمه الله بإجابة مسهبة تضمنتها رسالته العبودية . قال رحمه الله :

العبادة اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الامانة ، وبر

---

(١) رواه مسلم وأحمد .
(٢) سورة النساء : ٦٥
(٣) سورة الأحزاب : ٣٦
(٤) سورة البقرة : ٢١

الوالدين ، وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين ، والبهائم والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة ، وكذلك حب الله ورسوله ، وخشيته والإنابة إليه وإخلاص الدين له ، والصبر لحكمه ، والشكر لنعمه ، والرضا بقضائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف من عذابه وأمثال ذلك هى من العبادة .

وذلك : أن العبادة لله هى الغاية المحبوبة والمرضية له التى خلق الخلق لها كما قال الله تعالى : **﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾** (١) وبها أرسل الله جميع الرسل كما قال نوح لقومه **﴿ اعبدوا الله مالكم من إله غيره ﴾** (٢) وكذلك قال هود وصالح وشعيب وغيرهم لقومهم قال تعالى : **﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة ﴾** (٣) وقال تعالى : **﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾** (٤) وقال تعالى : **﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾** (٥) كما قال فى الآية الأخرى : **﴿ يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم . وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾** (٦)

وجعل ذلك لازما لرسوله ﷺ إلى الموت كما قال : **﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾** (٧) **وبذلك وصف ملائكته** وأنبياءه فقال تعالى : **﴿ وله من**

---

(١) سورة الذاريات : ٦٥
(٢) سورة الأعراف : ٧٣
(٣) سورة النحل : ٣٦.
(٤) سورة الأنبياء : ٢٥.
(٥) سورة الأنبياء : ٩٢.
(٦) سورة المؤمنون : ٥١،٥٢ .
(٧) سورة الحجر: ٩٩.

فى السموات والأرض ومن عنده لايستكبرون عن عبادته ولايستحسرون يسبحون الليل والنهار لايفترون ﴾ [1] وقال تعالى : ﴿ إن الذين عند ربك لايستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون ﴾ [2]

وذم المستكبرين عنها بقوله : ﴿ وقال ربكم ادعونى أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾ [3] ونعت صفوة خلقه بالعبودية له فقال تعالى : ﴿ عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا ﴾ [4] وقال : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ [5] .

وبهذا الشرح المستفيض ، وبذلك الكلام النفيس الممتع ، والإجابة الشافية نرى الإمام ابن تيمية يتوسع فى الشرح والبيان حتى يجعل العبادة بمعناها الواسع الشامل تتسع لتشمل الفرائض والنوافل ، والأخلاق والفضائل الإنسانية ، مما يكون بين الله والعبد ، وبين العبد والناس ، وبين العبد ونفسه والعبادة شاملة للصلاة والزكاة وبقية الأركان ، مما بين العبد ونفسه وما يتعدى للناس ، وشاملة لما بين العبد والناس من الإحسان والبر بالوالدين والأقربين . . وإسداء المعروف بأوسع مايتصور من صلة الأرحام والعطف على الأيتام وإعطاء اليتيم والمسكين وابن السبيل .

كما شملت الأخلاق والفضائل التى تخص العبد وتعود على الآخرين أيضا من صدق الحديث وأداء الأمانة ، والوفاء بالعهد ، والذكر والدعاء والقراءة وغير ذلك ، كما شملت حب الله ورسوله ، وخشيته والإنابة إليه ، وإخلاص الدين له ، والصبر لحكمه والشكر لنعمه ، والرضا بقضائه ،

---

(١) سورة الأنبياء : ١٩، ٢٠.
(٢) سورة الأعراف : ٢٠٦.
(٣) سورة غافر : ٦٠.
(٤) سورة الإنسان : ٦.
(٥) سورة الفرقان: ٦.

والتـوكـل عليه ، والرجاء لرحمته ، والخوف من عذابه ، كما شملت الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين .

ثم بين ابن تيمية أن العبادة هى الغاية المحبوبة والمرضية له والتى خلق الخلق لها ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلاليعبدون** ﴾ فالغاية التى أرادها الله من خلق الجن والإنس ، والوظيفة التى طلبها منهم أجمعين والتى من قام بها وأحسن أداءها فقد حقق الغاية من وجوده ، ومن أهملها أوحاد عنها فقد خرج عن الغـاية وحاد عن الصراط المرسوم . والمنهج المحدد الذى يرسم الصلة بين الخالق والمخلوق بين العابد والمعبود ، أن يكون رب واحد معبود وإله واحد فى كل اتجاه وفى كل نبضة وهمسة وحركة هو المقصود وأن تتلقى أوامره بالتسليم والرضى ، بالاستجابة والحب ، بالطاعة المطلقة لمن خلقه وسواه ثم الاستسلام التام لهذا المصحوب بالاقتناع واليقين ثم الالتزام بما عرف وماوجد وما وصل إليه .

وإذا كانت حياة العبد على هذا الأساس فقد حقق الغاية من وجوده ، وملأ الفراغ الذى شغله فأفاد واستفاد .

وهنـا تظهر لنا سعة العبادة وشمولها وأن دائرتها أرحب وأوسع وأعم وأشمل مما استقر فى أذهان بعض الناس أنها خاصة بالشعائر وحدها .

ولنأخذ لذلك مثلا ، هذا نداء من الله ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون** ﴾ [١] .

ووقفة مع هاتين الآيتين الكريمتين نتبين منها كيف كانت الاستجابة لأمر الله ونداء الله وتوجيه الله عبادة فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض فإن الانتشار عبادة والابتغاء من فضل الله عبادة .

---

(١) سورة الجمعة : ٩ ـ ١٠

روى ابن كثير فى تفسيره أن عراك بن مالك رضى الله عنه كان إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال : اللهم إنى أجبت دعوتك ، وصليت فريضتك ، وانتشرت كما أمرتنى فارزقنى وأنت خير الرازقين [1] .

وروى عن بعض السلف أنه قال : من باع واشترى فى يوم الجمعة بعـد الصـلاة بارك الله له سبعـين مرة لقوله تعالى : فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله [2]

وعليه فكل الأعمال التى تؤدى فى الحياة من عبادات معروفة وشعائر معينـة ومن كل عادات تعـودنا من أكل وشرب ونوم ونكاح وماشابه ذلك **تصبح عبادة بشرطين**

١ ـ أن تكون على وفق شرع الله الذى عبدناه وعرفناه .

٢ ـ أن يكون المقصود والمتوجه إليه بها هو الله الخالق المعبود .

فإذا تم ذلـك كانت عمارة الأرض كالجهـاد ، والجهـاد كالصـلاة ، والصلاة كالصبر ، **وبذلك تكون قيمة الأعمال** مستمدة من بواعثها لا من نتـائجها فالنتيجة موكولة إلى من نعبده وتحقيق العبودية إنما يفهم فى قوله تعالى : **﴿ قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين وأمرت لأن أكون أول المسلمين ، قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم قل الله أعبد مخلصا له دينى فاعبدوا ماشئتم من دونه ﴾** [3] .

---

(١) تفسيرات ابن كثير ٤ / ٣٦٧ والحديث رواه ابن أبى حاتم
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٦٧
(٣) الزمر : ١١ ـ ١٥

لمحات عن العبادة من القران الكريم

للقـرآن الكـريم لمحاته ونفحاته ، وعلومه وأسراره ، التى تنطق لمن استنـطقهـا وتدبرها : إنه كتاب حكيم ، من لدن حكيم خبير ، لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

والمتدبر فى القرآن الحكيم يرى أن مادة العبادة ، ومشتقاتها قد وردت فى مناسبات مختلفة ، ولمعان متنوعة ، وحملت فى طياتها طائفة من العلوم والمعارف تتجلى لمن تدبر وتذكر ، ونظر واعتبر ، وكلها تؤكد طلب العبادة ، وتحذر من التفريط فيها .

فمن أبرز المقاصد التى جاءت هذه الكلمة لتوكيدها خمسة :

الأول : أنها قد تكون أمرا صريحا من الله ـ سبحانه وتعالى ـ إلى الناس بعبادته شكرا على نعمه ، قال سبحانه : ﴿ **يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والـذين من قبلكم لعلكم تتقـون ، الـذى جعـل لكم الأرض فراشـا ، والسـماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم** ﴾ (١) ﴿ **وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالولدين إحسانا** ﴾ (٢)

وقـد بلغ الـرسل ذلك إلى أممهم ، وحذروهم من الإعراض عنه أو التهـاون فيه ﴿ **ولقـد بعثنـا فى كل أمـة رسـولا أن اعبـدوا الله واجتنبوا الطاغوت ، فمنهم من هدى الله ، ومنهم من حقت عليه الضلالة** ﴾ (٣)

الثانى : وقد تأتى فى معرض النعى على من عبد غير الله ، واتخذ إلهه

---

(١) سورة البقرة : ٢١ ، ٢٢

(٢) سورة الإسراء : ١٧ .

(٣) سورة النحل : ٣٦.

هواه ، قال تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله مالاينفعهم ولايضرهم ، وكان الكافر على ربه ظهيرا ﴾ (١) ﴿ ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولاينفعهم ، ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ (٢) ، ﴿ ويعبدون من دون الله مالم ينزل به سلطانا وماليس لهم به علم وما للظالمين من نصير ﴾ (٣) ، ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ (٤) .

الثالث : وقد تأتى فى معرض تحذير العباد من الاستكبار عن طاعة الله ، وعبادته وتوعدهم بشديد العقاب ، وأليم العذاب . ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ، ولا الملائكة المقربون ، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا ، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ، وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ولايجدون لهم من دون الله وليا ولانصيرا ﴾ (٥) ﴿ وقال ربكم ادعونى أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾ (٦) .

الرابع : وقد تأتى فى معرض المنابذة لمن عبد غير الله ، والمتبرئ من سوء مسلكه ﴿ قل يأيها الكافرون لا أعبد ماتعبدون ، ولاأنتم عابدون ماأعبد ولاأنا عابد ماعبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولى دين ﴾ (٧)

---

(١) سورة الفرقان : ٥٥.
(٢) سورة يونس : ١٨ .
(٣) سورة الحج : ٧١ .
(٤) سورة التوبة : ٣١.
(٥) سورة النساء : ١٧٢، ١٧٣ .
(٦) سورة غافر: ٦٠ .
(٧) سورة الكافرون بتمامها.

وقد يساق هذا المعنى بصورة أخرى ، يقول سبحانه وتعالى :

﴿ قد كان لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ (١)

وقد يكون التبرؤ من المعبودين للعابدين يوم القيامة : ﴿ ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا : سبحانك أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ (٢) ﴿ قال الذين حق عليهم القول : ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك ماكانوا إيانا يعبدون ﴾ (٣)

الخامس : وقد تأتى فى معرض التقريع والذم لمن يعبدون الله لحاجة فى أنفسهم ، غير متمكنين فى الدين ، فإن ظفروا بحاجتهم ثبتوا واطمأنوا ، وإن فاتتهم جزعوا وتزلزلوا وارتدوا على أعقابهم ، فباءوا بالخسران ، وحق عليهم الحرمان . ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين ﴾ (٤) .

وإذا أضيفت كلمة « عباد » إلى اسم من أسمائه تعالى أو ضمير يعود عليه سبحانه فذلك إيذان بتشرفهم بالإيمان به ، والانتساب إليه .

فإن تحدث القرآن عنهم فبأحسن الحديث ، وأزكى الثناء ، وأطيب البشريات وإن خاطبهم فبالنصيحة لهم والشفقة عليهم بما يشعر بتلطفه بهم ، وتبشيرهم بالخيرات العاجلة والآجلة .

---

(١) سورة الممتحنة : ٤ .
(٢) سورة سبأ : ٤٠، ٤١ .
(٣) سورة القصص : ٦٣ .
(٤) سورة الحج : ٧١ .

قال سبحانه وتعالى : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما ﴾ وهكـذا يمضى القرآن فى الثناء عليهم وسرد شمائلهم . . ثم يختم ببيان عاقبتهم الحميدة ، وآخرتهم المجيدة السعيدة ﴿ أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما ، خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما ﴾ .[1]

﴿ والله رؤف بالعبـاد ﴾[2] ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعـوة الداع إذا دعان ﴾[3] ﴿ عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا ﴾[4] . ﴿ ياعباد لاخوف عليكم اليوم ولاأنتم تحزنون ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون ﴾[5] ﴿ ياعبـادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون ﴾[6] ﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولوا الألباب ﴾ .[7]

ولخواص عباد الله ألوان من العطاء بحسب قربهم من ربهم ، وكرمهم عنده : ﴿ قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلاعبادك منهم المخلصين ﴾[8] ، ﴿ قال هذا صراط على مستقيم . إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾[9] ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين

---

(١) سورة الفرقان = ٦٣- ٧٥.
(٢) سورة البقرة : وآل عمران (٢٠٧) (٣٠).
(٣) سورة البقرة : ١٨٦ .
(٤) سورة الانسان : ٦ .
(٥) سورة الزخرف : ٦٨، ٦٩.
(٦) سورة العنكبوت : ٥٦ .
(٧) سورة الزمر : ١٧، ١٨ .
(٨) سورة ص : ٨٢، ٨٣.
(٩) سورة الحجر : ٤٢، ٤٣ .

إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ [1] .

و**إذا استعملت كلمة « عبد »** مضافة إلى لفظ الجلالة ، أو نحوه من اسم لله تعالى ، أو ضمير كان هذا إيذانا بأن ذلك العبد إنما هو محمد ﷺ ، وكان ذلك دليلا على أنه انفرد بمقام فى العبودية ، ومنزلة فى القرب من ربه ، لايشاركه فيها غيره ، وكلما تكرر ذلك كان تأكيدا ، وتأييدا ، وتعديدا للأدلة ، إلى جانب ماقد يكون لإيثار استعمال كلمة عبد بدلا من غيرها من اسم كمحمد ، وأحمد ، أو صفة أخرى كرسول ، ونبى من لطائف وأسرار خاصة بالمقام الذى سيقت فيه . قال تعالى : **﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾** [2] . . **﴿ واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان . . ﴾** [3] **﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾** [4]

ففى إيثار استعمال كلمة « عبد » فى هذا المقام إيذان بالسبب الذى من أجله أكرم النبى عليه الصلاة والسلام هذا الإكرام وهو تفرده بمقام خاص من عبودية لربه لايشاركه فيه غيره .

وفيه كذلك حسم للقضية المشهورة التى تتكرر فى مناسبة ذكرى الإسراء والمعراج وهى : أكان الإسراء بالروح والجسد ؟ أم كان بالروح فقط ؟ أم كان رؤيا منامية ؟ فإن هذه الآية تدل على أنه كان بالروح

---

(١) سورة الصافات : ١٧١ ـ ١٧٣ .
(٢) سورة البقرة : ٢٣ .
(٣) سورة الأنفال : ٤١ .
(٤) سورة الإسراء : الآية الأولى .

والجسد ، لأن كلمة « عبد » إنما تستعمل فى الإنسان بجميع جوانبه المادية والمعنوية بل هى فى الجسد أظهر ، قال تعالى : ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكـونون عليه لبدا ﴾ (١) والقيام : إنما هو لجسد يقوم ، ويقعد ، ويذهب ويجيء . وقـال سبحـانـه : ﴿ الحمـد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ﴾ (٢) . وقال : ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعلمين نذيرا ﴾ (٣) وقال : ﴿ هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرءوف رحيم ﴾ . (٤) ﴿ أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه ﴾ (٥) ﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ . (٦)

أما غير النبى ﷺ فإن القرآن يصرح باسمه ، قال تعالى : ﴿ اصبر على مايقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب ﴾ (٧)، وقال : ﴿ واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب ﴾ (٨)

وربـما ترك التصريح باسم نبى من الأنبياء ، لقيام قرينة قوية على تعينه ، قال تعالى : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر ﴾ (٩) فهذا العبد هو نوح عليه الصلاة والسلام إلا أن سبق ذكره فى السياق اقتضى عدم تكرير ذكره ، فضلا عما فى ذكره من تكرير تنبو عنه بلاغة القرآن .

---

(١) سورة الجن : ١٩
(٢) سورة الكهف : الآية الأولى
(٣) سورة الفرقان : الآية الأولى
(٤) سورة الحديد : ٩
(٥) سورة الزُّمَر. ٦٣
(٦) سورة النجم : ١٠
(٧) سورة ص : ٤١
(٨) سورة ص : ١٧
(٩) سورة القمر : ٩

وهكذا : ما من أحد يتدبر القرآن الكريم إلا وسيفتح الله له أبوابا من العلوم ، والمعارف ، والأسرار ، واللطائف : ﴿ **كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدَّبروا آياته وليتَذكَّر أولو الألباب** ﴾ . [1]

(١) سورة ص: ٢٩

الفصـل الأول
العبادة حق الله على عباده

عرفنا فيما سبق أن الله تعالى هو الخالق الرازق ، المسخر للمخلوقات لتكون فى خدمة الإنسان ، وأن على الإنسان أن يتعرف إلى خالقه ، ومالك أمره ، ومدبر شأنه ، ومصلح أحواله ، وأنه لا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه ، فما حقه سبحانه على عباده ؟

حقه سبحانه عليهم أن يعبدوه ، ولا يشركوا به شيئا ، وقد أمرهم بذلك فى قوله تعالى : ﴿ **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا** ﴾ [١]. وبقوله : ﴿ **يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون** ﴾ [٢]. فهو سبحانه صاحب الفضل فى الإيجاد والإمداد ، فى الخلق والرزق ، فى الملك والتسخير : الأمر أمره ، والحكم حكمه ، والسلطان سلطانه ، ﴿ **ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين** ﴾ . [٣] ﴿ **وما بكم من نعمة فمن الله** ﴾ [٤] ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها** ﴾ [٥] .

وفى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى ومسلم عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : كنت رديف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على حمار ، فقال لى : « يا معاذ : أتدرى ما حق الله على العباد ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : حق الله على العباد : أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، ثم قال : أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ أن لايعذبهم » .

وإذا فكر العبد فى آلاء الله المتتالية ، ونعمه الكثيرة ، ونظر فى فضله

---

(١) سورة النساء : ٣٦ .
(٢) سورة البقرة : ٢١، ٢٢ .
(٣) سورة الأعراف : ٥٤ .
(٤) سورة النحل : ٥٣ .
(٥) سورة إبراهيم : ٣٤ .

السابغ ، وجوده وكرمه قديما وحديثا أذهلته النعم ، وجعلتة ينطق : لك الحمد ياذا المن والجود ، والعطاء الذى ليس له حدود ، خلقتنى من العدم ، وأمددتنى بأسباب الحياة ، وصورتنى فى أحسن صورة ، ورزقتنى من الطيبات ، وأرسلت لى الرسل ، وأنزلت من أجلى الكتب ، وسخرت لى ما فى الوجود ، وفضلتنى على كثير ممن خلقت تفضيلا . . وجعلت لى الأرض قرارا والسماء بناء ، فأنت المستحق للعبادة وحدك لا شريك لك .

وقد امتن الله تعالى على الإنسان فى كثير من آى القرآن مبينا له ماوهبه ، وما أعطاه ، لعله أن يفكر وينظر ، فتنفعه الذكرى ، وتعرفه حق خالقه ، ورازقه ، والذى أسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة ، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ [١] . ﴿ الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين ﴾ . [٢] ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون الله فقل أفلا تتقون . فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ﴾ . [٣]

وإذا كان هذا بعض ما أسداه إلى الإنسان خالق الإنسان فحقه سبحانه عليه ، أن يعبده ، مخلصا له الدين ، وأن يتضرع إليه ، ويتوكل عليه ، ويستلهمه أن يعينه على تحقيق العبودية فيقول : ﴿ إياك نعبد ، وإياك تستعين ﴾ [٤] لأن العبادة هى الغاية من خلقه ، فهو دائما يطلب من ربه أن يوفقه لأداء هذا الحق ، والقيام بهذه المهمة ، وإنما يتأتى هذا ممن

---

(١) سورة الاسراء : ٧٠ .

(٢) سورة غافر : ٦٤ .

(٣) سورة يونس : ٣١،٣٢ .

(٤) سورة الفاتحة : ٥ .

نور الله بصائرهم ، وشرح صدورهم ، فعرفوا حق المنعم فهتفوا بذكره ، وهامت قلوبهم بحبه ، وخضعت جوارحهم استجابة لأمره ، وهم مع كل ذلك يرجون رحمته ، ويخافون عذابه يدعونه رغبا ورهبا فلم يشركوا به غيره ، ولم يتخذوا من دونه وليا ولا نصيرا ، لأنهم يستحضرون كلامه : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا** ﴾ [(١)] وقوله : ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة** ﴾ . [(٢)]

أما الذين أصابتهم الغفلة وسيطر عليهم الجحود ، فكفروا بالله وجحدوا نعمه ، وأنكروا فضله ، واتخذوا من دونه أندادا ، فهؤلاء هم شرار الخلق : ﴿ **إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون** ﴾ [(٣)] ، ﴿ **أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا** ﴾ [(٤)] ، ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون** ﴾ [(٥)] ، ﴿ **ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله** ﴾ [(٦)] ﴿ **ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لايستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين** ﴾ [(٧)] .

وإذا كان حق الخالق على المخلوقين أن يعبدوه لأنه مالك الدار وساكنيها وهو المسبغ على كل مخلوق مابه قوام حياته ، وأسباب وجوده ، فإن

---

(١) سورة الكهف : ١١٠ .
(٢) سورة البينة : ٥ .
(٣) سورة الانفال : ٢٢
(٤) سورة الفرقان : ٤٤ .
(٥) سورة الأعراف : ١٧٩ .
(٦) سورة القصص : ٥٠ .
(٧) سورة الأحقاف : ٥، ٦ .

من تمام هذا الحق أن يكون التوجه له وحده لا شريك له : ﴿ فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ﴾ (١)

ولهذا فإن الله تبارك وتعالى قرن بين الأمر بعبادته ، وبين النهى عن اتخاذ الأنداد ، فقال : ﴿ فلا تتخذوا من دون الله أندادا وأنتم تعلمون ﴾ (٢) .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قلت يارسول الله أى الذنب أعظم عند الله قال : « أن تجعل لله ندا وهو خلقك » (٣) .

وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : قال رجل للنبى ﷺ : ماشاء الله وشئت : فقال : « أجعلتنى لله ندا ؟ قل : ماشاء الله وحده » رواه ابن مردويه وأخرجه النسائى وابن ماجه : وقال تعالى : ﴿ يأيها الناس اعبدوا ربكم . . . ﴾ (٤) الآية .

وعن الحارث الأشعرى أن نبى الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن الله عز وجل أمر يحيى بن زكريا عليهما السلام بخمس كلمات أن يعمل بهن وأن يأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن ، وإنه كاد أن يبطىء بها ، فقال له عيسى عليه السلام : إنك قد أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن ، فإما أن تبلغهن ، وإما أن أبلغهن ، فقال يا أخى إنى أخشى إن سبقتنى أن أعذب أو يخسف بى ، قال : فجمع يحيى بن زكريا بنى إسرائيل فى بيت المقدس حتى امتلأ المسجد فقعدوا على الشرف ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن الله أمرنى بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن . أو لهن : أن تعبدوا الله ولا تشركوا به

(١) سورة غافر : ١٤ .
(٢) سورة البقرة : ٢٢ .
(٣) أخرجه الشيخان .
(٤) سورة البقرة : ٢١

شيئا ، فإن مثل ذلك كمثل رجل اشترى عبدا من خالص ماله بورق أو ذهب فجعل يعمل ويؤدى غلته إلى غير سيده ، فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك ، وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئا . . . » [1] الحديث .

ومن رحمته أن دعاهم الى طاعته ، وأوصاهم بعبادته ، وهو غنى عنهم ، يسيئون فيغفر ويستر ، ويقصرون فلا ييئسهم من رحمته : **﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا ، إنه هو الغفور الرحيم ﴾** [2] .

فوجب عليهم ذكره وشكره ، وطاعته ومحبته وعبادته ، ويتمثل الشكر فى مجمله : فى استعمال المواهب فيما خلقت من أجله وإنما يتحقق ذلك بأمور :

أولها : الإيمان الكامل بوحدانية الله ، وعلمه ، وقدرته ، وأنه الأول والآخر والظاهر ، والباطن وأنه بكل شئ عليم ، ومؤدى هذا الحق الشهادة بأنه **لا إله إلا الله** ثم على العبد أن يكمل إيمانه بمعرفة ربه بالتأمل والتدبر لما فى القرآن الكريم ، والسنة المطهرة من صفات عفوه وإحسانه ، وجوده ، وكرمه ، وهيمنته ورقابته ، وأنه سميع بصير ، عليم خبير على كل شئ قدير ، وهو سبحانه لمن آمن به ، وتوكل عليه نعم المولى ونعم النصير .

ثانيها : الإذعان الكامل لكل ماجاء عنه من الحق والهداية ، ويتم ذلك بالإيمان بأن سيدنا محمداً رسول الله ﷺ .

ثالثها : أن يطاع الخالق فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر ، ويكون ذلك بالتزام ما جاء به القرآن الكريم وما بينته سنة النبى

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٥٨ قال ابن كثير : هذا حديث حسن

(٢) سورة الزمر : ٥٣

العظيم سيدنا محمد عليه الصلاة والتسليم . قال عليه الصلاة والسلام : **« ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد نبيا ورسولا »** (١)

بتحقيق ماتقدم ؛ يكون العبد قد عرف حق الله فى العبادة ، فاستجاب لأمره ، ونفذ وصاياه ، ورضى به ربا وخالقا ، ورازقا ومالكا ، ورضى بالإسلام الذى بعث الله به رسله وصفوة خلقه دينا ، ورضى بسيدنا محمد ﷺ نبيا ورسولا ، فذاق حلاوة الإيمان ، وحقق طاعة الله وعبادته ، كما يحب الله ويرضى ، وكلما ازداد فى العبادة والطاعة ، كلما أوجب ذلك عليه شكرا لمن أعانه ووفقه . يقول **عمر بن عبد العزيز** رضى الله عنه : ذكر النعمة شكر ، مادلت النعم على محبة المنعم . .

ولو تأمل المنصف هذه الآيات فى سورة النمل لامتلأ يقينا بفضل الله الذى لايعد ، ونعمائه التى لا تحد ، وعطاياه التى لاتنفذ وخيره المتدفق الذى لايغيض .

﴿ قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون ؟ أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ماكان لكم أن تنبتوا شجرها أءله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون ﴾ أى يعدلون بالله غيره من آلهتهم المزعومة وأربابهم المدعاة **﴿ أمن جعل الأرض قرارا ﴾** ثابتة مستقرة ليمكن العيش على ظهرها **﴿ وجعل خلالها أنهارا ، وجعل لها رواسى ﴾** الجبال - **﴿ وجعل بين البحرين حاجزا﴾** - جعل الملح والعذب عند التقائهما بحيث لايختلط أحدهما بصاحبه اختلاطا يؤدى إلى تضييع عذوبة العذب **﴿ أءله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾** .

---

(١) أخرجه مسلم

والجهل مصيبة المصائب يعكس الأوضاع ، ويقلب الأمور ، ويعطى الحق لغير مستحقه ، والعبادة ، لغير خالقها ، ﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أءلهٰ مع الله ؟ قليلا ما تذكرون ﴾ . (١)

والغفلة سدت منافذ الفكر ، وأفقدت القلوب والأبصار والأسماع خصائصها : ﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾ (٢) ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها . . ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ . (٣)

ثم يقول سبحانه : ﴿ أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ﴾ مبشرة بنزول المطر ﴿ أءلهٰ مع الله تعالى الله عما يشركون أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أءله مع الله ﴾ فعل هذا ، وعلى الرغم من ذلك ﴿ قل هاتوا برهانكم ﴾ على صحة ما تدعونه من عبادة آلهة أخرى ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ . (٤) والواقع أنه لا حجة ولا برهان ، ولذلك قال العليم الخبير : ﴿ ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لايفلح الكافرون ﴾ (٥) والآيات بروعتها وجلالتها ، وبما تنير فى قلب الإنسان مما يراه ويشاهده فى الكون والنفس ، وما يحيط به من نعم هو عنها غافل وذاهل لعله يذكر ؛ فتنفعه الذكرى ، فتزول الغشاوة عن الفطرة ،وترفع الأكنة عن القلوب ،

---

(١) سورة النمل : ٥٩ ـ ٦٢
(٢) سورة الفرقان · ٤٤
(٣) سورة الأعراف : ١٧٩ .
(٤) سورة النمل : ٦٣ ـ ٦٤
(٥) سورة المؤمنون : ١١٧ .

فتعـرف صاحب النعم ، ومصـدر الكـرم ، فتراه هو الحقيق بأن يعبد ، والجدير بأن يقصد ، لا إله إلا هو سبحانه وتعالى عما يشركون إن من قرأ هذه الآيات وأمثالها ـ وكان فيه شيء من الإنصاف ـ فإنه يعود لتوه سريعا ، معترفا بالآلاء ، شاهدا بآثار القدرة ، والرحمة مقرا بالتوحيد ، ساعيا إلى بذل العبـادة لمستحقيهـا بعـد أن قامت الأدلة عنده فى النفس والآفاق بعظمة المعبود ، ووضحت أمامه الأسس التى قام عليها هذا الحق ؛ فأدرك أنه لاخلاص إلا بالفرار إلى الله والالتجاء إليه وأنه منه المبدأ وإليه المصير.

﴿ الله الـذى خلقكـم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ (١)
ويقول ابن كثير عند تفسيرها : **﴿ الله الذى خلقكم ثم رزقكم ﴾** أى : هو الخـالق الـرازق يخرج الإنسان من بطن أمه عريانا ، لاعلم ، له ولا سمع ، ولا بصر ، ولا قوى ، ثم يرزقه جميع ذلك ، بعد ذلك من الرياش واللبـاس والأملاك والمكاسب كما قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش عَنْ سلاَّم بن شرحبيل عن حبة وسرار ابنى خالدة قالا : دخلنا على النبى ﷺ وهو يصلح شيئا فأعناه ، فقال :«لا تيئسا من الرزق ما تهزهزت رءوسكما ؛ فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشرة ، ثم يرزقه الله عز وجل». وقوله تعالى : **﴿ ثم يميتكم ﴾** أى بعد هذه الحياة **﴿ ثم يحييكم ﴾** أى يوم القيامة . وقولة تعالى : **﴿ هل من شركائكم ﴾** أى الذين تعبدونهم من دون الله **﴿ من يفعل من ذلكم من شيء ﴾** أى : لايقدر أحد منهم على فعل شيء من ذلك ، بل الله سبحانه وتعالى هو المستقلُّ بالخلق والرزق والإحياء والإماتة ، ثم يبعث الخلائق يوم القيامة : ولهذا ، قال بعد هذا كله : **﴿سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾** أى تعالى وتقدس وتنزه وتعاظم وجل وعز عن أن يكون له شريك أو نظير أو ولد أو والد بل هو الأحد الفرد

(١) سورة الروم : ٤٠

الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد [1] .

فهو السيد المعبود ، والإلـه المقصود ، لايستحق العبادة سواه ، ولا يستعان بغيره ولا حول ولا قوة إلا به .

وهنا يخطر سؤال . متى يعرف الإنسان حق ربه عليه فى أن يعبده ، وحده ؟

والجواب : من السهولة أن يعرف العبد ذلك إذا استعمل عقله الذى وهبـه له صاحب الحق عليه ، وهـو الله تعـالى ، وبهذا العقل كلف الله العباد ، وخاطبهم ؛ فالمجنون غير مكلف ولا مخاطب ، وهناك من ألغوا عقـولهم ، وطـرحـوا نعمة الله وراء ظهورهم فجعلوا الموهوب كالمعدوم ، والممنـوع كالمسلوب : لهم عقـول ولكنهم لا يستفيدون بها ومنها ، ويوم القيامة يقولون كما حكى الله عنهم : ﴿ **وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ماكنا فى أصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم فسحقا لاصحاب السعير** ﴾ [2] ولو انتفعوا بعقولهم لعرفوا وأدركوا حق الله عليهم ، فاستجابوا له ؛ فسعدوا ؛ وكانوا من الذين استجابوا لربهم وهؤلاء لهم الحسنى ولهم الحياة الطيبة ، ولكنهم لما أهملوها ؛ استحقوا أن يكونوا من أصحاب السعير : ﴿ **والذين لم يستجيوا له لو أن لهم مافى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد** ﴾ . [3]

ومن ذلك نفهم أن الناس فريقان :

الفريق الأول :

قدَّر النعمة ، وأدرك فضل مسديها ، واستدل بالنعمة على المنعم ، **وإن أدنى نظرة** فى هذه الآيات وأمثالها ـ وهى كثيرة فى القرآن الكريم ـ

---

(١) تفسير ابن كثير : ٣/٤٣٤ , ٤٣٥ .

(٢) سورة الملك : ١٠ ـ ١١

(٣) سورة الرعد : ١٨

وبالصنعة على الصانع ، والأثر على المؤثر ، فساقته المقدمات المقبولة إلى النتائج السليمة ففكر وقدر ونظر فأبصر ؛ فاستفاد من الآيات . وهذا النوع ، وذلك الفريق : هو الذى عقل عن الله ، فما من آية تمر عليه ، أو يمر عليها ، إلا وينظر فيها ويتأمل ؛ فيعود مملؤا مشدوها معربا مقراً معترفا بصاحب الفضل والجود ، والقدرة الباهرة والعظمة التى ليس لها حدود .

وقد ذكر الله تعالى بعض الآيات التى خلقها وبعض النعم التى أسداها لعباده ، فى السماوات والأرض كما تحدث عن البداية والنهاية : عن الحياة والموت عن اختلاف الليل ، والنهار .

وختم هذه الآيات بالحديث عن العقل ، فمثلا يقول سبحانه : ﴿ إن فى خلق السماوات والأرض وأختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ . [1]

والمراد بالآيات الدلالات البينات على قدرة القادر ، وعظمته ، ووحدانيته . ويقول سبحانه : ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض اذا أنتم تخرجون ﴾ [2]

ويقول جل شأنه : ﴿ وهو الذى يحيى ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون ﴾ [3] فأين عقولكم ؟ أفقد تموها أو الغيتموها فلم توصلكم ولم تدلكم على العليم القدير ثم يقول سبحانه : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ ، أى : وما يفهمها ، ويتدبرها إلا الراسخون فى العلم ، المتضلعون فيه . [4]

---

(١) سورة البقرة : ١٦٤

(٢) سورة الروم : ٢٥

(٣) سورة المؤمنون : ٨٠

(٤) تفسير ابن كثير جـ٣ صفحة ٤١٤

وإن أدنى نظرة فى هذه الآيات وأمثالها ـ وهى كثيرة فى القرآن الكريم ـ لتهدى وتوصل إلى معرفة الله تعالى ، ومن عرف الله ، وعقل عنه عظمت معرفته ، وازداد علمه ؛ فقدر الله قدره ، وأجله ، وعظمه وأثنى عليه ومجده ، فسبح بحمده ، ولهج بذكره .

ومن كان لله معظما ، كان لله مُجِلاًّ هَائِباً ، واذا كان لله مجلاً هائباً كان منه مستحييا ، وإلى طاعته مسارعا ، ولمساخطه مجانبا ، وكان معظما لما ينال به النجاة من العقاب والظفر بالثواب عُنى بطلب العلم ، ورغب فى الفهم والعقل عن الله عز وجل بكبر همته ، وإذا عنى بطلب العلم بذلك ؛ استدل به على عظيم قدر المولى وقدر ثوابه وعقابه . وإذا استدل على ذلك أبصروفهم حقائق معانى البيان وإذا فهم وعقل عظيم قدر المولى وهيبة ، عرضه على الله سبحانه ، وثوابه ، وعقابه ، وإذا عظم قدر ذلك ؛ هاب الله تعالى ، وفرق ـ خاف ـ ورجا ، واشتاق فكأنما يعاين ذلك (أى يعاين الثواب والعقاب وأسباب الهيبة والتعظيم) كرأى العين ؛ فكان عن الله تعالى عاقلا ، ويسمى ذلك منه عقلا إذْ كان بالعقل طلب ذلك ، وبالعقل فهم ذلك ، وبالعقل جابن مايزيله عن ذلك ، فهذا الذى عن ربه . ألم تسمعه عز وجل يقول : ﴿ **وتعيها أذن واعية** ﴾ قال : أذن عقلت على الله تعالى ، يعنى عقل عن الله ماسمعت أذناه ما قال وأخبر فهذا هو العقل . (١)

فصاحب العقل هو الذى عقل بحق عن الله واستفاد وأفاد ورجع بعد التأمل وتقليب الأمور على وجهها بالنتائج السليمة المقبولة فى الكتابين : المسطور ، والمنظور وفى الأنفس والآفاق بان له ربا خالقا رازقا محييا مميتا منعما لطيفا ، سميعا بصيرا ، قويا عزيزا ، غالبا قادرا ، عليما ، خبيرا ، حيا ، قيوما ، لا تأخذه سنة ، ولا نوم ، يجير ولا يجار عليه ، يُطعِم ولا يطعم ،

(١) المسائل فى اعمال القلوب والجوارح والمكاسب والعقل ، صفحة٢٤٢

يمنـح ويعـطى ، ويعـز ويذل ، بيده ملكوت كل شىء ، تنزه عن كل مايخـطر بالبـال ، وهـو شديد المحـال ، لاتدركه الأبصار وهو يدرك وهو اللطيف الخبير .

الفريق الثانـى :

ما قدر الله حق قَدْرِهِ ، بل جحد النعمة والمنعم وغفل عن آيات الله ، ونسى الله فنسيه الله ، فكان من حزب الشيطان وهو من الخاسرين فهو غير عاقل عن الله عز وجل وهـو عاقل للبيان الذى لزمته من أجله الحجة ، وقد وصف الله عز وجل من هذا فى كتابه رجالا وسمى لهم عقلا فقال تعالى : ﴿ **لهم قلوب لايعقلون بها** ﴾ .

قال عز وجل : ﴿ **وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة**﴾ ، يعنى عقولا ﴿ **فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصـارهم ولا أفئـدتهم من شىء إذ كانوا يجحدون بآيات الله** ﴾ (١) ثم سمى بعض الكفار من أهل الكتاب عاقلا للبيان الذى لزمتهم به الحجة فقال تعالى : ﴿ **يحرفونه عن بعد ما عقلوه وهم يعلمـون** ﴾ (٢) فأخـبر أنهم لايعقلون يعنى عنه ، وعن عظيم قدره المبين عنه ثم قال : ﴿ **يحرفونه من بعد ماعقلوه** ﴾ يعنى : عقل البيان . (٣)

والخـلاصـة أن من استعمل عقله ، ونظر فأبصر ، وتبصر فتذكر ؛ فنفعته الذكرى ، فعرف أنه فقير ذليل محتاج ، وأن له ربًّا غنيا قويا عزيزا قديرا فآمن به ، وصدق ماجاء به رسله ، فاستجاب لأمره ، ورضى حكمه عن علم وبصيرة ، ووعى وإدراك ؛ فعقل عن الله ، واستجاب لهديه فلا خوف عليه ولاحزن ؛ لم يخضع عقله لهواه ، ولم يطوع فهمه للتقليد للآباء

---

(١) سورة الأحقاف : ٢٦

(٢) سورة البقرة : ٧٥

(٣) المسائل فى اعمال القلوب و الجوارح : ٢٤

الذين اتخذوا من دون الله أندادا آلهة ، فأعطوا الحق لغير أهله فكان مثلهم كما قال الله فى كتابه : ﴿ **مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لوكانوا يعلمون** ﴾ . (١)

وإذا كان بيت العنكبوت لايدفع عنها ، ولايصد منها من يد تمتد إليها ، فكذلك ما يعبد من دون الله لايدفع شرا ولايسوق خيرا .

﴿ **إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لايستنقذوه ، منه ضعف الطالب والمطلوب ، ماقدروا الله حق قدره ، إن الله لقوى عزيز** ﴾ (٢)

كما يقول الله سبحانه حاكيا عن خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام : ﴿ **وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا إن الذين تعبدون من دون الله لايملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون** ﴾ (٣)

---

(١) سورة العنكبوت : ٤١

(٢) سورة الحج : ٧٣، ٧٤

(٣) سورة العنكبوت . ١٦، ١٧

الفصل الثانى
تنوع العبادات وما فيه من حكم وأسرار ولطائف

الله لطيف بعباده ، هو خالقهم ورازقهم ، ومحييهم ومميتهم ، لاينسى منهم أحدا ، لكل مخلوق رزقه وعطاؤه ، سواء فى ذلك المحسن والمسىء ، والبر والفاجر : ﴿ **كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا** ﴾ (١) ﴿ **الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم** ﴾ (٢) ﴿ **وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين** ﴾ . (٣)

وفضله سبحانه لا يعد ، ونعماؤه لا تحصى ولا تحد ، وما من نعمة ظاهرة أو باطنة ، دقيقة أو جليلة ، إلا وهى من فيض فضله ابتداء ، وإلى حكمته ورحمته يرجع أمرها دواما وانتهاء ، ﴿ **وما بكم من نعمة فمن الله . .** ﴾ (٤) ﴿ **وآتاكم من كل ماسألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار** ﴾ . (٥)

وحق صاحب الآلاء والنعم ، وَالْجُود والكرم ، والأيادى المتوالية المترادفة التى لا تنقطع ، أن يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر ، وثمرة ذلك عائدة فى العاجلة والآجلة على الذاكرين الشاكرين ، وويل الإعراض عنه محيط بالغافلين الجاحدين ﴿ **وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لازيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد** ﴾ (٦) ، ﴿ **ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن الله غنى حميد** ﴾ (٧) ومن كلمات نبى الله سليمان التى حكاها القرآن

---

(١) سورة الاسراء : ٢٠
(٢) سورة الروم : ٤٠
(٣) سورة هود : ٦
(٤) سورة النحل : ٥٣
(٥) سورة إبراهيم : ٣٤
(٦) سورة إبراهيم : ٧
(٧) سورة لقمان : ١٢

عنه حين جاءه ، الذى عنده علم من الكتاب بعرش بلقيس من بلاد اليمن إلى البيت المقدس فى طرفة عين أنه ﴿ قال : هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كَفَرَ فإن ربى غنى كريم ﴾ . (١) ﴿ والله الغنى وأنتم الفقراء ﴾ . (٢)

وفى الحديث القدسى عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه عن النبى ﷺ فيما يرويه عن الله تبارك وتعالى أنه قال : « ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ، ياعبادى كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدونى ؛ أهدكم ، ياعبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى ؛ أطعمكم ، ياعبادى كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى ؛ أكسكم ؛ ياعبادى إنكم لن تبلغوا ضرى ؛ فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى ؛ فتنفعونى ، ياعبادى لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ؛ ما زاد ذلك فى ملكى شيئا ، ياعبادى لو أن أولكم وآخركم ؛ وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا ، ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد ؛ فسألونى ، فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر ، ياعبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرا ؛ فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » . (٣)

من ذلك نعلم أن الله غنى عن العالمين ، لاتنفعه طاعة من أطاع ، ولا تضره معصية من عصى ، ولكن العبد هو الذى يجنى ثمرة الطاعة ،

---

(١) سورة النمل : ٤٠

(٢) سورة محمد : ٣٨

(٣) رواه الإمام مسلم ١٣٢/١٦ (باب تحريم الظلم)قال سعيد كان ابو إدريس إذا حدث بهذا الحديث جثا على ركبتيه . وعن الإمام أحمد ابن حنبل رضى الله عنه ورحمه قال : ليس لأهل الشام حديث أشرف من هذا الحديث .

عزا وسعادة وطمأنينة فى الدارين ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ (١) . ﴿ ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولايظلمون نقيرا ﴾ (٢) . ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ولكم فيها ماتشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم ﴾ . (٣)

والعبد هو الذى يتجرع مرارة المعصية علقما وصابا ، وقلقا واضطرابا فى الحياتين ﴿ من يعمل سؤا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا ﴾ (٤) ﴿ هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض فمن كفر فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا ولايزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا ، قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غرورا ﴾ . (٥) فليس شىء من خلق الله أظلم ولا أحط ، ولا أسوأ ولا أحقر ، ممن اتخذ من دون الله وليا أو نصيرا ، فعبد غير الله ، وكذب بآيات مولاه ، وجحد وعصى وأساء وافترى ، وبخل واستغنى ، فكان جزاؤه أن يحق عليه وعيد الله : ﴿ فسنيسره للعسرى ﴾ ، ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ . (٦) ﴿ ومن أظلم من افترى على الله كذبا أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين

(١) سورة النساء : ١٢٤
(٢) سورة النحل : ٩٧
(٣) سورة فصلت : ٣٠
(٤) سورة النساء : ١٢٣
(٥) سورة فاطر : ٣٩ - ٤٠
(٦) سورة الصف : ٧

كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين ، الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض ومـا كان لهم من دون الله من أولياء ، يضاعف لهم العذاب ، ماكانوا يستطيعون السمع ، وما كانوا يبصرون أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون لاجرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون ﴾ .[2] ﴿ ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ [1] ﴿ إن الله لايظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾ .[3]

إن من ينظر الى الحال والمآل ، ويستحضر العاقبة التى لا مفر منها ، والمصير الـذى لاريب فيه ، فإنه يرى الناس مختلفين أشد الاختلاف ، ويدرك أنهم ليسوا سواء فى حياتهم ، فالمؤمنون فى حياة طيبة مستقرة ، فى رحمة وارفة الظلال ، فى هدوء وسكينة ، وأمن وطمأنينة ، لايخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس ، بينما الآخرون فى حياة النكد ، ونكد الحياة فى قلق واضطراب ، فى تعاسة لاحدود لها ، لا راحة ولاهدوء ، ولا سكينة ، ولاطمأنينة ، بل معيشة ضنك ، وذل وضعة ، وبلاء ووحشة ، حتى لقد يخيل لمن يراهم أنهم فى بحبوحة من العيش ، وجنة من السعادة والصفـاء ، ولكن لاتحسبهم فى نعيم فجسومهم فى جنة وقلوبهم فى نار ، ولعمرو الحق إنه خيال أن تكون جسومهم فى جنة ، وقد فارق القلوب النور وحلت فيها النار ، إن النار التى فى القلوب تحرم أصحابها التمتع بشىء من اللذة ، والإحساس بأى نوع من أنواع السرور ، اللهم إلا كما تتمتع البهائم الرتع التى لا تعرف من الهموم إلا هم بطنها وغرائزها : ﴿ والذين كفروا

(١) سورة هود : ١٨ ـ ٢٢
(٢) سورة الزلزلة : ٨
(٣) سورة النساء : ـ ٤

يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ، والنار مثوى لهم ﴾ . (١)

وإذا كان لايستوى بالنظرة المجردة وبحكم العقل حياة الطرفين وجزاء الفـريقـين فإن من غير المتصور ولا المعقول ان يستوى عند الله الخبيث والطيب والصالح والغوى : ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ (٢) ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ، مالكم كيف تحكمون ﴾ . (٣) ﴿ وما يستوى الأعمى والبصير والـذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيىء ، قليلا ما تتذكرون ﴾ (٤) ﴿ أم حسب الـذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ، ساء مايحكمون ، وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لايظلمون ﴾ . (٥)

فآمن أهل السعادة بربهم ، واستجابوا له ، واتبعوا رسله ، وعزروهم ونصروهم واهتـدوا بهديهم ؛ وسـاروا فى ضوء نورهم ـ وأولئك هم الذين أفلحوا وفازوا وأولئك هم الذين هدى الله : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة ﴾ . (٦)

لذلك أدرك العقلاء الذين انتفعوا بالهبات الإلهية أنه لانجاة ولا فوز إلا بسلوك طريق الله ، ذلك الطريق المأمون الذى جاء به الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام .

وقد ختم الله الرسالات وأكمل الدين والنبوات ، وتمم مكارم الأخلاق

---

(١) سورة محمد : ١٢
(٢) سورة ص : ٣٨
(٣) سورة القلم: ٣٥ ـ ٣٦
(٤) سورة غافر : ٥٨
(٥) سورة الجاثية ٢١ ـ ٢٢
(٦) سورة النحل : ٣٦

بسيدنـا محمـد عليه الصـلاة والسلام وبشريعته السمحة السهلة شريعة الفطرة ، وبكتابه العلى الحكيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، وإنما استجاب لدعوته ، وآمن برسالته ، وضحى فى سبيل دعـوتـه أهل الخير والهداية الذين آثروا ما عند الله على أهوائهم ورغائبهم ، واختاروا الآجلة بدل العاجلة فخضعوا لله مختارين ، واستجـابـوا لهدايتـه راضين ، وعبدوه وخصوه بما ينبغى له من التقديس والتنزيه ، والإجلال والتعظيم وأدوا ماكلفهم به من غير ضيق ولا حرج ، ولا تأفف ولا ضجر ولاملل ولاسأم) .

ومن حكمته سبحانه أن نوع لهم العبادة ، وفتح لهم أبوابا كثيرة من الخير يتقربون بها إليه ، ويلتمسون بها مزيد فضله ورضاه ، لحكم جليلة ، وغـايات سامية ، لئن كان فى وسعنا التعرف إلى بعضها ، فإنه ليس فى استطاعتنا استقصاؤها واستيعابها وإنما نشير إلى أهمها بقدر المستطاع .

الحكم العامة من شرعية العبادة

وقبل أن نأخذ فى بسط هذه الحكم فقد يكون من المنطقى أن نعرف الحكم العامة من شرعية العبادة وتشريف الناس بها ، وتكليفهم النهوض بأعبائها فنقول :

إن العبادة شرعت لتصفية القلوب ، وتوجيهها لعلام الغيوب : تؤمن به وتتوكل عليه وتطلب ما عنده ، ترجو رحمته وتخاف عذابه . يقول الله سبحانه : ﴿ **إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى** ﴾ [(١)] ويقول : ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها** ﴾ [(٢)] وذلك لأن القلب هو الإنسان فى الحقيقة ، وإن شئت فقل : إنه الملك وماعداه من الجوارح والأعضاء إنما هى جنود تأتمر بأمره ، وتسير بتوجيهه ، وهو بذلك موطن نظر الرب سبحانه : يقول ﷺ :

« **إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم** » . [(٣)]

نعم إن القلوب هى موطن الحب والبغض ، والرضا والسخط ، والكبر والتواضع ، والإيمان والكفر وسائر هذه المعانى من النيات والإرادات والرغبات .

والقلوب كالأبدان : تعتريها الأعراض والأمراض ، وتلم بها القوة ويحل بها الضعف ، وينزل بها الموت ، وتدب فيها الحياة ، وكما أن أمراض الأبدان مختلفة فكذلك أمراض القلوب ، وكما أن أدوية الأبدان مختلفة

---

(١) سورة طه : ١٤

(٢) سورة التوبة : ١٠٣

(٣) رواه مسلم

فكذلك أدوية القلوب ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين** ﴾ (١) ويقول : ﴿ **لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين** ﴾ (٢) ويقول : ﴿ **أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها** ﴾ (٣) ﴿**إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد** ﴾ (٤) ﴿ **فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور** ﴾. (٥)

ولهذا ، **نوع الله العبادات** ، لأن كلا منها له حكمته وسره الخاص فى معالجة القلب وتطهيره وتنقيته قال تعالى : ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها** ﴾. (٦)

أشارت هذه الآية إلى حكمتين أصليتين وهما : أن الصدقة تنقية وتصفية ، وعطاء وتحلية . نعم إنها تنقية من أمراض الشح والبخل والكراهية ، وتصفية للقلب من أدرانها وآثارها ، وهى كذلك عطاء من الصفات الطيبة ، من السماحة والكرم والحب ، وهى كذلك تصفية من أمراض الشك وتحلية بفضيلة التصديق بوعد الله والرجاء فيما عنده سبحانه . قال عليه الصلاة والسلام : « . . والصدقة برهان ». (٧)

وهى كذلك تنقية من رذيلة الأنانية وحب الذات ، وترقية إلى مرتبة التعاون والإيثار ، وفى ذلك كله ما فيه من الخير على الإنسان فى خاصة

---

(١) سورة يونس : ٥٧
(٢) سورة يس : ٧٠
(٣) سورة الأنعام : ١٢٢
(٤) سورة ق: ٣٧
(٥) سورة الحج : ٤٦
(٦) سورة التوبة : ١٠٣
(٧) من حديث رواه مسلم

نفسه ، وعلى المجتمع كله فى أولاه وأخراه . .

ولنأخذ مثالا آخر : هذه الصلاة التى نصليها ، والتى شرفنا الله بإقامتها خمس مرات فى اليوم والليلة ، وفتح أمامنا باب التطوع فيها على مصراعيه لها أسرارها الخاصة فى تطهير الظاهر والباطن ، وغرس التواضع لله وحده ، وتزكية فضائل الحب والمساواة ، وإفراد الله سبحانه بالعبادة ، وحسن الاستجابة لله رب العالمين فى كل أمر سواء عرفنا سره أم غاب عنا ، وفيها تذكير بأمر الله ونهيه فيما نتلوه أثناءها من آيات القرآن الكريم ثم قد يكون فيها فوائد أخرى بعضها يتصل بصحة المرء وعافيته ، وبعضها يتصل بقوته وتحمله ، وبعضها يتصل بصحته النفسية وطمأنينته القلبية ، وقد يكون للتوسع فى بسط هذه الحكم موطن آخر ، ومع هذا فإننا نود أن نشير إلى ألوان أخرى من القربات موضحين بعض ما فيها من حكم فبر الوالدين قربة من أجلّ القربات ، أوجبها الله سبحانه ، وقرنها بعبادته ، ووعد على الوفاء بها أجرا جزيلا ، وثوابا عظيما لقاء ماللأبوين بعامة وللأم خاصة ، من فضل عظيم فى النفقة والتربية ، والمحبة والشفقة . قال سبحانه وتعالى : ﴿ **ووصينا الإنسان بوالديه : حملته أمه وهنا على وهن ، وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير** ﴾ (١)

وذلك لأن فى بر الوالدين لونا من الوفاء لصاحب النعمة ، ونوعا من العرفان بالجميل لمسدى الجميل ، وفى هذا الترقى من الوفاء بحق الخلق إلى الوفاء بحق الحق سبحانه ، قال عليه الصلاة والسلام : « لايشكر الله من لا يشكر الناس » وذلك لأن من كفر حق الناس وهو مدرك بالسمع والبصر والحواس الظاهرة كان لحق الله ـ وهو إنما يدرك بسلامة الفطرة ونور البصيرة أشد جحدا .

---

(١) سورة لقمان : ١٤ .

وفى القيام بحق ذوى الأرحام والأقارب والجيران إشاعة للحب والمودة ، واستلال لدواعى البغض والفرقة ، وتعاون على الخير بمباشرة أسبابه ، وفى هذا ما فيه من التعرض لألوان العطاء ، ودفع البلاء والناس بخير ما تعاونوا .

وهكذا ما من عبادة إلا ولها حكمتها الجليلة ، وما من عمل أمرنا الله به إلا وله فوائده وثمراته فى الدنيا والآخرة ، عرف ذلك من عرفه ، وغفل عنه من غفل ، وفاز بالتسليم لذلك المتقون والتسليم والطاعة آية الإيمان ، ومبدأ العطاء والعرفان ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ، وأولئك هم المفلحون . ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون ﴾ [٢] .

ومن حكم الله سبحانه فى ذلك أن تتناسب مع الطبائع المختلفة للبشر .

ومن البين أن لكل منا طبيعته الخاصة : فمنا من يميل إلى الصلاة ، ويشعر فى إقامتها بلذة دونها سائر اللذات ، يرى فيها قرة عينه ، وانشراح صدره ، وطمأنينة قلبه . ومن الناس من يعشق الصيام لما يرى له من أثر فى تصفية روحه ، وبعث الشعور عنده بالافتقار إلى ربه . ومن الناس من يحن إلى بيت الله الحرام حاجا أو معتمرا يغذى قلبه بذكريات إبراهيم وإسماعيل ومحمد عليهم جميعا الصلاة والسلام وبذكريات الصفوة المختارة من أصحاب محمد ﷺ الذين جاهدوا فى الله حق جهاده ، فأثنى الله عليهم فى كتابه ورفع أقدارهم بين أوليائه وأحبابه .

وهكذا تختلف طبائع البشر ورغباتهم وميولهم ، ومن رحمة الله بهم أن

---

(١) سورة النور ٥١ ، ٥٢

يهيىء لكل هؤلاء أبوابا من الخير يتقربون بها إليه ، ويكتسبون بها الزلفى لديه .

والمؤمن إذا فتح الله له بابا إلى الخير ، وشرح له صدره **فعليه أن يلزمه** فقد يكون فيه عطاؤه . وَمِنْ دعوات النبى - ﷺ - : « اللهم إنى أسألك حبك ، وحب من يحبك وحب عمل يقرب إلى حبك » (١) . وقد أخبر النبى ﷺ عن هذا العمل الذى حببه الله إليه ، وبين أنه هو الصلاة . قال عليه الصلاة والسلام : « **حبب إلى من دنياكم النساء والطيب ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة** » (٢) ولذلك كان المقام المحمود والشفاعة العظمى فى يوم الورود كالمترتبة على هذه العبادة العظيمة ولئن كان ربه قد من عليه بتوفيقه لهذه المرتبة الجليلة فقد أكرمه بجنى ثمراتها ، واقتطاف خيراتها قال الله سبحانه : ﴿ **ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا** ﴾ (٣) .

- **ومن حكم الله فى تنويع العبادة** أن الطبع من شأنه الملل والسآمة ، والفتور والكسل فلو جعلت العبادة لونا واحدا ، وعلى وتيرة واحدة لملها الطبع ، وكلت عن القيام بها الجوارح ، ولكن الله برحمته ولطفه ، جعلها أنواعا مختلفة من الصلاة ، والذكر وتلاوة القرآن ، والصدقة ، والصيام ، والحج ، والعمرة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقضاء الحاجات والإصلاح بين الناس ، حتى إذا مل الطبع منها نوعا أخذ فى آخر **فإذا فتر** من الصلاة **استرسل فى ذكر الله** ، **فإذا تعب** من الذكر ، **استروح** بتلاوة

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند من حديث معاذ بن جبل وهو حديث الرؤيا ، إذ رأى فيه رسول الله ﷺ ربه مناما وهو حديث جليل فيه خير كثير وعلم غزير ويتجلى فيه فضل الله على رسوله ﷺ يظهر فيه ما كان عليه ﷺ من حسن أدب ، ووافر معرفة ، وبالغ حكمة ، وممَّنْ ذكره الحافظ ابن كثير عند تفسير قوله تعالى : ﴿ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون﴾ من سورة ص (ح ج ٤ صـ ٤٣) .

(٢) رواه جماعة منهم النسائى فى السنن والطبرانى فى الأوسط والصغير ، والحاكم فى المستدرك وقال : صحيح على شرط مسلم ، ومَّنْ أخرجه أبو يعلى فى مسنده وأبو عوانة فى مستخرجه والبيهقى فى السنن وغيرهم ، وكشف الخفا .

(٣) سورة الاسراء : ٧٩ .

القرآن الكريم ، فإذا قضى من ذلك نهمته ، انبرى يصلى ويسلم على النبى الكريم عليه الصلاة والتسليم . فإذا ارتوى من ذلك كله ، فإنه يستطيع أن يتفكر فى خلق السموات والأرض وما فيهما من مخلوقات ، فيعود من هذه الجولة وقد امتلأ قلبه إيمانا بربه ، وتوكلا عليه ، ورغبة فيما عنده ، وشوقا إليه ، وحبا له ، وهذه بغية المؤمن من عبادته : أن يتقرب بها إلى الله ليحس بقربه من الله ، وقرب الله منه ، يقول سبحانه فى الحديث القدسى : « أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه حين يذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ، ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ، ذكرته فى ملأهم خير منهم ، وإن تقرب منى شبرا ؛ تقربت إليه ذراعا ؛ وإن تقرب إلى ذراعا ؛ تقربت إليه باعا ، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة) (١) .

وفى الحديث القدسى : « **من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، وماتقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه**» (٢) وبذلك يصلح من أمره ما فسد، ويستقيم من حاله ما اعوج، ويصبح بعبادته واصطباره على العبادة مؤمنا ربانيا، يصلح الناس بصلاحه، ويهتدون بهداه، ويستجيبون لنصحه قال تعالى: ﴿**وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون**﴾ (٣).

ـ **ومن حكم الله سبحانه** فى هذا التنوع أن تتناسب مع أحوال الناس وهى مختلفة أشد الاختلاف ، فمنهم الغنى ، ومنهم الفقير ، ومنهم القادر ومنهم العاجز ومنهم القوى ، ومنهم الضعيف .

فقد تكون الصدقة مناسبة للغنى ، على حين لا يستطيعها الفقير .

(١) رواه مسلم ـ فى باب الحث على ذكر الله من كتاب الذكر والدعاء ١٦ / ٢ .
(٢) اخرجه البخارى فى الرقاق
(٣) سورة السجدة ٢٤

وقد تكون الصلاة مناسبة للفقير الذى لا يملك مالا يعطيه ، وينفقه . وقد يكون الصوم مناسبا للفريقين مع الصحة والقوة . وقد تكون الدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مناسبة للعلماء ، وبابا يفتحون منه ينابيع الخير والهداية لإخوانهم المؤمنين ويستمطرون به شآبيب العطاء من رب العالمين . وربما كان الجهاد ميدانا يتسابق فيه الأقوياء إلى إعزاز الدين ، والفوز برضاء أرحم الراحمين . . . وهكذا .

ومما هو مناسب لهذا المقام ما حدث على عهد رسول الله ﷺ من ذهاب وفد الفقراء إلى النبى ﷺ ؛ يشكون إليه سبق الأغنياء إلى الخيرات بما لهم من أموال ، ينفقونها فى الخير من صدقات ، ومبرات ، وحج وجهاد ، وعجز الفقراء عن مجاراتهم فى ذلك ، وبيان الرسول لهم أن هناك أبوابا أخرى من الخيرات إن هم فعلوها سبقوا غيرهم ، ولم يلحقهم من بعدهم ، فرجعوا بالنصيحة يسارعون فى الخير فسمع ذلك الأغنياء فتسابقوا معهم فى العمل بها ، فعاد الفقراء إلى شكواهم فقال عليه الصلاة والسلام : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن ناسا ذهبوا إلى رسول الله ﷺ وقالوا : ذهب أهل الدثور بالأجور : يصلون كما نصلى ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون بفضول أموالهم ، قال : «أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به ، إن بكل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهى عن المنكر صدقة ، وفى بضع أحدكم صدقة ». قالوا : يا رسول الله : أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال : « أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر» . (متفق عليه) .

وقريب من هذا ما أخرجه مسلم رحمه الله عن ربيعة بن كعب الأسلمى رضى الله عنه أنه قال : كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فآتيه

بوضوئه وحاجته ، فقال : « سلنى » فقلت : أسألك مرافقتك فى الجنة ، فقال : « أو غير ذاك » قلت : هو ذاك . قال : « فأعنى على نفسك بكثرة السجود » .

فقد وصف الرسول ﷺ الصلاة لهذا الصحابى الجليل لتكون سبيله لنيل هذه المنزلة الفاضلة السامية لسمو الصلاة فى نفسها ، ورفعها لصاحبها ، ولأنها مناسبة لحال هذا الصحابى إذ كان فقيرا ، ومن أهل الصفة ، وليس له ما يتصدق به ، أو ينفقه فى سبيل الله .

وقد استنصحه آخر بعبادة فقال له : « عليك بالصوم فإنه لا عدل له » رواه أحمد ، والنسائى ، والحاكم وصححه قال أهل التأويل : لا عدل له : ليس هناك ما يساويه بالنسبة لك وَإِلاَّ فالصلاة خير العبادات ، وأفضل القربات لأنها مفتاح الخيرات ، ومنبع العطيات وكل قربة فإنما هى فرع منها أو تبع لها : قال عليه الصلاة والسلام : « الصلاة خير موضوع ، فمن استطاع أن يستكثر فليستكثر» .

حكـمة الصـلاة

فالصلاة طهارة للنفس ، وغذاء للقلب ، وسمو بالروح ، يرحل فيها المؤمن إلى ربه ، مخلصا قلبه من دنياه ، مقبلا على خالقه ومولاه : ويبدأها بالتكبير الذى يشعره بأنه لا أكبر من ربه الذى خلقه فسواه ، ولا أعظم من إلهه الذى يتبتل إليه ، ويقبل عليه ، وبذلك تزول كل رغبة ورهبة من قلب المؤمن بالنسبة لغير ربه ، فلا يرغب إلا فى ربه ولا يخاف إلا منه ، ثم يبدأ بالثناء على الله تعالى بما هو أهله ، ويقرأ كلامه القديم ، وتنزيله الحكيم ، بفاتحة الكتاب التى تضمنت الثناء على الله تعالى بنعوت الجلال والكمال ، وآثـار الـتربية لعباده فى صورها المتعددة ، والتى توحى بها كلمة رب ثم الإحساس بأن ربه الذى يعبده ، ويتوجه إليه ، ليس رب قبيلة أو أسرة أو جماعة ، أو بلد أو شعب ، إنما هو رب العالمين .

ولنتـأمل فى الآثار التى تضمنتها الآية الأولى من أم الكتاب ، تلك السورة العظيمة التى امتن الله بها على رسوله ﷺ فى قوله : ﴿ **ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم** ﴾ (١) .

فى الآية الأولى : ثناء وحمد ، وتمجيد وشكر ، والحمد خير ما يعبر به عبد أحس بنعم الله عليه ، وفى الحديث : « **أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضـل الـدعاء الحمد لله** » رواه الترمذى ، والنسائى ، وابن ماجة وفى الحديث : « **الحمد رأس الشكر ما شكر الله عبد لم يحمده** » رواه البيهقى ، وعبد الرزاق فى الجامع .

وإذا قرأ الرحمن الرحيم : غمره الشعور بأن ما تولى الله به عباده من فضل ، وما أفاء عليهم من نعم إنما هو محض جوده ، وفيض إحسانه ، وجميل عطائه ، وأنه سبحانه غلبت رحمته غضبه ، وسبق حلمه مؤاخذته ،

---

(١) سورة الحجر : ٨٧

لذا فإن معاملته لعباده ، يسبقها ويغلبها طابع الرحمة ، ويهيمن عليها سبق الإحسان ، فما أعظمه ، وما أقدسه ، وما أكرمه ، إنه الرحمن الرحيم .

فإذا انتقل المصلى بذهنه بعد ذلك إلى ماوراء هذه الحياة إلى الحياة الآخرة التى يفصل الله فيها بين عباده ليجزى كل نفس بما تسعى : ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾ (١) ﴿ **احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم ، وقفوهم إنهم مسئولون مالكم لاتناصرون ، بل هم اليوم مستسلمون ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ، قالوا بل لم تكونوا مؤمنين ، وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوما طاغين ، فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون ، فأغويناكم إنا كنا غاوين ، فإنهم يومئذ فى العذاب مشتركون إنا كذلك نفعل بالمجرمين ، إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ، ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ؟ بل جاء بالحق وصدق المرسلين** ﴾ (٢) .

فالذين استجابوا لربهم وعبدوه طائعين مختارين أعدوا ليوم الدين حسابا ، وهم يجلون ربهم ويحبونه ، هؤلاء الذين كانوا لا يستكبرون عن عبادة ربهم استثناهم الله من المعذبين الذين هم آنذاك فى حالة استسلام وقد كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ويقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون والذين عبدوا ربهم مخلصين قال عنهم ربهم : ﴿ **إلا عباد الله المخلصين ، أولئك لهم رزق معلوم ، فواكه وهم مكرمون فى جنات النعيم على سرر متقابلين** ﴾ (٣) .

لذا فإن المصلى يسأل ربه أن يهديه الصراط المستقيم بأن يعرفه طرق

---

(١) سورة الأنبياء : ٤٧

(٢) سورة الصافات : ٢٢ ـ ٣٧

(٣) سورة الصافات : ٤٠ ـ ٤٤

العبادة ويعينه على التزامها والإخلاص فيها ، فلا يعبد ربه إلا بما شرع ولا يقصد بالعبادة غير ربه . يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا** ﴾ (١) .

وما أجمل الختام فى سورة الفاتحة : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم : صراط الـذين أنعمت عليهم غير المغضـوب عليهم ولاالضالين ﴾ . . دعوات مباركات علمها الله لعباده ، واختارها لهم ليناجوه بها بعد أن أصبحوا أهلا لأن يستجيب لهم ، ويقبل عليهم كما أقبلوا عليه ، وكما يسألونه أن يثبتهم على طريق الهـداية يسـألـونـه أن يبـاعـد بينهم وبين من غضب عليهم لإعراضهم عن الهدى واتباعهم للهوى ، وذلك لمبالغتهم فى التفريط وقد جاء فى الحديث : « **اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضلال** » (٢) .

ثم يقرأ ما تيسر من القرآن ؛ ليؤكد المعانى التى استقرت فى قلبه من سورة الفاتحة ، فتستقر وتثبت ثم يتدرج المصلى فى الانحناء إعلانا عن الخضوع ، وزيادة فى الامتثـال والاستجـابـة ، مسبحا باسم ربه العظيم ، ثم يرفع ويستشعـر العـظمـة ، فيخـر ساجـدا ؛ فيتحـرر من ذل الأسر والـرق للمخلوقين ، ويصبح حرا عزيزا بالله ولله ، فتصبح النفس على سجيتها حرة طليقة ويتسلم القلب الزمام . والسجود أقرب حالات المصلى ، وأجمل هيئاته وأحب حالاته إلى الله تعالى وفى الحديث : « **أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء** » (٣)

ثم يرفع من السجدة الأولى فيحس بآثار النعم ورحمة المنعم ؛ فيخر له ساجدا مرة ثانية ، يسأله مسألة المسكين ، ويتضرع إليه تضرع الخائف الحزين ، ويسأله بتضرع ممزوج بالحب والشوق والحنين ، فيستجيب الذى فتح له أبواب رحمته . وفى الحديث : « **إن الله ينصب وجهه لوجه عبده فى**

---

(١) سورة الكهف : ١١٠.

(٢) تفسير ابن كثير حـ ١ صـ ٥٩

(١) رواه الإمام مسلم .

صلاته مالم يلتفت » .[1]

وهكذا يستمر المصلى فى كل الركعات ، ويؤدى على هذه الوتيرة جميع الصلوات فتتأكد الصلة بينه وبين خالقه ، فلا يرجو غيره ولا يخاف سواه .

يقول الشيخ يوسف النبهانى : اعلم أن الحكمة فى شدة اعتناء الشارع فى أمر الصلاة هى والله أعلم كثرة نفعها للعبد ، لعظم ما فيها من الوصلة بينه وبين الله تعالى ، وتشريعها معقول الحكمة ، جار على عادة الملوك ، فلما كان من يجتمع بهم يلزمه أولا أن يتطهر من الأوساخ ، ويلبس أحسن ما عنده من الثياب ، وأنظفها وأطيبها ، وحين الاجتماع يحصر أفكاره كلها فى النظر إلى الملك ، ومراقبة ما يرضيه فيفعله ، وما يغضبه ؛ فيجتنبه ، وما يقتضيه ذلك من الآداب الملوكية ، من غض الطرف ، وسكون الحركة ، وخفض الصوت والخضوع والسكينة حتى يستجلب بذلك رضا الملك ، كذلك الصلاة هى حضرة الله تعالى ، وهو الملك الحقيقى سبحانه وتعالى ، فيلزم من يريد الدخول فى حضرته وهى الصلاة قبل الدخول فيها الطهارة الكاملة من الأحداث بالوضوء أو الغسل وإزالة النجاسات ، ومتى دخلها يدخلها بالأدب التام ، والهيئة والاحتشام ، وإزالة النجاسات ، ويعلم أن الله تعالى ناظر إليه ، عالم بهواجس خواطره وسكنات سرائره ، وأنه واقف بين يديه عز وجل ، فيخشع ويخضع ، ويزيل من فكره كل شىء من أمور الدنيا والآخرة سوى استحضاره أنه واقف بين يدى الله تعالى وأنه ناظر إليه ، وعالم بجميع خواطره وسرائره ، وأحواله الظاهرة والباطنة ، وأنه قادر على كل ما يريد أن يفعله به من أنواع السعادة والشقاوة ، وأنه واحد أحد ، فرد صمد ، لا صاحبة له ولا ولد ، ولا شريك له ولا وزير ، ولا مثيل ولا نظير ، فهو إذا رضى عنه وأراد خيره ، فلا يستطيع أحد أن يعارضه بذلك ويمنع ما أراد له من الخير ، كما أنه إذا غضب عليه ، وأراد له الشر لا

---

(١) قطعة من حديث طويل رواه الترمذى من حديث الحارث الأشعرى وقال : حديث حسن صحيح ، وأخرجه الحاكم وقال : صحيح على شرط البخارى ومسلم

يستطيع أحد أن يعارضه بذلك فيدفع عنه ما أراد من الشر .

وقد شرع لخلقه على لسان رسوله الأعظم - ﷺ - شرعه وبين فيه أسباب رضاه وهى الطاعات ، وأسباب غضبه وهى المخالفات ، وكلاهما درجات ، ومما بينه فى شرعه أن من أكبر أسباب رضاه فعل هذه الصلوات ، وأن من أكبر أسباب غضبه ترك فرائضها اللازمات ، حتى إن كثيراً من أئمة دينه المبين ظهر لهم من شرعه القيم أن تركها كفر مخرج عن دين الإسلام موجب للشقاوة الأبدية والخلود فى النار إن مات مصرا على ذلك ، والعياذ بالله .

ومن لطفه تعالى أن شرع لهم ذلك فى كل يوم وليلة خمس مرات على سبيل الإلزام ، وأذن لهم بالحضور فيها باختيارهم فى النوافل ، متى شاءوا ، ووعدهم على ذلك الأجر الجزيل ، مع أن المصلحة فى ذلك لهم لا له عز وجل ، فإنهم هم الذين تشرفوا بالحضور بين يديه وخدمته ، ومخاطبته عز وجل ، كما أن من أذن له ملوك الدنيا بالحضور عندهم يجعل له الشرف الدنيوى الذى يفوق به الأقران مع أنهم - أى هؤلاء الملوك - عبيد فى الحقيقة مثل من تشرف بالحضور عندهم ، ولا نسبة بين هذا وذاك ، ومع كل هذا الشرف الذى يحصل للمصلين بالصلاة يخرجون منها بإحسان عظيم منه تعالى وهو الأجر الذى وعدهم به ، الذى لو كشف لهم عنه لا ستحقروا فى جانبه كل شىء من أمور الدنيا ، فقد صح عن رسول الله ﷺ - أنه قال : « **ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها** »[1] وركعتا الفجر هما نفل وليستا بفرض وقد ذكروا أن الفرض يفضل ثوابه على ثواب النفل سبعين ضعفا ؛ فانظروا إذا كان ذلك الفرض بجماعة ، وقد صح عن رسول الله ﷺ فى حديث الصحيحين أن صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بخمس وعشرين درجة وفى رواية بسبع وعشرين درجة[2] أ . هـ

---

(١) رواه مسلم

(٢) الرحمة المهداة فى فضل الصلاة : ٨٦ .

صلاة الجماعة

وقد تأكدت الجماعة فى الصلوات ، ووجبت فى صلاة الجمعة ، وناهيك بما تثمره هذه اللقاءات الكريمة فى المسجد وهو قلب المجتمع المسلم ، وملتقى المؤمنين بالغدو والآصال إن هذه اللقاءات فى بيوت الله فى الجمعات ، والجماعات تغرس المحبة والألفة ، والمودة والتراحم بين المسلمين ، وتجعل منهم كتلة متينة ، وجماعة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، جميعهم فى مساواة تامة بين يدى ربهم ، لا فرق بين غنى وفقير ، ولابين كبير وصغير ، ولا بين حاكم ومحكوم ، بل كلهم جميعا : الإمام والمأموم كنفس واحدة بقيادة إمامهم ، يحرمون بإحرامه ، وينصتون لقراءته ، ويركعون بركوعه ويسجدون بسجوده ، ويسبحون بتسبيحه ، انتظمت ظواهرهم ، واتفقت سرائرهم . يركعون ركوعا واحد ، ويقومون قياما واحداً ، ويسجدون سجودا واحدا ، ويسبحون تسبيحا واحدا .

فما أعظم النظام ، وما أجمل الالتئام ، وما أحسن هذه الصورة الروحية المشرقة ، والهيئة الجميلة الوضيئة ، التى جمعت بين المسلمين خالية قلوبهم من الأغراض ، مجردة من الأمراض ، بريئة من العلل ، ليس لأحدهم مطلب غير مطلب الآخر ، ولادعاء ولا قراءة تختلف من واحد إلى ثان ، بل كلهم يقرأون فاتحة الكتاب ، أو إمامهم يقرأ ، وهم ينصتون لا يقول أحدهم : اهدنى أو إياك أعبد وإياك أستعين ، بل صيغة الجمع كهيئة الجمع لا افتراق ولا اختلاف ، كلهم يقول : إياك نعبد وإياك نستعين . إهدنا الصراط المستقيم . وفى التشهد السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

صورة الجماعة حتى ولو اختفت عن مرأى الأبصار فهى ماثلة قائمة فى

البصائر ، يستشعر المسلم وهو فى الجماعة أنه ليس فردا منعزلا ، أو ليس هو وجماعته فقط هم القائمين بين يدى الله بل عشرات الألوف والملايين من المسلمين أمثالهم كل يدعو لأخيه ، وهو جالس فى تشهده يقول السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

تبدو فى **صلاة الجماعة** الصورة المتكاملة للجماعة المؤتلفة ، والقلوب المتوحدة ، والأرواح المشرقة ، والعقول المتزنة ، والأبدان المطيعة ، إنها وحدة كاملة فى كل شيء ظاهرا وباطنا ، سرا وعلنا .

أنت هنا فى الصف وعن كل جانب من جوانبك إخوة لك يشدون أزرك ، ويقفون معك يتلون ما تتلو ، ويستقبلون القبلة التى تستقبل ، وفى الحديث : « **إن المؤمنين كرجل واحد إذا اشتكى عينه اشتكى كله وإذا اشتكى رأسه اشتكى كله** ». [1] وفى الحديث الآخر : « **مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى** » [2] .

وللدكتور **محمد عبد الله دراز** رحمه الله رحمة واسعة وجزاه عن الإسلام خير الجزاء ـ كلام طيب فى حكمة الصلاة ، والاتجاه إلى القبلة الواحدة ، وما فى ذلك من دعم روابط الوحدة بين المسلمين على اختلاف ألوانهم وأوطانهم ، وعصورهم وأزمانهم ـ وقد سجله فى كتابه النافع الممتع « **نظرات فى الإسلام** » وهو على صغر حجمه فإنه خلاصة فكر ، وذوب قلب لرجل ذاق حلاوة الإيمان فعبر عما وجد ، ووصف ما خبر قال رحمه الله :

ينبغى لكل مصل أن يعد نفسه عضوا فى وفد الرحمن ، لا يناجى ربه بلسانه وحده ، بل بلسان إخوانه المؤمنين ، الحاضرين منهم والغائبين ، ألا إنَّ الوحدة التى يرمى هذا التشريع إلى تحقيقها لأوسع مجالا ، وأبعد مدى ،

---

(١) رواه مسلم

(٢) متفق عليه .

من أن تقف عند حدود الجيل الحاضر ، إنها تريد أن تنتظم فى سياج واحد كل أهل القبلة من الأجيال الماضية ، والحاضرة ، والمستقبلة ، بل نقول إنها أوسع رقعة من أن تقف عند عصر النبوة المحمدية ، وإنَّها تتجاوز ذلك العصر إلى عصور النبوات الأولى ، ذلك أن الشريعة المحمدية لم تنشىء هذه القبلة إنشاء ، وإنما جاءت مصدقة ومقررة للقبلة التى أسستها النبوات السابقة وهذا من أوضح الأدلة على سماحة الإسلام ، وسعة أفقه ، وشدة حرصه على جمع كلمة النبيين ، وتوحيد رابطة المؤمنين بالأديان السماوية كلها ، ولقد حقق الإسلام هذه الوحدة على مرحلتين متصاعدتين ، ففى **المرحلة الأولى** : انضم إلى صف إخوانه من أنبياء بنى إسرائيل (١) ، وفى **المرحلة الثانية** الأخيرة صعد إلى الأصل الأصيل فى الكعبة التى هى أول بيت وضع للناس منضما بذلك إلى صف أبى الأنبياء الذى يؤمن كل أهل الأديان به وبقبلته وإن لم يستقبلوها فى صلاتهم .

ولقد كان للقبلة التى وحدت صفوف المسلمين ، وربطت بين مشاعرهم كان لها قصة وأى قصة فلقد ظل بيت المقدس قبلتهم ، وحال الزمن ثم صارت الكعبة البيت الحرام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وأثار هذا التحول لدى خفاف الأحلام شيئا من الريب والشكوك ولكن القرآن الكريم تولى نقض هذه الشكوك ودحضها مجليا فلسفة التشريع وحكمته .

تُرى ما سر هذا الأهتمام البليغ بتعيين القبلة وتوحيدها ؟ وما سر هذا التطور فى تشريعها ؟ ولماذا لم يكن نظام الصلوات كنظام الدعوات المنثورة التى لا يشترط فى صحتها ولا فى قبولها أن يتخذ الداعى وضعا خاصا من

---

(١) يشير رحمه الله إلى الفترة التى كان فيها الرسول ﷺ والمسلمون يستقبلون بيت المقدس فى الصلاة حتى نزل قول الله تعالى : ﴿قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ وذلك عقب مقدمه عليه السلام للمدينة بنحو سبعة عشر شهرا .

الأوضاع ، ولا أن يلتزم أسلوبا معينا من الأقوال والأفعال ، ولا أن يتجه إلى جهـة معينة من الجهات ؟ ولماذا كانت الجهة هذا البيت أو ذاك ؟ ولماذا جعلت عامَّة للأمة كلها أفراداً أو جماعات ؟ أليست الصلاة صلة بين العبد وربـه ؟ أليست كل وظيفتها تحقيق هذه العبودية للرب ، والتماس المعونة منـه ؟ أو ليس الله يسمع لمن حمده على أى وضع كان ، ويستجيب لمن يدعوه حيثما توجه ﴿ **ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله** ﴾ [1] .

هذه أسئلة تجول بالخواطر ، ولكنها لا تلبث بعد قليل من التأمل أن ينجلى وجه الحكمة فيها ، أجل إنَّ قليلا من التأمل يهدينا إلى أن الله جلت حكمته حين شرع الصلاة على هذا الوجه الموحد فى أسلوبه وصورته ، وحين نصب لنا فيها إماما من بيننا نقتدى به ، أو بمن ينوب عنه ، وحين أقام لنا بيتا نتوجه فيه إليه بوجوهنا ، ونحج إليه بقلوبنا أو بأبداننا أراد بذلك أن تكون الصلاة عبادة جامعة بين علامتى الإيمان : المحبة لله ، والمحبة فى الله : أراد أن لا تكون الصلاة صلة واحدة ، بل مجموعة من الصلات ، صلة بين العبد وربه ، وصلة بينه وبين أئمة الرسل من المرسلين أو بمن يحمل رسالتهم ، وصلة بينه وبين إخوانه المؤمنين .

لقد كبر هذا التحويل على كثير من الناس وحسبوه لهوا وعبثا ، أو حيرة وترددا وما هو بعبث ولا تردد ، وإنما هو التصميم الأول نفسه يسير صاعدا نحو الهدف الأخير ، ولقد سماه علماء الظاهر نسخا وما هو بنسخ إلا فى الصورة والرسم ، أما فى جوهره فهو التدرج والترقى فى توحيد كلمة الأديان ، أرأيت الولد البار حين يسير قاصدا بيت أبيه ، فإذا مر فى طريقه على بيت إخوته ، فإنه يأبى إلا أن يعرج عليهم ليقيم بينهم فترة ما تطييبا لخاطرهم ، ثم يكون مستقره فى البيت المشترك الذى يحمل الأسرة كلها .

---

(١) سورة البقرة : ١١٥

فذلك التطور الذى حدث فى تشريع القبلة . .

فبيت المقدس هو بيت الإخوة ، والكعبة هى بيت الأسرة ، وهى منزل الجد الأعلى ، وإذا كان من مفاخر الإسلام أنه جمع بين القبلتين ، فإنه لم يكن همه ذات القبلة فى الأولى ولا فى الثانية ، وإنما كان همه أول الأمر وآخره هذا الانضمام والالتئام بين أسرة المؤمنين ، وفى وحدة القصد والتوجه إلى المعبود الأعلى تحت لواء النبيين والمرسلين .

﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾ (١) ﴿ قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ (٢) . فحكمة الصلاة ظاهرة فى هذه الصلة المتينة وفى تلك الرابطة القوية المكينة ، بين الله الخالق وبين المخلوق المربوب الذى استكمل صفات العبودية حيث امتثل : ﴿ قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة ﴾ (٣) وفى إقامتها والإتيان بها مستوفية الشروط والأركان مع التدبر واليقظة وحضور القلب وخشوعه ، سمو الروح وارتقاؤها ، وقوة الإيمان برقابة الله وهيمنته ، وسلطانه وعظمته ، هذه الصلاة التى تكسب من أقامها على أكمل صورة تزكية النفس : ﴿ قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى ﴾ (٤) ، وتكسبه الثبات والكرم ، وطمأنينة القلب ، وسكينة النفس ، وحسن الخلق ، وجميل الصبر ، وصادق اليقين ، فلاتزلزله الأحداث ، ولا تغيره نكبات الحياة ، لا يستأثر بالخير إن جاءه بل يشرك إخوانه معه من غير منة أو استئثار ، ولا يجزع من الشر إن نزل به ، لعلمه أن ربه هو الذى بيده مقاليد كل شىء ، هو المعز المذل ، المعطى المانع ، الضار النافع ، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ،

(١) سورة الانبياء : ٩٢
(٢) سورة البقرة : ١٤٢
(٣) سورة إبراهيم : ٣١
(٤) سورة الأعلى : ١٤ ـ ١٥

وهو **العزيز الحكيم ﴾** [1]، روى ابن عباس رضى الله عنهما أنه نعيت إليه أخته وكان مسافرا فأخذ ناحية من الطريق وصلى ، وتلا قول الله تعالى : **﴿ استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ﴾** . [2] ثم قال : عورة سترها الله ، ومؤنة كفاها الله ، وأجر ساقه الله .

والصلاة مطلوبة لذاتها ولآثارها يشير إلى هذا قول الله : **﴿ وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر ﴾** [3] فذكر الله هو الغاية حيث تتوصل إلى أعز مطلوب ، وأعلى مرغوب ، حيث التلذذ بذكر الله غاية الغايات ونهاية النهايات .

أما آثارها فطهارة القلب ، والنفس ، والروح باجتناب الخطايا ، والبعد عن الهفوات التى تكبل الإنسان ، وتأسره ، وتخرجه من عبودية الله إلى عبودية الهوى والشهوة ، وتخرجه من العبودية الراقية السامية ، عبودية الاستعلاء على سفاسف النفس ونزوات الهوى إلى عبودية الشرك والهبوط ، والانحطاط والتسفل : الى عبودية الطاغوت أينما كان وفى أى صورة كان . يقول عليه الصلاة والسلام : « **إن بين الرجل والشرك والكفر ترك الصلاة** » [4] ولكن المتعبدين لله بها ، والمواظبين على إقامتها هم الذين تطهروا ظاهرا وباطنا ، فأفلحوا وفازوا ، يقول عليه الصلاة والسلام : «**أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء ؟» قالوا : لا يبقى من درنه شيء . قال : «فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا »** . [5]

---

(١) سورة فاطر: ٢ .

(٢) سورة البقرة : ١٥٣

(٣) سورة العنكبوت : ٤٥

(٤) رواه الخمسة إلا البخارى

(٥) رواه الخمسة إلا أبا داود .

حكمة الزكاة والصدقة

وإذا كانت الصلاة بمثابة رباط قوى بين الإنسان وخالقه ، وبينه وبين نفسه ، وبينه وبين إخوانه المؤمنين : إذْ التقوا فى بيت الله فى المسجد فنشأت بينهم صلات ، وتوطدت علاقات ، وتولدت عواطف الخير ، من حب وعطف ، وبر ولطف ، ومواساة وإحسان ، فأحس الغنى حاجة أخيه الفقير ، ولمس القادر حال العاجز والضعيف فأدى كل منهما لأخيه ما وجب عليه : من معونة وصلة فأدى الغنى حق أخيه عليه ، من زكاة ماله المفروضة وزاده من صدقة التطوع فسد جوعته ، وستر عورته ، وفرج كربته ، وأزال لهفته من غير من ولا أذى ، ولا غرض ولا مأرب ، بل ابتغاء وجه الله لا يريد جزاء ولا شكورا ، ولا يبغى مدحا ولا ثناء ، بل يحمد الله الذى وفقه ، ويسأله أن يقبل زكاته وصدقته . وقد قرن القرآن الحكيم بين الصلاة والزكاة ، لأن الصلاة التى انتفع بها صاحبها أثمرت أخلاقا كريمة من البر والكرم والسماحة والجود ، والحب لله وفى الله ، فجعلت صاحبها الجواد الكريم ، الذى كان على صلة بمن خزائنه لا تنفد ، وسحائب جوده لا تحصى ولا تعد ، فأصبح يؤتى ماله يتزكى ، وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى ، واستجاب لنداء ربه : **﴿ قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال ﴾** (١) وتحقق بصفات المؤمنين الصادقين : **﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾** (٢) .

---

(١) سورة إبراهيم : ٣١

(٢) سورة الأنفال : ٢ ـ ٤

وإذا كانت الزكاة المفروضة تؤدى امتثالا للأمر ، واستجابة لله ورسوله ، فإن الصدقة تقدم بدافع من الأحاسيس النبيلة ، والعواطف الرفيعة ، والمشاعر الجياشة الراغبة فى الخير ، المحبة للفضل ، المدفوعة إلى التضحية والإيثار ، لعلمها بمن تتعامل معه وهو الله تعالى الواهب الرازق ، المعطى المنان ، المحسن الكريم ، الذى يحب المحسنين ، ويكرم المتقين الذين يبتغون ثواب الله وأجره ، ومعونته وفضله ، فيقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة فيتم التناصر والتكافل فيما بينهم ، وتؤتى شجرة المحبة أكلها كل حين بإذن ربها وتظلل المجتمع بظلها الوارف ، وفيضها الدافق ، فلا يوجد فى المجتمع جائع ، ولا ظامىء ، ولا عار ولا مهين ، إذ يكفل الغنى أخاه الفقير ، ويتعفف الفقير أن يمد يده بالمسألة ، فالأغنياء : ﴿ **يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾ (١) والفقراء : ﴿ **يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا** ﴾ (٢) فتختفى الأثرة ويبسط الإيثار مكارمه وفضائله ، كما تنشر الشمس أشعتها وأنوارها ، فيحيا الناس بالله ولله متحابين متعاونين ، طابت نفوس الفقراء ، بوصول حقوقهم إليهم ، واندفاع بؤس الحاجة عنهم ، وزكت نفوس الأغنياء بإخراج ما وجب عليهم من حق معلوم للسائل والمحروم ، وتجلت حكمة التشريع فى فريضة الزكاة من زوال الأحقاد والأضغان من قلوب الفقراء ، ومن زوال الشح والبخل من نفوس الأغنياء ، وأحس هؤلاء وأولئك أن المال مال الله وأن الأغنياء مستخلفون فيه : ﴿ **آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم لهم أجر كبير** ﴾ (٣) .

ومن لطف الله بعباده أنه لم يدع الإنفاق متروكا لضمائر الناس ، بل

---

(١) سورة الحشر : ٩

(٢) سورة البقرة : ٢٧٣

(٣) سورة الحديد : ٧

أوجبه وأوصى به ورغب فيه ، وحذر من رذ يلتى البخل والشح ، قال تعالى : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله إن الله بما تعملون بصير ﴾ (١).

وقال : ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾ (٢) وقال : ﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم ، بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة . ولله ميراث السموات والأرض ، والله بما تعملون خبير ﴾ (٣) .

وقد تولى الرسول صلى الله عليه وسلم بيان ذلك ، وبين المقادير الواجبة ، ثم ما يكون سبيله التطوع والنافلة ، والبر والمرحمة .

ولم توجب الشريعة فى المال إلا جزءا قليلا يسيرا ، وهو مع قلته كاف للفقير ، ساد لحاجته وعوزه ، وغير مجحف بالغنى ، بل هو مبارك للمال ، يصونه من الجوائح ، ويحفظه من السرق والحرق ، ثم فيه طهارة المتصدق وزكاته ، وفوزه فى الآخرة ونجاته . يقول عليه الصلاة والسلام : «إذا أديت زكاة مالك فقد قضيت ما عليك » (٤) . والزيادة عن القدر الواجب صدقة أجرها كبير ، وفضلها جزيل ، فالحد الأدنى للثواب عشر تضاعف إلى سبعمائة إلى أضْعاف كثيرة . قال تعالى : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ، الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (٥) ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر

---

(١) سورة البقرة : ١١٠
(٢) سورة النور : ٣٧
(٣) سورة آل عمران : ١٨٠
(٤) رواه الترمذى وابن ماجه
(٥) سورة البقرة : ٢٦١ ـ ٢٦٢

كريم ﴾ [1] ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا ، وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم اجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾ [2] .

وقد ساق النبى ﷺ وهو الصادق المصدوق أحاديث فى الحث على الصدقة والترغيب فيها ، . وبيان ثوابها ، وعظم أجرها ، وما يترتب عليها ، نذكر بعضا منها :

قال رسول الله ﷺ : « أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله ؟ » قالوا يا رسول الله مامنا من أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه قال : « فإن ماله ما قدم ومال وارثه ما أخر » [3] ويقول عليه الصلاة والسلام : « أفضل الصدقة جهد المقل إلى فقير فى سر » [4] ويقول عليه الصلاة والسلام فى الحديث المشهور- سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله - أحدهم - « رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه » [5] .

ويقول عليه الصلاة والسلام : « على كل مسلم صدقة » ، قالوا يا نبى الله فمن لم يجد ؟ قال : « يعين ذا الحاجة الملهوف » ، قالوا فإن لم يجد ؟ قال : « فليعمل بالمعروف وليمسك عن الشر فإنها له صدقة » [6] ويقول عليه الصلاة والسلام : « إنما الدنيا لأربعة نفر : عبد رزقه الله مالا وعلما فهو يتقى فيه ربه ، ويصل فيه رحمه ، ويعرف لله فيه حقا فهذا بأفضل المنازل ، وعبد رزقه الله علما ولم يرزقه مالا ، فهو صادق النية يقول : لو أن لى مالاً لعملت بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء ، وعبد رزقه الله مالا

---

(١) سورة الحديد : ١١

(٢) سورة المزمل : ٢٠

(٣) رواه البخارى

(٤) رواه أحمد

(٥) متفق عليه .

(٦) متفق عليه .

ولم يرزقه علما فهو يخبط فى ماله بغير علم ، لا يتقى فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ، ولا يعلم لله فيه حقا ، فهذا بأخبث المنازل ، وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علما فهو يقول : لو أن لى مالا لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فوزرهما سواء » (١) .

فإذا ما تجاوزنا الحديث عن الحكمة فى الزكاة والصدقة استوقفتنا زكاة الفطر التى تمثل جانبا إنسانيا له أثره وأهميته فى نظر الإسلام وفى حياة المجتمع المسلم . وبيان ذلك : أن الزكاة إنما تفرض على الأغنياء الذين استكملوا النصاب ، أما زكاة الفطر فإنها ـ عند جمهور العلماء ـ واجبة على الأغنياء والفقراء على السواء ، فتظهر المودة والمحبة والاستعلاء فوق الحياة حتى من الفقير الذى يأخذ من غيره ويدفع لغيره من إخوانه المؤمنين ، فياله من سمو وارتقاء ، وعلو فوق مآرب الحياة ذلكم التشريع الإسلامى الحكيم الذى يجعل المسلمين كا لجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى وفى الحديث : « **مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى** » . وتتحقق الغاية من وحدة الصف وجمع الكلمة وحب الخير للغير ـ لا على صورة مصغرة ـ أو ادعاء بلا حقيقة ، بل حقيقة مثالية ، وصورة كمالية ، صورة للمجتمع الإسلامى المتكامل المتضامن ، المتحاب ، المتجاوب ، الذى يعبد إلها واحداً : ﴿ **وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم** ﴾ (٢) ، ﴿ **إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون** ﴾ (٣) ﴿ **وَإِنَّ هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون** ﴾ (٤)

---

(١) رواه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح .
(٢) سورة البقرة : ١٦٣
(٣) سورة الأنبياء : ٩٢
(٤) سورة المؤمنون : ٥٢

حكمة الصيام

فإذا ما انتقلنا إلى تلمس السر والبحث عن الحكمة فى الصيام الذى جعله الله تعالى شهرا فى السنة ، وكتبه علينا كما كتبه على الذين من قبلنا لعلنا نتقى فنحقق الغاية من العبادة : **﴿ يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾** . (1)

وأول ما يطلعنا من أسراره تلك الوحدة الكاملة الشاملة التى يحدثها بين المسلمين ، فليس لقوم أن يصوموا شهرا ولآخرين أن يصوموا شهرا آخر ، بل المسلمون جميعا يتلقون الأمر الإلهى بالرضا والتسليم والطاعة والانقياد ، مع كل الحب والتقدير **﴿ يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعكم تتقون ، أياما معدودات فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيرا فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون ، شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون ﴾** (2) .

وفى جمع الشمل منافع كثيرة تعود على الأفراد والجماعات فتحيا القلوب ، وتصفو النفوس ، ويعم المجتمع الإسلامى جو من الطهارة والإيمان ، والخشية والإحسان ، والبر والمواساة ، والعطف والمؤاخاة ، وينتصر الإنسان على الرذائل والشهوات ، والتقاليد والعادات ، التى طالما

---

(1) سورة البقرة : ٢١

(2) سورة البقرة : ١٨٣ ـ ١٨٥

استعبدته ، فجعلته يأخذ ولا يعطى ، ويحسن الجمع ولا يعرف القسمة ، ويشتهى ولا يصبر ، فيعلمه الصوم بدروسه العملية ، الصبر عن الشهوات ومغالبة الأهواء والعادات ، حتى لا يكون أسير الهوى ، ولا صريع الشهوات ، بل بالصوم قويت إرادته ، وشحذت عزيمته ، ووقى شح نفسه ، فملك الزمام ، وسيطر على مجامع الهوى ، ونزعات النفس ، فيتبدل الوضع ، ويتغير الحال ، فبدل أن كان مقودا للنفس أصبح لها قائدا و لكنها قيادة للنفس من داخلها ، باعثها الإخلاص ، ودافعها اليقين ، فما أكثر الذين يخضعون لقوانين الأرض ظاهرا ، ويفسدون المقاصد من وراء ستار ﴿ **يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم** ﴾ [(١)] .

إن الله لم يشرع الصيام إيلاما للصائم ، أو تعذيبا له ولكن شرعه ليكون وسيلة لتهذيبه وتأديبه ، وفطمه عن سيطرة الأهواء والشهوات على نفسه ، والسلوك به عمليا أن يكون عبدا لله لا لغيره ، خاضعا له وحده ، لا لأحد سواه ، وفى تحقيق العبودية تحقيق الإنسانية ، فليس بإنسان من خضع لغير الله ، وإنما الإنسان الحق هو الذى خضع لله وحده ، وعبده وحده ، وأسلم قياده له وحده ، وهذا مايهدف إليه الصيام فى الإسلام ، هل رأيت مثله علاجا يبرىء النفس من أسقامها ، ويكسبها عزتها وقوتها ، وينيلها تزكيتها وتقواها ؛ فتتفتح فى نفسه طاقات الخير وتتسع فى قلبه دائرة الإحسان ، فيعبد ربه كأنه يراه .

ومن أخلص لله فى العبادة ، واحتسب بصومه ربه وحده فلا يعلم مكافأته إلا الله يقول الله تعالى فى الحديث القدسى : « **كل عمل ابن آدم له إلا الصوم ، فإنه لى وأنا أجزى به ، يدع شهوته وطعامه من أجلى** » [(٢)]

---

(١) سورة النساء : ١٠٨

(٢) رواه مسلم

. ويقول عليه السلام : « **من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه** »[1] .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير ، وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان جبريل يلقاه فى كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، فلرسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة[2] .

وحتى تتجلى لنا حكمة الصوم وندرك آثاره ينبغى أن نقتفى أثر رسول الله ﷺ فى الصوم كما نقتفى أثره فى كل شىء فنصوم كما يحب الله ، فنصل إلى التقـوى التى تبعـدنـا عن المعاصى والسئيات وتغمرنا فى عالم الطهر والنقاء ، وثمرة ذلك كله لنا ، فربنا غنى عن العالمين .

يقول الدكتور دراز رحمه الله : ليس هدف الصوم هذا الألم البدنى وإن كان هذا الألم يقع فى طريقه ، إن الله عز وجل حين قال لنا : ﴿ **كتب عليكم الصيام** ﴾ لم يقل لعلكم تتألمون كما أنه لم يقل لعلكم تصحون ، أو لعلكم تقتصـدون . إنـما قال : ﴿ **لعلكم تتقون** ﴾ . فجعل الصوم اختبارا روحيا ، وتجربة خلقية ، وأراد منه أن يكون وسيلتك إلى نيل صفة المتقين ، وأداتك فى اكتساب ملكة التقوى . . هذا هو الهدف الحقيقى الذى إن أصبته جاءت من ورائه كل الثمرات مكرهة راغمة ، وإن أخطأته فقد أضعت عملك كله سدى : ﴿ **من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب** ﴾ .[3]

إنك لن تحيط بكنه التقوى ، ولن تقدرها حق قدرها إلا إذا عرفت

---

(١) رواه مسلم .
(٢) متفق عليه
(٣) سورة الشورى : ٢٠

طبقات الكائنات ومراتب الوجود ، فاعلم أن الوجود ثلاث مراتب :

١ ـ **مرتبة السيادة العظمى** ، وهذه قد استأثر بها الواحد الأحد الفرد الصمد .

٢ ـ **مرتبة العبودية الدنيا** ، وهذه هى مرتبة الكائنات العاجزة المسخرة لقانون الطبيعة والتى ليس لها من الحرية نصيب كالجماد والحيوان ، وإن الإنسان ليهبط إلى هذه المنزلة إذا وقع أسيرا فى قبضة شهواته .

٣ ـ **المرتبة الثالثة ، تجتمع فيها السيادة على الكون والعبودية لخالق هذا الكون .**

وتلك هى المنزلة التى يصعد إليها الإنسان إذا وقف يتلقى أوامره العليا من ربه ثم جعل يلقى هذه الأوامر على جنده من القلب والروح ، فإذا أسلمت له تلك الجنود مقاليدها ، فصار قائدا مطاعا فى جنده ، سيدا مهابا فى مملكته الصغيرة ، فقد نال صفة التقوى ، وصار جديرا بالاستخلاف فى الأرض ، والتمكين له فيها ، وأكرم بعبودية هى عين السيادة ، تلك هى التقوى ، التى أراد الله أن تكون ثمرة حياتك ، وهى فى الحقيقة هدف مشترك بين العبادات والطاعات جميعا ، غير أن للصوم فى تحصيلها أثرا أوسع وأعم ، والمنزلة التى يبلغها الصائم بين مراتب المتقين هى أعلى المراتب وأسماها ، وإنَّ منزلة الصائم هى أسمى مراتب التقوى وأكرمها عند الله ، وذلك لأن فى سائر العبادات جوانب تحببها إلى النفوس الكريمة ، وتقربها من مقتضى الطباع السليمة ، ففى الصلاة مثلا حلاوة المناجاة ، وفى الزكاة أَرْيَحِيَّةُ الجود والكرم ، وفى الجهاد عزة الحمية وإباء الضيم ، أما الصيام فإنه ليس فيه معاونة من الطبع ، بل على العكس معاندته ومقاومته ، فكان أقرب الأعمال إلى الخلوص من الشوائب ، ولعله من أجل ذلك كانت الأعمال كلها يثاب عليها بأضعاف معلومة من العشرة إلى السبعمائة ، إلا الصوم فإنَّ تضعيف جزائه لا يدخل تحت حصر ولا عد

كما جاء فى الحديث القدسى : « **كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنـا أجـزى به** » ومصـداقـه فى الكتاب العزيز : ﴿ **إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب** ﴾ [1] .

هذا الفضـل العـظيم إنـما هو كما قلنـا ، لمن فقه حكمة الصوم ، وصلحت فيه نيته وذلك إنَّما يكون بجعله نهاية الطهر لا بدايته .

فبداية الطهر ، طهر الأبرار بترك المحارم ، ونهاية الطهر طهر الأخيار بالتحـرر من عادة الـترف والعيش الناعم ، حتى إذا جاء الغد ، وجد الجد ، ودعا الداعى إلى التضحية العظمى نكون قد أخذنا للأمر عدته ، حيث مارسنا الصبر وشدته ، وحينئذ نرضى بالظمأ والنصب والمخمصة ، ولا نرضى أبـدا أن نعـود إلى الـترف والنعيم تحت الـذل ، وفى قبضـة الغاصب . . وتلك هى عبرة الساعة من درس الصيام . [2] .

---

(١) سورة الزمر : ١

(٢) نظرات فى الإسلام للدكتور دَرازّ : ٤٤ ـ ٤٦ .

حكـمة الحـج

والحـج إلى بيت الله الحرام ركن من أركان الإسلام وعبادة من أجل العبادات ، يذهب الإنسان المؤمن إلى هذا البيت الحبيب إلى قلبه ، والذى يولى وجهه شطره كلما أراد الصلاة . يذهب القادر لتأدية هذه الفريضة ، وزاده مال حلال ، وقد تطهر قلبه بالتوبة النصوح فزكت نفسه ، وسمت روحـه ، وتأججت عاطفة الشوق بين جوانحه ، فأشبعها وأرواها بزيارته للبيت وطوافه حول الكعبة وسعيه بين الصفا والمروة ، ووقوفه بعرفات وأدائه للمنـاسك ، والحقيقة أن اللذة التى يجدها الحاج لاتوصف ولا يستطاع التعبير عنها إلا بقدر ، وكل يعبر بحسب ذوقه وإحساسه ومواجيده ، فها هو الإمام الغزالى رحمه الله يقول فى الإحياء :

فالشوق إلى لقاء الله عز وجل يشوقه إلى أسباب اللقاء لا محالة ، هذا مع أن المحب مشتاق إلى كل ماله إلى محبوبه إضافة ، والبيت مضاف إلى الله عز وجـل ، فبـالحـرى أن يشتاق إليه لمجرد هذه الإضافة فضلا عن الطلب لنيل ما وعد عليه من الثواب الجزيل . [1] اهـ .

ويقول الشيخ أحمد عبد الرحيم الدهلوى : ربما يشتاق الإنسان إلى ربه أشد شوق ؛ فيحتاج إلى شىء يقضى به شوقه فلا يجد إلا الحج ، وبجوار إرواء عاطفة الحنين والشوق ، التدريب العملى على الجهاد الذى فيه الكثـير من الشـدائد والمتاعب ، ومدافعة الأخطار ، وقد لا يستطيع الكبير والضعيف من الرجال ، والنساء ، والصغير ملاقاة الأعداء فجعل رسول الله ﷺ جهادهم فى الحج . يقول عليه الصلاة والسلام : « **جهاد الكبير والصغير والضعيف والمرأة : الحج والعمرة** » [2] . وقد قيل للنبى

---

(١) الاحياء للغزالى ج١ ـ٢٤

(٢) رواه النسائى

ﷺ : هل على النسـاء من جهـاد ؟ قال : «**نعم : عليهن جهاد لاقتال فيه : الحج والعمرة**» [1] . وقد قالت السيدة عائشة رضى الله عنها لرسول الله ﷺ : يارسـول الله نرى الجهـاد أفضل العمل أفلا نجاهد ؟ قال : «**لا ، لكن أفضل الجهاد حج مبرور**» [2] .

والـواقـع أن الرحلة لتأدية فريضة الحج تمرين عملى على الجهاد ، فالإنسان يفارق أهله وعشيرته وأصدقاءه ، وتجارته وعمله ومصالحه كما يفارق راحته ولذته ، ويعانى من مشقة الانتقال ، ووعثاء السفر ما يعانى ، ما الـذى يحمله على كل هذا ؟ إن الـذى يحمله على ذلك ، ويرغبه فيه ، ويشوقه إليه إنما هو الطاعة لله ، والاستجابة لأمره ، والتلبية ، لدعوته وبذل كل مرتخص وغال فى سبيل حبه ورضوانه ، وكلما اقترب من البيت ازداد حنينه واشترك قلبه مع لسانه فى التلبية فلبت معه الكائنات ، وتجاوبت معه الجمادات ، يقول عليه الصلاة السلام : «**مامن مسلم يلبى إلا لبى ما عن يمينـه وعن شمالـه من حجـر أو مدر حتى تنقـطع الأرض من ها هنـا وهنـا**» [3] . فيسأل ربه ويتضرع إليه ، يسأل حسن العاقبة ، والتوفيق للعمل الصالح فى الأيام الباقية . وفى البيت الحرام حيث تقع العين على الكعبة تنزل الدموع ويستشعر القلب جلال الموقف ، وتسبح الروح فى عالم الصفاء والنقاء ، وينقاد العقل طائعا مختارا ، هذا العقل الذى تعود الرزانة والـوقـار ، وكـان الحكم على القلب والممسك بقياده ، إذا به يتخلى عن القيادة ويسلمها للقلب فيهيم مع الهائمين ، لأنه لايعتبر مسلما مسلّما من يعتمد على عقله فى كل شىء ويرفض مالا يقبله عقله مما لايدرك حكمته ، ولا يتـوصل إلى سره ، إنه فى رحلة الحج يقول للعقل قف عند حدك ،

---

(١) رواه البخارى

(٢) بالنسبة للنساء لا للجميع بقرينة المقام ولدلائل أخرى

(٣) رواه الترمذى

واخلع عنك ربقة الاستبداد ، وقيود الأغلال والأصفاد التى خضعت لها تحت سيطرة التقاليد ، ومألوف العادات ، وفلسفة الحضارات ، واتبع الأمر لمجرد الأمر ، ونفذ الطاعة رغبة فى رضاء الآمر ، واستجابة لدعوة الداعى ، ودعك من طلب الدليل والحكمة ، وتلمس الأسرار والأسباب ، وتلك هى الحكمة الأولى وهى من الحكم الأصيلة التى تترك أثرها على المرء فى سائر شئونه ، وكافة أحواله .

إذلال النفس عند الحج

يقول ابن أبى جمرة رحمه الله : هل هذه الصفات التى كلف الحاج بها من ترك المخيط ، وترك الطيب ، وترك الرفاهية ، هل الحكمة فيها معروفة ؟ أو هى تعبّد لايعقل له معنى ؟ .

فإن قلنا : تعبد فلا بحث ، وإن قلنا إن قواعد الشريعة تنبنى على نظر الحكمة فيها ، وقد أرشد الكتاب العزيز إليها ، ولولا آيات كثيرة إذا نظر فيها لم توجد الحكمة فيها ظاهرة ما قيل ذلك وهو قوله تعالى : ﴿ **فيه آيات بينات** ﴾ .

فإذاً لا يخص هذا اللفظ بشىء من آياته دون شىء ، أو يجعله فى المحسوس مثل ماقاله بعض الناس ، من كونها لم ير بها محرما ، ولافى رمى الجمار من كونها ترمى فى كل عام ولايوجد لها أثر فهذه مما يرى البعض ، وفيها تنبيه لمن ينظر ويتفكر يجدها عديدة .

وكل يأخذ من عموم هذه الآية بحسب ما يفتح له من الفهم فإن الحكمة عجيبة ، ومما يظهر بتوفيق الله من الحكمة وجهان :

١ ـ **أحدهما** وهو كونهم يمشون لكشف مابهم من الأوزار والأثقال ، ومن يمشى إلى مثل هذا الحال فيكون مشيه متذللا ، خارجا عن حظوظ النفس التى أوقعته فى ارتكاب الذنوب ، لأنه جاء عنه ﷺ لما قال مولانا جل جلاله للملائكة : ﴿ **إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : إنى أعلم ما لا تعلمون** ﴾ [(١)] غضب الله عز وجل عليهم فطافوا بالعرش أسبوعا ، واستغفروا ، وتابوا ؛ فتاب بفضله عليهم ثم قال لهم : ابنوا فى الأرض بيتا يطوف به المذنبون من بنى آدم فأتوب عليهم ، كما تبت عليكم ، وأغفرلهم كما غفرت لكم ، فبنو البيت ، فمن يأت بهذه الصفة

---

(١) سورة البقرة : ٣٠

ينبغى من طريق الحكمة التناسب بين الحال والمقصد ، أما ترى لما كان الخروج إلى العيد إلى طلب رحمته عز وجل عقب خروجهم من العبادة المتقدمة وهى الصوم كانت بالطيب وحسن الثياب موافقة للحال ، وهو حال الاستقامة والامتثال لما به أمروا ، ولما كان الخروج إلى الاستسقاء خروجا إلى كشف ما نزل من الضر كان الخروج على هيئة تضرع ومسكنة من أجل ما ارتكب من الذنوب لأنه جاء : إن العبيد إذا أذنبوا منع الله عز وجل عنهم المطر من أجل ذنوبهم ؛ فخرجوا فى مسكنة وقشف من الحال حتى يكون رفع الأيدى بظهورها إلى السماء رهبا من أجل تناسب الحال ، فكذلك هذا ، بل يكون هذا أعظم ، لأن الطلب فيه أعظم .

٢ - **وفيه وجه آخر** : لما كان فيه شبه بالمحشر ، لأن المحشر يجتمع فيه الناس فى يوم واحد من كل الأرض . وكما أن المحشر مواقف ، فكذلك هذا : مواقيت للجمار ، ومواقيت للمبيت بمنى ، وبالمزدلفة إلى غير ذلك ، وكما أن الخروج من هذه الدار ، ومفارقة الأهل والمال وليس له من ذلك كله إلا قدر زاده للآخرة من الكفن ، وما تبخر به كذلك الحاج مفارقته للأهل والوطن الذى قد جعل مقرونا بالموت لقوله عز وجل : ﴿ **ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم** ﴾. (١) . وكذلك ليس له من ماله إلا قدر زاده لسفره هذا على الغالب من عادات الناس ، والغير يتركه كله .

وكما له بعد الموت مواقف دون القيامة وأهوال يخلص الله منها من يشاء ويهلك فيها من يشاء **كذلك طريق الحج** فيه ما فيه من المكابدة وقد قال الله تعالى : ﴿ **لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس** ﴾ . (٢)

ومن الناس من يهلك فى طريق الحج ، كما يهلك هناك ، غير أن بين الهلاكين فرقا ما . لأن الهلاك هنا يذهب الروح من الجسد ، وقد تكون فيه

---

(١) سورة النساء : ٦٦

(٢) سورة النحل : ٧

سعـادته ، وهناك بكثرة الأهوال وعدم التخلص منها ، فهو هلاك شقاوة وخسران غير أن هناك يقفون عراة ، وقد كانوا يقفون قبل الإسلام عراة ، إلا أنه أحكمت السنة هنا نوعا من اللباس من أجل ستر العورة ؛ لأن ذلك الهول هناك يمنع أن ينظر أحد عورة أحد وليس هنا مانع من النظر ، فأمر بسترها ، وهناك لاطيب فيه لأحد ، وهنا مثله وهناك الأمر فيه والحكم لله لا لغيره ، وذهبت الدعاوى كلها ، كذلك هنا فيما يرجى من المغفرة لاحيلة فى ذلك لأحد ، الكل مستسلمون منتظرون ما يحكم الله عز وجل فيهم ، وقد أجد عن بعض المباركين أنه لما أن حج وفرغ ، غلبته عيناه فنام فرأى كأن ملكين نزلا من السماء فقال أحدهما للآخر : كم حج بيت ربنا هذا العـام ؟ قال له : ستمائة الف ، قال كم قبل منهم ؟ قال ستة فاستيقظ مذعورا وقال : من لى حتى أكون واحدا من ستة ، ثم نام ثانيا ثم ثالثاً مثل ذلك فرأى الملكين قد نزلا وأعادا السؤال الأول ثم قال له : ما فعل ربنا فى الباقين ؟ قال : شفع كل واحد منهم فى مائة ألف واستيقظ فرحان .

فجاء الشبه على هذه الحكاية مثل القيامة ناج ، وضده ، ومقبول ، وغير مقبول ومشفوع فيه وشافع ، لكن بإذنه وفضله قد يكون المجموع .

ويترتب على هذا من معرفة الحكمة أنه لاينال الخطير من القرب إلا بالخطير من المجاهدات والتعبدات لأنه لما كان هذا موطنا تغفر فيه الجرائم العظام كما جاء عنه ﷺ أنه لم ير الشيطان أصغر ولا أحقر من يوم عرفة ، لما يعاين من تجاوز الله عن الكبائر العظام يحثو التراب على رأسه ويقول : قوم فتنتهم منذ خمسين أو أربعين سنة ثم غفر لهم فى ساعة . أو كما قال عليه الصلاة السلام ، فالوصول إلى هذا ليس بالهين ، بل بالجهد العظيم إلاّ من منّ الله عليه بالتيسير من طريق الفضل ، وفيه تنبيه على أن يتذكر به ذلك الموقف الذى يشبهه فيكون سببا لصدق الملجأ إلى المولى الكريم وكثـرة الرغبة إليه وإظهار الافتقار الذى يرجى به الخير كله لقوله تعالى :

﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ﴾ . (١) وهو سبحانه لا يخلف الميعاد ، جعلنا الله ممن من عليه بفضله بلا محنة ولارب سواه . (٢)

وللإمام الغزالى كلام نفيس فى بيان روح الحج وحقيقته ، وهى الإيمان بالغيب والامتثال المطلق . قال رحمه الله : ووضعه - أى البيت الحرام - على مثال حضرة الملوك يقصده الزوار من كل فج عميق ، ومن كل أوب سحيق ، شعثا غبرا متواضعين لرب البيت ومستكينين له ، خضوعا لجلاله والاعتراف بتنزيهه عن أن يحتويه بيت أو يكتنفه بلد ، ليكون ذلك أبلغ فى رقهم ، وعبوديتهم ، وأتم فى إذعانهم ، ولذلك وظف عليهم فيها أعمالا لاتأنس بها النفوس ولا تهتدى إلى معانيها العقول ، كرمى الجمار والحجارة والتردد بين الصفا والمروة على سبيل التكرار وبمثل هذه الأعمال يظهر كمال الرق والعبودية فإن الزكاة إرفاق ووجهها مفهوم ، وللعقل إليه ميل ، والصوم كسر للشهوة التى هى آلة عدو الله ، وتفرغ للعبادة بالكف عن الشواغل والركوع والسجود فى الصلاة تواضعاً لله عز وجل بأفعال هى هيئة التواضع ، وللنفوس أنس بتعظيم الله عز وجل ، فأما تردد السعى ، ورمى الجمار ، وأمثال هذه الأعمال فلاحظ للنفوس ، ولاأنس للطبع فيها ، ولا اهتداء للعقل إلى معانيها فلا يكون فى الإقدام عليها باعث إلا الأمر المجرد ، وقصد الامتثال للأمر من حيث إنه أمر واجب الاتباع فقط .

وفيه عزل للعقل عن تصرفه ، وصرف للنفس والطبع عن محل أنسه ، فإن كل ما أدرك العقل معناه مال الطبع إليه ميلا ما فيكون ذلك الميل معينا للأمر وباعثا معه على الفعل ، فلا يكاد يظهر به كمال الرق والانقياد ولذلك قال ﷺ فى الحج على الخصوص : « لبيك بحجة حقا ، تعبدا ورقا » ولم يقل ذلك فى صلاة ولاغيرها ، وإذا اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى ربط

(١) سورة النمل : ٦٢
(٢) بهجة النفوس لابن ابى جمرة ١٦٥ - ١٦٦

نجـاة الخلق بأن تكـون أعـمالهم على سنن الانقياد ، وعـلى مقتضى الاستعبـاد ، كان مالا يهتـدى إلى معـانيه أبلغ أنواع التعبدات فى تزكية النفوس وصرفها عن مقتضى الطباع والأخلاق ، إلى مقتضى الاسترقاق ، وإذا تفطنت لهذا ، فهمت أن تعجب النفوس من هذه الأفعال العجيبة ، مصدره الذهول عن أسرار التعبدات ، وهذا القدر كاف فى تفهم أصل الحج إن شاء الله تعالى [1]أهـ .

ويقول الإمام الغزالى عن الرمى ، وإن العمدة فيه هو الانقياد والأمر المجرد : فاقصد به الانقياد للأمر إظهاراً للرق والعبودية ، وانتهاضا لمجرد الامتثال من غير حظ للعقل والنفس فيه ، ثم اقصد به التشبه بإبراهيم عليه السلام ، حيث عرض له إبليس ـ لعنه الله تعالى ـ فى ذلك الموضع ليدخل على حجه شبهة ، أو يفتنه بمعصية ، فأمره الله عز وجل أن يرميه بالحجارة طردا له ، وقطعا لأصله ، فإن خطرلك أن الشيطان عرض له وشاهده ، فلذلك رماه ، وأما أنا فليس يعرض لى الشيطان ، فاعلم أن هذا الخاطر من الشيطان ، وأنه هو الذى ألقاه فى قلبك ، ليفتر عزمك فى الرمى فيه برغم أنف الشيطان . .

واعلم أنك فى الظاهر ترمى الحصا إلى العقبة ، وفى الحقيقة ترمى به وجه الشيطان ، وتقصم به ظهره ، إذ لايحصل إرغام أنفه إلا بامتثالك أمر الله سبحانه وتعالى تعظيما له لمجرد الأمر من غير حظ للنفس والعقل فيه . [2]

ويقول عن الذبح : فاعلم أنه تقرب إلى الله تعالى بحكم الامتثال فأكمل الهدى وارج أن يعتق الله بكل جزء منه جزءا منك من النار ، فهكذا ورد الوعد ، فكلما كان الهدى أكبر ، وأجزاؤه أوفر كان فداؤك من النار أعمّ أهـ .

---

(١) الإحياء ٣ / ٤٨٣ ط الشعب .

(٢) الإحياء للغزالى ٣/ ٤٨٩ .

تعقيب لابد منه

وبعد . . . فإن فيما سقناه من تنوع العبادات ، وتلمس لبعض أسرارها إنما كان فى حدود الطاقة والوسع ، ومن قبيل إلقاء الأضواء وإعطاء الأمثلة وتقعيد القواعد لا من قبيل الا ستقصاء فإنه غير مستطاع ، وكل إنما يتحدث فى هذه الأمور بحسب فهمه ، ومبلغ علمه ، وما يفتح الله به عليه ، ومن هنا كان حرصنا على سوق ألوان من الفهوم لجماعة من الأئمة لهم فى العلم شأنهم ، وفى الدين مكانتهم ، وفى المعرفة أذواقهم وأحاسيسهم ، وبالله التوفيق ، هو حسبنا ونعم الوكيل .

والحقيقة التى ينبغى اعتقادها ، والإيمان بها ، والحرص على دوام استحضارها واستصحابها فى سائر الأحوال ، ومع جميع الأعمال أن الأصل فى العبادة أنها تؤدى انقيادا لله تعالى وخضوعا لأمره ، وإيمانا بحكمته ، واعترافا بحقه ، وقياما بواجب شكره على ما أسدى من نعم ، وأغدق من فضل . . ولايكون العبد مؤمنا إلا بهذا التسليم : **﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون ﴾** . (1)

ولايتم له إيمانه إلا إذا انشرح بذلك صدرا ، وقربه عينا دون أدنى تردد أو حرج : **﴿ فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾** (2) .

ولو كان الإنسان لايعبد الله إلا بما وافق عليه عقله المحدود ، وعرف

---

(1) سورة النور : ٥١، ٥٢

(2) سورة النساء : ٦٥

الحكمة فيه تفصيلا ، فإذا عجز عن إدراك السر فى جزئية أو أكثر من جزئياته ، أعرض ونأى بجانبه لكان فى هذه الحالة عبد عقله وهواه ، لاعبد ربه ومولاه .

إن العبودية لله شعارها الإيمان بالغيب ، والطاعة للأمر ولو لم تحط بسره ، وحسب المؤمن أن يعلم بالإجمال أن الله غنى عن العالمين ، غنى عن طاعتهم وعباداتهم ، فلا تنفعه طاعة من أطاع ، ولاتضره معصية من عصى : ﴿ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غنى حميد﴾ [1] ، ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين ﴾ . [2] فالله غنى عن عباده كل الغنى ، وإذا تعبدهم بشىء فإنما يتعبدهم بما يصلح أحوالهم ، ويعود عليهم بالخير فى حياتهم الروحية الفردية ، والاجتماعية الدنيوية ، والأخروية غير أن الإنسان المحدود قد تخفى عليه حكمة الله جل وعلا فى أمره ونهيه ، كما تخفى حكمته فى جريان الأقدار ، وفى التسليم الاستقرار والسعادة ، والحسنى وزيادة :

وكم لله من لطف خفى يدق خفاه عن فهم الذكى

وكما أخفى كثيرا من أسرار هذا الكون عن الإنسان أخفى عنه بعض أسرار ما شرع ؛ ليظل الإنسان فى هذا وذلك متطلعا بأشواقه وراء المجهول ، أملا فى الوصول ، معترفا بالقصور ، وليظل دائما فى دائرة العبودية المؤمنة التى شعارها دائما : ﴿ سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ . [3] اهـ

ويقول الإمام الغزالى : إن العبادات لصحة قلب الإنسان ،

---

(١) سورة لقمان : ١٢

(٢) سورة آل عمران : ٩٧

(٣) العبادة فى الاسلام للقرضاوى : ٢٠٧ ـ ٢٠٨ وما بين القوسين فمن كلام الباحث

كالأدوية لصحة بدنه ، وليس كل إنسان يعرف خواص الدواء وسر تركيبه ، إلا الطبيب أو العالم الذى اختص بمعرفته ، وكل مريض يقلد الطبيب فيما يصفه له من دواء ولا يناقشه فيه (قال) : فكذلك بان لى على الضرورة أن أدوية العبادات بحدودها ومقاديرها المحدودة ، المقدرة من جهة الأنبياء لا يدرك تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء ، بل يجب فيها تقليد الأنبياء ، الذين أدركوا تلك الخواص بنور النبوة ، لا ببضاعة العقل ، كما أن اختلاف الأدوية فى المقدار ، والوزن ، والنوع ، لايخلو من سر هو من قبيل الخواص .

فكذلك العبادات التى هى أدوية داء القلوب مركبة من أفعال مختلفة النوع ، والمقدار حتى إن السجود ضعف الركوع ، وصلاة الصبح نصف صلاة العصر فى المقدار ، فلا تخلو من سر من الأسرار وهو من قبيل الخواص التى لايطلع عليها إلا بنور النبوة ؛ فقد تحامق وتجاهل جدا من أراد أن يستنبط لها حكمة أو ظن أنها ذكرت على الاتفاق لا من سر إلهى فيها [1] اهـ

والعقل لايستطيع الإحاطة بكل سر ولا الوقوف على كل حكمة ، وإنما تتجلى له بعض الحكم والأسرار ويخفى عليه الكثير، وعليه ـ وهو متعبد لربه ـ أن يسلم له فيما خفيت عليه الحكمة ، أو غاب عنه سره ، وبذلك يكون قد أدى عبوديته لربه بالانقياد والخشوع ، والاستسلام واليقين ، من غيرحرج ولاضيق ؛ لأنه لو انفتح المجال للعقل فى هذا الميدان ـ وعقول الناس ليست على وتيرة واحدة ـ لاستحسن البعض ما يستقبحه غيره ، أو العكس ، ولدخلت العقول فى العبادة بالهوى . فلا يكون ثمة إلا الاختلاف والافتراق ، والخروج عن العبودية وآدابها ، واقتراح الزيادة أو النقصان فى مقادير العبادة ، أو التخمين والتكهن فى أسرارها .

---

(١) المنقذ من الضلال

فالعبادات شعائر توقيفية تؤخذ بأوضاعها وأشكالها ولايتجه الاعتراض إلى وضع من أوضاعها إلا ما أمكن أن يتجه إلى الوضع الآخر، لو استبدل منها ما اقترحه المقترح بما جرى عليه العمل وقامت عليه الفريضة من نشأتها. لماذا يكون الصوم شهرا ولايكون ثلاثة أسابيع أو خمسة ؟ لماذا تكون الزكاة جزءا من عشرة أجزاء ولا تكون جزءا من تسعة أو من خمسة عشر؟ لماذا نركع ونسجد، ولانصلي قياما، أو قياما وركوعا بغير سجود ؟ من اعترض بأمثال هذه الاعتراضات فليس ما يمنعه أن يعود إلى الاعتراض، لو فرض الصيام ثلاثة أسابيع أو فرضت الزكاة فوق مقدارها، أو دون هذا المقدار، أو فرضت الصلاة على وضع غير وضعها الذى اتفق عليه أتباع الدين .

وليس معنى ذلك أن هذه الأوضاع لا تعرف لها أسباب تدعو إليها، وتفسر لنا اتباعها دون غيرها، لكنها فى نهاية الأمر **أوضاع توقيفية لا موجب من العقل للتحكم فيها** بالاقتراح والتعديل لأن المقترح المعدل لن يستند إلى حجة أقوى من الحجة التى يرفضها، ويميل إلى سواها، ويسرى هذا على كل تنظيم فى أمور الدنيا، ولايسرى على أمور الدين وحده، فلماذا يكون عدد الكتيبة فى جيش هذه الأمة خمسين مثلا ويكون فى أمة غيرها أربعين أو مائة ؟ ولماذا يجعل اللون الأخضر رمزا لهذا المعنى فى ألوان العلم القومى عند قوم من الأقوام، وهو مجعول لغير هذا المعنى عند أقوام آخرين ؟

لا مناص فى النهاية من أسباب توقيفية يكون التسليم أقرب إلى العقل من المجادلة فيها. إلا أن هذا كله لا يقضى علينا بقبول كل عبادة على كل وضع يخطر على البال، ولا يمنعنا أن نفاضل بين العبادات فنرى منها عبادة أفضل من عبادة، أو فريضة أولى بالاتباع من فريضة، إذ لاشك أن العبادة التى تؤدى غرضها أفضل من العبادة التى لا تؤدى هذا الغرض، أو لا تؤدى غرضا من الأغراض، ولاشك فى وجود المزايا التى تتفاوت بها العبادات وإن لم تكن هذه المزايا داخلة فى الغرض بشعائر العبادات .

والغرض من عبادات الأديان ينطوى على أغراض متشعبة ، يضيق بها الحصر لأنها تقابل أغراض الدنيا جميعا بأغراض الدين ، ولكنها قد تجمعنا جهد المستطاع فى تنبيه المتدين على الدوام إلى حقيقتين ، لا ينساهما الإنسان فى حياته الخاصة أو العامة إلاهبط به النسيان إلى درك البهيمية ، واستغرق فى هموم مبتذلة لافرق بينها وبين هموم الحيوان الأعجم - إن صح التعبير- عن شواغل الحيوان الأعجم بكلمة الهموم .

إحدى الحقيقتين التى يراد من العبادة المثلى أن تنبه إليها ضمير الإنسان على الدوام هى وجوده الروحى الذى ينبغى أن تشغله على الدوام بمطالب غير مطالبه الجسدية ، وغير شهواته الحيوانية .

والحقيقة الأخرى التى يراد من العبادة المثلى أن تنبه إليها ضميره هى الوجود الخالد الباقى إلى جانب وجوده الزائل المحدود فى حياته الفردية ، ولا مناص من تذكر الفرد لهذا الوجود الخالد الباقى ، إذا أريد منه أن يحيا حياة تمتد بآثارها إلى ما وراء معيشته اليومية ، ووراء معيشة قومه ، بل معيشة أبناء نوعه ، وعبثا يترقى الإنسان من مرتبة البهيمية إلى مرتبة تعلوها إن جاز أن يعيش أيامه يوما بعد يوم وهو لايذكر أنه مطالب بواجب أكبر من واجب الساعة ، أو واجب العمر كله ، فإن الترقى فى كل صورة من صوره يفضى إلى غاية واحدة هى خلاص الإنسان من ربقة الانحصار فى مطالب اليوم والساعة أو مطالب العمر كله المحدود بحياته الفردية [1] .

وإن المسلم ليستحضر وهو يؤدى عبادته الخاصة والعامة من وقت يقظته وهو يستقبل النهار إلى وقت استسلامه للنوم عند رقاده أنه يتعامل مع مالك الوجود الحى القيوم الذى لاتأخذه سنة ولانوم ، وثمرة هذه العبادة عائدة عليه وحده ، فهو يحب الطعام ، ولكن مع حبه له يؤثر به يتيما أو

---

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه للأستاذ العقاد ٩٣ - ٩٥

مسكينـا ، مستحضرا ربـه الـذى من أجله أطعم وقدم : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا ، إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولا شكورا إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا ، فوقاهم الله شر ذلـك اليوم ولقـاهم نضرة وسرورا ، وجـزاهم بما صبروا جنـة وحريرا . متكئين فيها على الأرائك لايرون فيها شمسا ولازمهريرا ، ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا ، ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قوارير قوارير من فضة قدروها تقديرا ، ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا ، عينا فيها تسمى سلسبيلا ، ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثـورا ، وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا ، عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا ، إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا ﴾ [1] .

إن الإنسـان بالإيمان والعبادة كائن كريم يحيا على خير ويموت على خير : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ [2]، ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لايشركون بى شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ . [3]

---

(١) سورة الانسان : ٨ ـ ٢٢
(٢) سورة النحل : ٩٧
(٣) سورة النور : ٥٥

الفصـل الثـالث
ميزان قبـول العبـادة وسـموها

العبادة فى الإسلام خضوع وحب لله تبارك وتعالى ، وكلما تحقق هذا كلما تحققت العبودية الكاملة تعالى ، وكلما تحققت العبودية لله تكمل محبة العبد لربه ، وتعظم محبة الله لعبده يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حُبا لله** ﴾ . [1] فمن أحب غير الله كانت فيه عبودية لذلك الغير بقدر حبه له ، لأن من أحب شيئا خضع له ، وسارع فيما يراه مقربا إليه ، راغبا فى دوام محبته له ، فمن أحب الدنيا وما فيها من جاه ومال ، ومنصب ورياسة ، ونساء وشهوات ؛ أصبح أسيرا ذليلا لما أحب . ولايتحرر من رق هذه الأمور إلا من عرف الله ، وأحبه وآثره على كل شىء سواه ، وإذا أحب شيئا آخر فإنما يحبه لله فتكون محبة الشىء الآخر تبعا ؛ لأنها لو كانت أصلا لكانت باطلة ؛ فالله تعالى الخالق البارىء ، المنعم المتفضل الذى له الخلق والأمر هو الجدير بالحب ، وفى حب الله التحرر المطلق من عبودية غيره . ولكن كيف نحب الله ،؟ وكيف نعبده ؟ وماهو الميزان الصحيح لقبول العبادة ؟ .

إن محبة الله تعالى وعبادته وهى الغاية من الخلق والوسيلة لإصلاحهم ، وهى مطلوبة لذاتها وآثارها ، لاتكون صحيحة ولامقبولة إلا إذا وقعت على الوجه المشروع ، وقصد بها العابد وجه الله وحده .

وإذن فالميزان الصحيح لقبول العبادة وسموها أن تكون موافقة لما شرع الله تعالى ، ويراد بها الله تعالى وحده ، ويجمع ذلك قوله تعالى : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولايشرك بعبادة ربه أحدا** ﴾ . [2]

---

(١) سورة البقرة : ١٦٥

(٢) سورة الكهف : ١١٠

وقال سبحانه : ﴿ . . **بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولاخوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ . [1]

قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية : [2] بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن أى : من أخلص العمل لله وحده لاشريك له كما قال تعالى : ﴿ **فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن** . . ﴾ . الآية وقال أبو العالية والربيع : بلى ، من أسلم وجهه لله يقول : من أخلص لله . وقال سعيد بن جبير : بلى ، من أسلم : أخلص وجهه قال : دينه وهو محسن . أى اتبع فيه الرسول ﷺ . فإن للعمل المتقبل شرطين : **أحدهما** أن يكون خالصا لله وحده ، **والآخر** أن يكون صوابا موافقا للشريعة ، فمتى كان خالصا ، ولم يكن صوابا لم يتقبل ولهذا قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « **من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد** » رواه مسلم من حديث عائشة ـ رضى الله عنها ؛ فعمل الرهبان ومن شابههم ، وإن فرض أنهم مخلصون فيه لله فإنه لايتقبل منهم حتى يكون ذلك متابعا للرسول ﷺ ـ المبعوث إليهم وإلى الناس كافة ، وفيهم وفى أمثالهم قال الله تعالى : ﴿ **وقدمنا إلى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا** ﴾ وقال الله تعالى : ﴿ **والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا** ﴾ . [3] وقال تعالى : ﴿ **وجوه يومئذ خاشعة ، عاملة ناصبة ، ، تصلى نارا حامية ، تسقى من عين آنية** ﴾ . [4] وروى عن أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه أنه تأولها فى الرهبان ـ كما سيأتى .

وأما إن كان العمل موافقا للشريعة فى الصورة الظاهرة ، ولكن لم

---

(١) سورة البقرة : ١١٢
(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٥٤ ـ ١٥٥
(٣) سورة النور من آية ٣٩
(٤) سورة الغاشية ٢ ـ ٥

يخلص عامله القصد لله فهو أيضا مردود على فاعله ، وهذا هو حال المرائين ، والمنافقين . كما قال تعالى : ﴿ **إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولايذكرون الله إلا قليلا** ﴾ [1] وقالى تعالى : ﴿ **فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراءون ويمنعون الماعون** ﴾ . [2]

ولهذا قال تعالى : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولايشرك بعبادة ربه أحدا** ﴾ . [3] وقال فى هذه الآية الكريمة : ﴿ **بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن** ﴾ وقوله : ﴿ **فله أجره عند ربه ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون** ﴾ . [4] ضمن لهم تعالى على ذلك تحصيل الأجور وأمنهم مما يخافونه من المحذور ، **فلا خوف عليهم** فيما يستقبلونه ﴿ **ولاهم يحزنون** ﴾ على ما مضى مما يتركونه كما قال سعيد بن جبير : ﴿ ولاخوف عليهم ﴾ يعنى فى الآخرة ﴿ ولاهم يحزنون ﴾ يعنى لايحزنون للموت . أهـ

وإخلاص العمل لله وحده وكونه على وفق شريعته التى جاء بها سيدنا محمد ﷺ هو طريق الرشاد ، وعلامة الرشد ، ودليل القبول ، وسبب كل عطاء لأن العبادة فى الإسلام ليست هيكلا ، أو شبحا ، لاحياة فيها ولاروح ، إنها ليست الصور الباهتة الخافتة التى تؤدى (تسديد خانة) أو كعادة من العادات المألوفة . ولكنها نور يتصل بالقلب ؛ فيحييه ويغذيه ، ويملؤه بالأسرار من جميع نواحيه ، فيصبح العمل كله لله ومع الله ، ومن أجل الله ، وما أطيب عيش من هذا حاله ، يتعامل مع ربه بالإخلاص والعمل الصالح ، فتسهل عليه الطاعات ، وتتيسر له سبل الخير فيجد لذة الطاعة ويذوق حلاوة الإيمان ، ويزداد لله حبا ، وبه تعلقا ، وله خشية ، فإن أراد

---

(١) سورة النساء : ١٤٢

(٢) سورة الماعون : ٤ ـ ٧

(٣) سورة الكهف : ١١٠

(٤) سورة البقرة : ١١٢

شيئا سأله فإن أعطاه رضى ، وإن منعه رضى أيضا ؛ لأنه يعلم ـ وقد جرب المعاملة مع ربه ـ أنه لم يمنعه بخلا ـ حاشاه ـ وإنما منعه لحكمة .

والإخلاص ـ ومحله القلب ـ هو الذى توزن به الأعمال ، وتعرف به أقدار الرجال والله جل جلاله لاينظر إلى المظاهر والأشكال ، وإنما ينظر إلى القلوب والأعمال ففى الحديث الذى رواه مسلم : « **إن الله لاينظر إلى أجسامكم وصوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم** » فمن كان قلبه نظيفا ، وسريرته طيبة ، ونيته خالصة ، فقد دل ذلك على صحة قصده ، وسلامة وجهته ، وحسن عبادته ، وعدم إشراكه مع الله غيره فى العبادة فلا يلاحظ الناس ، ولايغتر بثنائهم ، فلا يصلى ليقال عنه إنه من الصالحين ، أو يتصدق ليقال إنه من الأسخياء الكرماء ، ولا يقاتل ليقال إنه شجاع ، وبطل ، إن من يفعل ذلك : من يقصد غير الله بعمله يرد الله عليه أعماله لأنه سبحانه أغنى الأغنياء عن الشرك ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه** . . ﴾ الآية . ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء** ﴾ [1]، ﴿ **قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين ، وأمرت لأن أكون أول المسلمين ، قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم ، قل الله أعبد مخلصا له دينى فاعبدوا ماشئتم من دونه قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين ، لهم من فوقهم ظلل من النار ، ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده ياعباد فاتقون ، والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب** ﴾ . [2]

فأصحاب العقول السليمة والفطر المستقيمة هم الذين عبدوا الله

---

(١) سورة البينة : من ٥

(٢) سورة الزمر : ١١ ـ ١٨

مخلصين له الدين فكانت حياتهم ومماتهم ، وصلواتهم ، وصدقاتهم ، وحجهم ، وصيامهم وجميع أعمالهم على غاية من الصلاح والخير ، وكان الله مقصودهم ، إليه يتوجهون بما يعملون ، فأثمر لهم الإخلاص مزيدا من الحب والود ، والصفاء والنقاء فكانوا من خيرة عباد الله : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه** ﴾ (١)

ولحرص الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ على الخير كانوا يسألون **رسول الله** ـ ﷺ **ويستنصحونه** ، **فهذا معاذ بن جبل** ـ رضى الله عنه ـ حين بعثه **رسول الله** ﷺ إلى اليمن ، قال : **يارسول الله** أوصنى ، قال عليه الصلاة والسلام : « **أخلص نيتك يكفك العمل القليل** » . (٢)

وقد تسيطر على **الإنسان شواغل وشهوات** تنسيه ربه فينسيه الله نفسه . وقد حذر الله سبحانه المؤمنين من ذلك فقال : ﴿ **ولاتكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون** ﴾ . (٣) والفاسقون هم الذين خرجوا عن طاعة الله ، **ومن خرج عن طاعة الله هلك ، ومن لم يطع الله أطاع غيره** ، وكثيرا مايخالط النفوس من الشهوات الخفية مايفسد عليها تحقيق محبتها لله وعبوديتها له ، وإخلاص دينها كما قال شداد ابن أوس : يا بغايا العرب ، يا بغايا العرب ، إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية . وقيل لأبى داود السجستانى : وما الشهوة الخفية ؟ قال : حب الرياسة .

وعن كعب بن مالك عن النبى ﷺ أنه قال : « **ما ذئبان جائعان**

---

(١) سورة البينة : ٧ ـ ٨

(٢) رواه الحاكم

(٣) سورة الحشر : ١٩

أرسلا فى زريبة غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه »[1]

فبين ﷺ أن الحرص على المال والشرف فى إفساد الدين لاينقص عن إفساد الذئبين الجائعين لزريبة الغنم ، وذلك بين ، فإن سليم الدين لايكون فيه هذا الحرص ، وذلك أن القلب إذا ذاق حلاوة عبوديته لله ، ومحبته له لم يكن شىء أحب إليه من ذلك حتى يقدمه عليه ، وبذلك يصرف - عن أهل الإخلاص لله - السوء والفحشاء ، كما قال تعالى : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ .[2]

فإن المخلص لله ذاق من حلاوة عبوديته لله مايمنعه من عبوديته لغيره ، ومن حلاوة محبته لله مايمنعه عن محبة غيره ، إذ ليس عند القلب السليم أحلى ، ولا ألذ ، ولا أطيب ، ولا أسر ، ولا أنعم ، من حلاوة الإيمان المتضمن عبوديته لله ومحبته لله وإخلاصه الدين له ، وذلك يقتضى انجذاب القلب إلى الله ، فيصير القلب منيبا إلى الله ، خائفا منه راغبا راهبا ، كما قال تعالى : ﴿ من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ﴾ ؛[3] إذ المحب يخاف من زوال مطلوبه ، أو عدم حصول مرغوبه ؛ فلا يكون عبد الله ومحبه إلا بين خوف ورجاء كما قال تعالى : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا ﴾ .[4] .

وإذا كان العبد مخلصا لله اجتباه ربه ، فأحيا قلبه واجتذبه إليه ، فيصرف عنه ما يضاد ذلك من السوء والفحشاء ، ويخاف من حصول ضد ذلك ، بخلاف القلب الذى لم يخلص لله فإن فيه طلبا وإردة وحبا مطلقا

---

(١) رواه الترمذى : وقال : حديث حسن صحيح .
(٢) سورة يوسف : من٢٤
(٣) سورة : ق : ٣٣
(٤) سورة الإسراء : ٥٧ .

فيهوى كل مايسنح له ، ويتشبث بما يهواه كالغصن ، أى نسيم مربه عطفه وأماله ، فتارة تجتذبه الصور المحرمة وغير المحرمة فيبقى أسيرا عبدا لمن لو اتخذه هو عبدا له لكان ذلك عيبا ونقصا وذما .

وتارة يجتذبه الشرف والرئاسة ؛ فترضيه الكلمة ، وتغضبه الكلمة ويستعبده ، من يثنى عليه ولو بالباطل ويعادى من يذمه ولو بالحق .

وتارة يستعبده الدرهم والدينار ، وأمثال ذلك من الأمور التى تستعبد القلوب والقلوب تهواها ، فيتخذ إلهه هواه ، ويتبع هواه بغير هدى من الله [1] ﴿ **ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لايهدى القوم الظالمين** ﴾ . [2]

فمن اتبع طريق الله واستجاب لله على منهاج وطريق رسول الله ﷺ الذى عبد الله مخلصا له الدين حتى أتاه اليقين ، فإنه يكون عند الله من المهتدين الفائزين ومن لم يتبع هذا المنهج الصحيح ؛ انحرف وسار فى طريق الضلال ، واتبع هواه بغير هدى من الله ، فضل عن سواء السبيل وكان عاقبة أمره خسرا .

لذا ينبغى للإنسان أن يتكشف أغوار نفسه ، ويتعرف على حوافزها وبواعثها إلى الأعمال ، ومقدار استجابتها وتلبيتها وخضوعها لسلطان الله القوى القاهر ، مالك الملك ومدبر الأمر ، فإن كانت تحس بسلطان الله ورقابته ، وعظمته وهيمنته ، وقيامه على كل نفس بما كسبت عند كل عمل ، وبإزاء كل حركة فقامت بالأعمال سليمة صحيحة ، وقصدت بها الله وحده ، فقد سلكت طريق الأخيار ورجت النجاة فتمحى الأعراض ، وتذهب المآرب وتصبح الأعمال فى النفس مستمدة من بواعثها لا من

---

(١) العبودية لابن تيمية ، صفحة : ١٣٨ - ١٤١

(٢) سورة القصص : ٥٠

نتائجها ، فالباعث والمحرك والحافز عبادة الله ، ومرضاة الله والعمل لله ، ولتكن النتيجة بعد ذلك ما تكون . ومتى كان الأمر كذلك سلمت العبادة من المشوبات ، وماتت الأغراض ، وأزيلت من الطريق المعوقات فيتحقق الإخلاص الذى هو إقرار بالمعبود ، والتوجه إليه بكل حركة فى الجوارح والحياة ، وكل خلجة فى النفس أو خاطرة فى القلب ، أو همسة فى الضمير ، وعند هذا الحد تمحى من القلب الأغلال التى تكبله ، والقيود التى تعطله ، والأطماع التى تذله وتغلقه فيصبح حرا من كل رق ، عزيزا من كل ذل ، طليقا من كل قيد ، أيقن حقا أنه لانافع ولاضار ولامعطى ولامانع ، ولامعز ولامذل إلا الله تعالى ، وهذه الحرية والقوة شملت كيان الإنسان كله عقلا وروحا ووجدانا وعاطفة وبدنا فتوجه إلى الله بكل شىء وهذا هو الطريق .

ينبغى أن يكون العمل كله لله ومن أجله ، وقد كفاك كل مخلوق ، وجلب لك كل خير . وإياك أن تميل عنه بموافقة هوى ، وإرضاء مخلوق فإنه يعكس عليك الحال ويفوتك المقصود ، وفى الحديث : « **من أرضى الناس بسخط الله عاد حامده من الناس ذاما** » ، وأطيب العيش عيش من يعيش مع الخالق سبحانه .

فإن قيل كيف يعيش معه ؟ قلت : بامتثال أمره واجتناب نهيه ومراعاة حدوده والرضا بقضائه ، وحسن الأدب فى الخلوة ، وكثرة ذكره ، وسلامة القلب من الاعتراض فى أقداره ، فإن احتجت ، سألته ، فإن أعطى ، وإلا رضيت بالمنع ، وعلمت أنه لم يمنع بخلا ؛ وإنما نظر لك ، ولاتنقطع عن السؤال لأنك تتعبد به ، ومتى دمت على ذلك رزقك محبته ، وصدق التوكل عليه ، فصارت المحبة تدلك على المقصود ، وأثمرت لك محبته إياك فتعيش عيش الصديقين . [1]

(١) صيد الخاطر لابن الجوزى ، صفحة : ٤٥١

والإخلاص يحتاج إلى صدق فيه ، وصبر عليه ، ووقوف دائم بباب الله ؛ يسأل الإنسان ربه بصدق ؛ أن يرزقه سلامة قلبه ، وصحة قصده ، وأن يتم عليه نعمة الإخلاص ، وحسن النية ؛ فيعمل صالحا ولايشرك بعبادة ربه أحدا ، فالإخلاص أساس القبول ، والنية الصالحة ضرورية لصلاح الأعمال يقول عليه الصلاة والسلام : « **إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء مانوى ؛ فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه** . »[1]

واعلم أن الطريق الموصلة إلى الحق سبحانه ليست مما يقطع بالأقدام ، وإنما تقطع بالقلوب ، والشهوات العاجلة قطاع الطريق ، والسبيل كالليل المدلهم ، غير أن عين الموفق بصر فرس لأنه يرى فى الظلمة كما يرى فى الضوء ، والصدق فى الطالب : منار إن وجد يدل على الجادة ، وإنما يتعثر من لم يخلص ، وإنما يمتنع الإخلاص ممن لايراد فلاحول ولا قوة إلا بالله [2]

وإذا كانت الطريق الموصلة إلى الله لاتقطع بالأقدام ، وإنما تقطع بالقلوب ؛ فوجب إصلاح هذه القلوب بحبس قطاع الطريق ، والتغلب على شهوات النفوس والسير فى طريق المجاهدة : ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين** ﴾ [3]

وإن من تأمل نعم الله عليه ، وإحسانه إليه ، وتفضيله على سائر المخلوقات وتقديمه على سائر الحيوانات ، كان مقتضى الأدب ، وواجب العرفان بالجميل ، أن يقدم ربه فى قلبه على كل المطلوبات فلا يقصد

---

(١) متفق عليه

(٢) صيد الخاطر لابن الجوزى صفحة : ٣٥٥

(٣) سورة العنكبوت : ٦٩

بالعمل غيره ، ولايتوجه بالعبادة لسواه .

قال الأعمش حدثنا أبو عمارة مولى بنى هاشم عن شهر بن حوشب قال : جاء رجل إلى عبادة بن الصامت ، فقال : أنبئنى عما أسألك عنه ، أرأيت رجلا يصلى ، يبتغي وجه الله ، ويحب أن يحمد ، ويحج ، يبتغى وجه الله ، ويحب أن يحمد . فقال عبادة : ليس له شىء ؛ إن الله تعالى يقول : **« أنا خير شريك فمن كان له معى شريك فهو له كله لاحاجة لى فيه »** .

وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن عبد الله بن الزبير حدثنا كثير بن زيد عن رباح ابن عبد الرحمن بن أبى سعيد الخدرى عن أبيه عن جده قال : كنا نتناوب رسول الله ﷺ ، فنبيت عنده تكون له الحاجة ، أو يطرقه أمر من الليل ، فيبعثنا ، فكثر المحبوسون ، وأهل النوب ، فكنا نتحدث ، فخرج علينا رسول الله ﷺ فقال : **« ماهذه النجوى ؟»** قال : فقلنا : تبنا إلى الله ، أى نبى الله ، إنما كنا فى ذكر المسيح وفرغنا منه . فرغنا منه . فقال : **«ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم من المسيح عندى ؟»** قال : قلنا : بلى قال : **«الشرك الخفى أن يقوم الرجل يصلى لمكان الرجل »** . (١)

قال الله تعالى : ﴿ قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ، ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ، بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾ . (٢)

ذكروا فى سبب نزولها : مارواه ابن أبى حاتم وغيره عن ابن عباس رضى الله عنهما أن المشركين ـ من جهلهم ـ دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم ، ويعبدوا معه إلهه ؛ فنزلت : **﴿ قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها**

(١) تفسير ابن كثير جـ ٣ صفحة ١٠٨

(٢) سورة الزمر : ٦٤ ـ ٦٦

الجاهلون ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴾ . وهذه كقوله تعالى : ﴿ **ولو أشركوا لحبط ماكانوا يعملون** ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ **بل الله فاعبد وكن من الشاكرين** ﴾ . أى : أخلص العبادة لله وحده لاشريك له أنت ومن معك وصدق به .

وبالتأمل فى قوله تعالى : ﴿ **قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون** ﴾ نرى الاستنكار فى وجوه الجهلة ـ والجهل أساس كل بلاء ـ يعقبه تحذير من الشرك وعواقبه السيئة من حبوط الأعمال ، وحصول الخسران ، وإذا كان الأنبياء وهم المبرأون والمصونون أن يتطرق إليهم شىء من ذلك ، يبدأ بهم فمن سواهم من أتباعهم أولى .

كذلك فى جانب الأمر يقول الله تعالى : ﴿ **يأيها النبى اتق الله ولاتطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيما واتبع مايوحى إليك من ربك ، إن الله كان بما تعملون خبيرا ، وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا** ﴾ (1)

فقد نبه رسوله ﷺ وهو أعظم الناس صلة بالله ، وأكثرهم له تقوى وخشية ومعرفة ، فأولى بذلك غيره من أتباعه ، والمصدقين به ، والمقتدين به والسائرين على نهجه ، وفى ختام التحذير من الشرك فى سورة الزمر الأمر بالتوحيد ، توحيد الله فى العبادة ، والشكر على التوفيق ؛ لسلوك طريق الهداية ومعرفة الله ، وإفراده بالعبادة ، والشكر على آلائه التى لاتحد ، ونعمائه التى لاتحصى ؛ ولاتعد : ﴿ **بل الله فاعبد وكن من الشاكرين** ﴾ .

من ذلك نرى أن من أفرد الله بالعبادة وأحسنها ، وأخلص لله فيها وجاء بها على طريق الصواب ، هو المستقيم المهتدى الموفق الناهج النهج الصحيح السليم وهو الفائز فى الدنيا والآخرة .

---

(1) سورة الأحزاب : ١ ـ ٣

أما من انحرف بالعبادة عن هذا النهج السوى ، والطريق المستقيم فقد تسبب لنفسه فى سوء العاقبة ، ووخيم النتيجة .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه ، رجل استشهد ؛ فأتى به فعرفه نعمه ، فعرفها قال : فما عملت فيها : قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال : هو جرىء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار .

ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن ، فأتى به فعرفه نعمه ، فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ، ولكنك تعلمت ؛ ليقال عالم ، وقرأت القرآن ؛ ليقال هو قارىء ، فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار .

ورجل وسع الله عليه ، وأعطاه من أصناف المال فأتى به ، فعرفه نعمه ، فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : ماتركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك . قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار» (١) .

وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء ، أى ذلك فى سبيل الله ، فقال رسول الله ﷺ : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا ؛ فهو فى سبيل الله » . (٢)

وعن جابر بن عبد الله الأنصارى رضى الله عنهما قال : كنا مع النبى

---

(١) رواه مسلم

(٢) متفق عليه

ﷺ فى غزاة فقـال : « **إن بالمـدينة لرجالا ، ما سرتم مسيرا ، ولاقطعتم واديا ، إلا كانوا معكم . حبسهم المرض** » وفى رواية « **إلا شركوكم فى الأجر** » [1]

وعن **أنس رضى الله عنه** قال : رجعنا من غزوة تبوك مع النبى ﷺ فقال : « **إن أقواما خلفنا بالمدينة ، ما سلكنا شعبا ، ولا واديا ، إلا وهم معنا . حبسهم العذر** » [2].

عن أبى يزيد معن بن يزيد بن الأخْنَسِ رضى الله عنهم ـ وهو وأبوه وجـده ، صحـابيون ـ قال : كان أبى يزيد أخـرج دنانير يتصدق بها ، فوضعها عند رجل فى المسجد ؛ فجئت ، فأخذتها ، فأتيته بها ، فقال : والله ما إياك أردت ، فخاصمته إلى رسول الله ﷺ فقال : « **لك مانويت يازيد ولك ما أخذت يامعن** » . [3]

ومن حديث سعد بن أبى وقاص : « **وإنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ماتجعل فى امرأتك . . .** » [4].

وقد ذكرت عدة أحاديث ، وكان بعضها يكفى فى الشواهد على ما نريد من آثار الإخلاص ، وحسن النية فى العمل ثوابا ، وفى عدم توافرها ضياع الثمـرة والنتيجـة : والـذى دعانى إلى الإكثار من الشواهد ؛ أنها بمجمـوعهـا دلت على جملة من الأعـمال من الجهـاد ، وتعلم العلم ، وتعليمه ، وقراءة القرآن ، والصدقة ، والنفقة ، وأن ما كان منها لله فهو المقبـول ، ومـا كان منهـا لغـيره ، فهـو المردود ، وربنا سبحانه غنى عن العالمين ، لاتنفعه عبادة العابدين ، وطاعة الطائعين ، ولا تضره معصية المنحـرفـين ، ولا كفـر الكافرين : ﴿ **إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ولا**

---

(١) رواه مسلم
(٣،٢) رواه البخارى
(٤) متفق عليه

يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعلمون إنه عليم بذات الصدور ﴾ [1] .

وفى الحديث : « من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده لا شريك له وأقام الصلاة وآتى الزكاة فارقها والله عنه راض » . [2]

وإذا كانت العبادة الصحيحة المقبولة هى التى تستجمع شرطين أساسيين :

١ـ الإخلاص الكامل لله .

٢ـ الصواب وهو الموافق للشريعة .

وسيدنا عمر رضى الله عنه كان يقول : اللهم اجعل عملى كله صالحا ، واجعله لوجهك خالصا ، ولا تجعل لأحد فيه شيئا .

فما السبيل لتصحيح الإخلاص ؟ وما الطريق ليكون العمل صوابا وموافقا للشريعة ؟ وكيف السبيل ليكون العمل ـ كما دعا سيدنا عمر ـ كله صالحا ، ولوجه الله خالصا ، وليس لأحد فيه شىء ؟

والجواب : السبيل موجود ، وهو فى غاية الوضوح ، والمنهج مرسوم ، وهو فى منتهى الدقة ، والطريق محدود ، ومعلوم ، ومسلوك ، سلكه رسول الله ﷺ وعبّده ، وسلكه أصحابه ، والسلف الصالح بعدهم ، ولا يزال المنهج والسبيل والطريق معبّدا ومهيأ ومفتوحا للطالبين ، والراغبين ، إن هذا المنهج حدد فى أول مانزل من القرآن : ﴿ أقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم ﴾ [3] .

---

(١) سورة الزمر : ٧

(٢) رواه ابن ماجة والحاكم .

(٣) سورة العلق : ١ ـ ٥

وفى الآيات تنويه بمكانة العلم ووسائله ، من كتابة وقراءة ، لأنها سلم المعرفة ، وطريق الوصول إلى العلم ، ومنذ نزول : اقرأ باسم ربك ، تحددت الوجهة وعرف الطريق ، الذى يتلقى الإنسان منه ، ويسير فيه على هداه ، إن كل شىء تبدأ فيه باسم ربك : قراءة ، كتابة ، علما ، عملا باسم ربك .

ومادام كل شىء باسمه فهو الإله الواحد المعبود الذى منه نتلقى هدايتنا ، ونسلك طريقنا إليه على علم ومعرفة ، على اتباع لا ابتداع ، وقد كانت حياة رسول الله ﷺ طوال ثلاث وعشرين سنة ، منذ اقرأ إلى أن تم نزول القرآن ، وأجاب رسول الله - ﷺ - إلى الرفيق الأعلى ، وحياته كلها لله : ﴿ **قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين** ﴾ . (١) وشريعته ﷺ قائمة على العلم ، داعية إليه فى كل أمر من أمور الدين ، أو أمور الحياة ، مايفعل فباسم الله ، ومايترك باسم الله ، فى الجانب الإيجابى : ﴿ **اقرأ باسم ربك** . . ﴾ وفى الجانب السلبى : ﴿ **ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق** ﴾ . (٢) ومادام فسقا فقد وجب اجتنابه لأنه باطل وغير صحيح ، وهكذا كل مالم يقصد به وجه الله . أما ماقصد به وجه الله فهو الصحيح الحسن ، لأنه باسم الله وكلمة (ربك) فى الآية : تشير إلى التربية التى تولى الله بها عباده ، وإذن فلا ثقة فى علم لم يكن من عند الله ، وذلك فيما يتعلق بالشريعة والعقيدة ، والأخلاق ، فالمصدر الذى منه نتلقى ، والنبع الذى عنه نأخذ هو الله وحده .

وهذا هو الحق الذى يتمشى مع المنطق العقلى ، ومع الفطرة السليمة ، فالله هو الذى خلق وأمد ، وهو الذى ربى وعلم ، فالبداية

---

(١) سورة الأنعام : ١٦٢

(٢) سورة الأنعام : من ١٢١

باسمه ، والسير إليه باسمه ، وفى النهاية إليه المصير .

وقد كانت حياة الرسول ﷺ - كلها لله وبالله ، وفى الله ، فى كل عمل واتجاه فى كل حركة وسكون ، فى كل نوم ويقظة ، فى كل إشارة وعبارة ، لقد تكيفت حياة رسول الله ﷺ - كلها على هذا الأساس : القمة فى حسن العمل باسم الله والقمة فى الإخلاص فى إرادة الله بهذا العمل ، وهذا هو الميزان الصحيح لصحة العبادة وقبولها .

وإذن فعلى من أراد أن يزن العبادة ، أو أن يتعرف إلى الميزان الصحيح لقبول العبادة ؛ فعليه بالعلم بما كان عليه رسول الله - ﷺ ، فهو العلم الحقيقى الذى جمع بين الجانبين النظرى والعملى ، ومن هنا فكل عبادة لم تكن قائمة على الاقتداء برسول الله ﷺ ، وعلى اتباع ماجاء به ، فهى غير مقبولة ؛ لنقصانها وعدم إرادة الله بها ؛ لذا ؛ جعل الله تعالى الطريق إلى محبته ، والوصول إليه فى اتباع رسول الله سيدنا محمد ﷺ : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ، قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لايحب الكافرين** ﴾ (١) ﴿ **من يطع الرسول فقد أطاع الله** ﴾ . (٢) ولا يتم الإيمان حتى يحكم رسول الله - ﷺ ، ويرتضى حكمه ويسلم له تسليما . ﴿ **فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما** ﴾ . (٣)

لذا ، جعله الله قدوة وأسوة : ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا** ﴾ (٤) .

ولنسق هنا ما لخصه ابن القيم فى كتابه زاد المعاد فى هدى رسول الله

---

(١) سورة آل عمران : ٣٠ - ٣١
(٢) سورة النساء : ٦٥
(٣) سورة النساء : ٨٠
(٤) سورة الأحزاب : ٢١

ﷺ فى ذكر الله ، قال رحمه الله : كان النبى ﷺ أكمل الخلق ذكرا لله عز وجل ، بل كان كلامه كله فى ذكر الله وآلائه ، وكان أمره ونهيه وتشريعه للأمة ذكرا منه لله ، وإخباره عن أسماء الرب وصفاته وأحكامه وأفعاله ووعده ، ووعيده ، ذكرا منه له ، وثناؤه عليه بآلائه ، وتمجيده ، وتحميده وتسبيحه ذكرا منه له ، وسؤاله ودعاؤه إياه ورغبته ورهبته ذكرا منه له ، وسكوته وصمته ذكرا منه له بقلبه وكان ذاكرا لله فى كل أحيانه ، وعلى جميع أحواله ، وكان ذكـره لله يجرى مع أنفاسه قائما وقاعدا ، وعلى جنبه وفى مَشْيِه وركوبه ، وسيره ونزوله ، وكان إذا استيقظ قال : « **الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور** » . وقالت عائشة : كان إذا هب من الليل كبر عشرا ، وهلل عشرا ثم قال : « **اللهم إنى أعوذ بك من ضيق الدنيا ، وضيق يوم القيامة عشرا** » ، ثم يستفتح الصلاة .

وقالت أيضا : كان إذا استيقظ من الليل ، قال : « **لا إله إلا أنت سبحانك اللهم أستغفرك لذنبى ، وأسألك رحمتك ، اللهم زدنى علما ، ولاتزغ قلبى بعد إذ هديتنى وهب لى من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب** » . [1]

وأخبر أنه من استيقظ من الليل فقال : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير ، الحمد لله وسبحان الله ، ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ثم قال : اللهم اغفر لى ، أودعاء آخر استجيب له ، فإن توضأ وصلى قبلت صلاته » . [2]

وقال ابن عباس ـ **رضى الله عنه** ـ ليلة مبيته عنده ﷺ : إنه لما استيقظ رفع رأسه إلى السماء وقرأ العشر الآيات الخواتيم من سورة آل عمران : ﴿ إن

(1) ذكره أبو داود
(2) ذكره البخارى

فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ﴾ إلى آخر الآيات . .

ثم قال : « اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت الحق ، ووعدك الحق ، وقولك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لى ماقدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت أنت الله لا إله إلا أنت ، ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم » .

وقد قالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ : كان إذا قام من الليل قال : « اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك أنت تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم » ، وربما قالت : كان يفتتح صلاته بذلك .

وكان إذا أوتر أوختم وتره بعد فراغه يقول : « سبحان الله القدوس » (ثلاثا) ويمد بالثالثة صوته .

وكان إذا خرج من بيته ، يقول : « بسم الله توكلت على الله ، اللهم إنى أعوذ بك أن أضل أو أضل ، أو أزل أو أُزَل ، أو أظلِم أو أُظلَم ، أو أجهل أو يجهل علىّ»

وقال ﷺ : «من قال إذا خرج من بيته : بسم الله ، توكلت على الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، يقال له : هديت ، وكفيت ، ووقيت ، وتنحى عنه الشيطان»

قال ابن عباس رضى الله عنهما ـ ليلة مبيته عنده ـ : إنه خرج إلى صلاة الفجر وهو يقول : « اللهم اجعل فى قلبى نورا واجعل من خلفى نورا ، ومن أمامى نورا ، اللهم اجعل من فوقى نورا ، اللهم اجعلنى نورا » .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ماخرج رجل من بيته إلى الصلاة فقال : اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاى إليك ، فإنى لم أخرج بطرا ولا أشرا ولا رياء ولا سمعة ، وإنما خرجت اتقاء سخطك ، وابتغاء مرضاتك ، أسألك أَنْ تنقذنى من النار ، وأن تغفر لى ذنوبى فإنه لايغفر الذنوب إلا أنت إلا وكل الله به سبعين ألف ملك يستغفرون له ، وأقبل الله عليه بوجهه حتى يقضى صلاته » وذكر أبو داود عنه ـ ﷺ ـ أنه كان إذا دخل المسجد قال : « أعوذ بالله العظيم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم . فإذا قال ذلك قال الشيطان : حفظ منى سائر اليوم » .

وقال ﷺ : « إذا دخل أحدكم المسجد فليصل وليسلم على النبى ﷺ ـ وليقل : اللهم افتح لى أبواب رحمتك ، فإذا خرج فليقل اللهم إنى أسألك من فضلك » وذكر عنه أنه كان إذا دخل المسجد ، صلى على محمد وآله وسلم ثم يقول : « اللهم اغفر ذنوبى وافتح لى أبواب رحمتك » ، فإذا خرج صلى على محمد وآله وسلم ثم يقول : «اللهم اغفر لى ذنوبى وافتح لى أبواب فضلك » .

وكان إذا صلى الصبح جلس فى مصلاه حتى تطلع الشمس ، يذكر الله عز وجل ، وكان يقول إذا أصبح : « اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا ، وبك نحيا وبك نموت وإليك النشور » حديث صحيح . وكان يقول : « أصبحنا وأصبح الملك لله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شئ قدير ، رب أسألك خير هذا اليوم ، وخير ما بعده ، وأعوذ بك من شر هذا اليوم ، وشر ما بعده ، رب أعوذ بك من الكسل ، وسوء الكبر ، رب أعوذ بك من عذاب فى النار ، وعذاب فى القبر ، وإذا أمسى قال : أمسينا وأمسى الملك لله . . » ذكره مسلم .

وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : مرنى بكلمات أقولهن إذا أصبحت وإذا أمسيت قال : « **قل اللهم فاطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة رب كل شئ ومليكه ومالكه أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشركه ، وأن أقترف على نفسى سوءا أو أجره إلى مسلم** » قال : « **قلها إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك** » (حديث صحيح) . ثم ذكر أحاديث كثيرة فى هذا الباب

وكان - ﷺ - إذا استجد ثوبا سماه باسمه عمامة أو قميصا أو رداء ثم يقول : « **اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه ، أسألك خيره وخير ما صنع له ، وأعوذ بك من شره ، وشر ما صنع له** » (حديث صحيح) . ويذكر عنه - ﷺ - أنه كان يقول إذا انقلب إلى بيته : « **الحمد لله الذى كفانى وآوانى ، والحمد لله الذى أطعمنى وسقانى والحمد لله الذى منّ علىّ ، أسألك أن تجيرنى من النار** » .

وثبت عنه فى الصحيحين أنه كان يقول عند دخوله الخلاء : « **اللهم إنى أعوذ بك من الخبث والخبائث** » وكان إذا خرج من الخلاء يقول : « **غفرانك** » ويذكر عنه أنه كان يقول : « **الحمد لله الذى أذهب عنى الأذى وعافانى** » ذكره ابن ماجه .

وثبت عنه أنه وضع يده فى الإناء الذى فيه الماء ، ثم قال للصحابة توضأوا باسم الله ، ويذكر عنه أنه كان يقول عند رؤية الهلال : « **اللهم أهلّه علينا بالأمن والإيمان ، والسلامة والإسلام ، ربى وربك الله** » قال الترمذى : حديث حسن .

وكان إذا وضع يده فى الطعام قال : « **باسم الله** » . ويأمر الأكلة بالتسمية ويقول : « **إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله تعالى فإن نسى أن يذكر اسم الله فى أوله فليقل باسم الله فى أوله وآخره** » حديث صحيح .

وهكذا كانت حياة النبى ﷺ كلها متكيفة بهذا الهدى على هذا

النحو ، كل شيء باسم الله ، تلقيا وتنفيذا ، سلبا وإيجابا ، وهذا يوصلنا إلى أنه ﷺ كان فى قمة العبادة ، وفى قمة العلم ، لأن الله تعالى هو الذى تولى تعليمه . **﴿ وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما ﴾** (١) . **﴿ فاعبده ، وتوكل عليه ﴾** (٢) **﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾** (٣) .

العلم والعبادة :

والعلم الذى تسمو به العبادة هو العلم بالله ، بمعرفته ، بالدلالة عليه ، بالإيمان به والاستجابة لهدايته ، وهل الإيمان إلانوع من العلم بالله ، محوطا بالحقائق والدلائل العقلية والنظرية ؟ ولذلك جعل الله العلم فى مقابل الكفر ، الذى هو جهل وانحراف وضلال : **﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب ﴾** (٤) .

والتكذيب لا يقوم على علم وحجة وبرهان ، وإنما يقوم على جهل وأوهام وأكاذيب ، لاسند لها من العقل ، ولا أساس لها تقوم عليه من حجة ، يقول الله تعالى : **﴿ قل أرأيتم ما تدعون من دون الله ﴾** ـ أى ما تعبدون من دونه ـ **﴿ أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السماوات ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين ﴾** (٥) . **﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾** (٦) .

---

(١) سورة النساء : من ١١٣
(٢) سورة هود : من ١٢٣
(٣) سورة الحجر : ٩٩
(٤) سورة الزمر : من ٩
(٥) سورة الأحقاف : ٥ ـ ٦
(٦) سورة الأحقاف : ٤

ولكن دعـوة الإسلام التى تقوم على العلم الصحيح والحجة البالغة والـبرهـان الساطع والهدى والكتاب المنير، هذه الدعوة التى تتلاقى مع الفطرة والعقل السليم ﴿ ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ، ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولاهدى ولا كتاب منير وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ، ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور ، ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصـدور ، نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ، ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لايعلمون ، لله ما فى السماوات والأرض إن الله هو الغنى الحميد ﴾ (١) .

والجهـل يفسـد الفـطرة ، ويسـد منافذ العقل ، فيجعله لايستفيد ولا يقبل حجة ولكنه يسير وراء التقليد الأعمى ، وبالتأمل فى الآيات الآتية من سورة فاطر يرى العاقل بل الذى لديه ذرة من العلم والعقل أن الذى خلق وأمد هو النافع والضار ، وهو السميع المستجيب ، وأن غيره لن يخلق ذبابة ولا يدفعها إذا سلبت منه شيئا : ﴿ إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لايستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾ (٢) .

وآيات سورة فاطر : ﴿ والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ، ثم جعلكم أزواجا وماتحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب ، إن ذلك على الله يسير ﴾ . (٣)

---

(١) سورة لقمان :٢٠ - ٢٦

(٢) سورة الحج : من ٧٣

(٣) سورة فاطر : ١١

اختلاف ثواب العبادة وأسبابه

وإذْ فرغنا من بيان مابه صحة العبادة أو بطلانها ، وما به قبولها أوردها فقد وجب علينا أن نتحدث عن اختلاف ثواب العبادة وأسبابه ، وأن نتعرض لبحث الأسرار التى تكمن وراء ظفر بعض العباد من أعمالهم بالأجر الكثير ، وحرمان غيرهم من القليل ، فإن فى الإجابة عن هذه التساؤلات خيرا كثيرا ، ونفعا عظيما من حيث إنَّ فيها وضع العبادات فى مواضعها الصحيحة ، وبيان الأسباب التى بها يحصل الأجر العظيم ، وبغيرها يقل الثواب على نحو من التفصيل والوضوح لينتفع بها كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

والواقع أن هذا الموضوع متشعب الأطراف ، متعدد الجهات ، ولكننا هنا نحاول جمع حقائقه ، وبيان دقائقه بقدر الإمكان ، والله المستعان وعليه التكلان . فنقول : لقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقائق إجمالا فى مواطن عدة :

يقول سبحانه وتعالى : ﴿ ومالكم ألا تنفقوا فى سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض لايستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلا وعد الله الحسنى ، والله بما تعملون خبير ﴾ . [1] وقال تعالى : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا ، فيضاعفه له أضعافا كثيرة ؟ والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون ﴾ . [2]

وقال : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت

---

(١) سورة الحديد : ١٠

(٢) سورة البقرة : ٢٤٥ .

سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم ﴾ (١) .

وقال : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لايظلمون ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ ذلك أمر الله أنزله إليكم ، ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا ﴾ . (٣) وقال : ﴿ إن تبدوا الصدقات فنعما هى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير ﴾ . (٤)

وقال : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ (٥) .

وقد تولت السنة الشريفة بسط ذلك وإيضاحه ، وإعطاء أمثلة له ، ونماذج متنوعة عليه .

عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : « جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يارسول الله أى الصدقة أعظم ؟ قال : أن تصدق وأنت صحيح شحيح ، تخشى الفقر ، وتأمل الغنى ، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت : لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان » (٦) .

وقال : « الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذى الرحم ثنتان : صدقة وصلة » (٧) . وقال : « أفضل الصَّدَقة الصَّدَقةُ على ذى الرحم الكاشح » . (٨)

---

(١) سورة البقرة : ٢٦١ .
(٢) سورة الأنعام : ١٦٠
(٣) سورة الطلاق : ٥
(٤) سورة سورة البقرة : ٢٧١ .
(٥) سورة الحجرات : ١٣
(٦) رواه البخارى فى كتاب الزكاة
(٧) رواه الترمذى وقال : حديث حسن .
(٨) رواه الطبرانى فى الكبير ـ قاله المنذرى .

وسئل عن أفضل الصدقة فقال : ﴿ جهد مقل أو سر إلى فقير ﴾ [1]

فقد أشار النبى ﷺ فى هذه الأحاديث الصحيحة أن الصدقة قد يختلف ثوابها وفضيلتها باختلاف حال المتصدق ، فليس من تصدق وهو فى حال صحته ورجاء الحياة ، والرغبة فى الدنيا ، وتأميل الغنى ، وخشية الفقر ، كمن تصدق بعد أن سرى فى أوصاله الضعف والوهن ، وفرغ من الدنيا وفرغت منه ، بل عاين أمارات الموت ، وشاهد نذرة .

وقد يختلف لأسباب أخرى أشارت هذه الأحاديث إلى معظمها ، برغم أنها فى ميدان واحد وعبادة واحدة ، وهى الصدقة وسيأتى بيانها فى مناسباتها بعون الله وتوفيقه .

وخلاصة الحقائق التى يمكن حصرها فى هذا المجال المهم من مجالات فقه العبادة ، تتلخص فى أن العبادة يختلف ثوابها كثرة وقلة ، إما باختلاف أحوال العابدين ، أو باختلاف الصورة التى تقع عليها العبادة ، أو باختلاف الأزمنة أو الأمكنة ، أو باختلاف العاطفة التى تدفع إليها ، وتحث عليها .

وحق علينا وقد أبرزنا هذه القواعد التى تضمنتها الشريعة ، أن نبينها ونجليها ونسوق لها من الشواهد والأمثلة ما يعين على النفع بها ، والاستفادة منها ،

فأما اختلاف ثواب العبادة باختلاف أحوال العابدين فأمثلته كثيرة :

١ ـ **منها** : أن العبادة مع مجاهدة النفس ، ومغالبة الشواغل أفضل من العبادة التى يعين عليها الطبع ، ولذلك كانت عبادة الشاب لها مزيتها وفضيلتها لمجاهدته نفسه وهواه فى طاعة مولاه ، وكان العدل ممن يملك أسباب الجور أزكى وأنمى ، وكانت العفة ممن تيسرت له أسباب الغواية ، أفضل من عفة العاجز الضعيف . . . وهكذا .

---

(١) رواه أحمد

يقول عليه الصلاة والسلام : « **سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة ربه ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله . ورجل ذكر الله تعالى خاليا ففاضت عيناه** » . [1]

ب ـ ومنها : أن العبادة مع حضور القلب وخشوعه ، أزكى وأفضل من عبادة من يلهو عنها ، ويسهو فيها ، وذلك لأن الأصل فى العبادة إنما هو التوجه القلبى ، وأما الأعضاء والجوارح فآلات وأدوات ، ولذلك فإن للخشوع ثمراته العاجلة فى تيسير العبادة على العابد ، وتحبيبها إلى نفسه ، قال تعالى : ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين** ﴾ [2] يعنى هذا أنها شاقة وشديدة على من يباشرها وإنما تكون سهلة ميسرة ، محببة مستعذبة على من خشع قلبه فيها دون غيره . قال عليه الصلاة والسلام : « **ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل** » [3] وقال : « **إن الرجل ليصلى الصلاة لا يكتب له سدسها ولا عشرها ، وإنما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها** » [4] وقال : « **من صام رمضان إيمانا واحتسابا ، غفر له ما تقدم من ذنبه** » . [5] . وقال : « **كم من صائم ليس من صيامه إلا الجوع والعطش** » . [6] وقال : « **من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه** » [7]

---

(١) متفق عليه .
(٢) سورة البقرة : ٤٥ .
(٣) قال العراقى : لم أجده مرفوعا .
(٤) رواه أبو داود والنسائى .
(٥) رواه البخارى .
(٦) رواه النسائى وابن ماجه .
(٧) رواه البخارى

جـ ـ ومن ذلك أن الصلاة مع الطمأنينة ، وتوفية الركوع والسجود ، أفضل وأرجى للقبول مما دونها لأن الله سبحانه شرع لنا فى هذه الصلاة صفات ، وألوانا من القراءة والذكر ، وشرع لنا كذلك أوضاعا خاصة من القيام والقعود ، والركوع والسجود ولكل منها حكمته التى إن عرفنا جانبا منها ، فما نستطيع ولا يستطيع أحد الإحاطة بكنهها نقول : لكل منها حكمته فى تصفية القلوب ، وتزكية النفوس ، وتثبيت الإيمان والفوز بنعمة التسليم للملك الديان ، وبالتالى الظفر بأعظم الأجر ، وأجزل العطاء وذلك أن من أتم تم له الأجر ، ومن نقص وبخس فإن أجره ينقص بمقدار ما نقص ، والناس مختلفون فى إخلاصهم وخشوعهم ، وحضور القلوب منهم ومختلفون كذلك فى طمأنينة الجوارح وإيفاء الركوع والسجود ، ومختلفون كذلك فى مدى فقه ما يعملون ، وتدبر القرآن الذى يتلون والتأثر بالأذكار التى يرددون ، وكل هذه أمور تسبب التفاوت فى العطاء عند من قال : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره**). (1) وقال : ﴿ **إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجراً عظيما** ﴾. (2)

ومن هذا القبيل ما هو معروف ومسلم من أن الدعاء من القلوب التى امتلأت رغبة ورهبة من الله أفضل من دعاء الغافلين ، وسؤال المقصرين ، فإنه : ﴿ **إنما يتقبل الله من المتقين** ﴾ (3).

ومن ذلك مباشرة تلاوة القرآن فى الصلاة وغيرها بتدبر وحضور القلب ، وعزم على الوقوف عند حدوده ، والتخلق بما ينصح به ، والفرار مما يحذر منه قال تعالى : ﴿ **كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب** ﴾ (4)

---

(1) سورة الزلزلة : ٧
(2) سورة النساء : ٤٠
(3) سورة المائدة : ٢٧
(4) سورة ص : ٢٩

د ـ ومن **أظهر** ما يستدل به على فضيلة العمل ، أن يكون له تأثير طيب على نفس صاحبه ، ومسلكه يحضه على الخيرات ، وينفره من الشرور والقبائح ، قال تعالى : ﴿ **اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة ، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون** ﴾ . فقد بين سبحانه أن الصلاة المقبولة التى يرضاها الله هى التى تنهى صاحبها عن رذيلة البخل ، وتنهاه عن سائر المنكرات وبها وفيها وبتأثيرها يذكر ربه عز وجل : يذكر جلاله وعظمته ، وعفوه وإحسانه ورحمته ، أما العبادة التى لا تثمر فى ذلك ثمرتها ، ولا تكف صاحبها عن الآثام ، ولا تحجزه عن اللغو والحرام فقد بين عليه الصلاة والسلام شأنها فقال : « **من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له** » (١) بل ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك فقال : « **من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا** » . (٢)

ـ **الصدقة فى حال الصحة** والأمل فى الحياة أفضل منها فيما لو وقعت فى حال المرض وتوقع الوفاة ، وقد مر بنا حديث رسول الله ﷺ وقد سئل أى الصدقة أعظم ؟ أنه قال : « **أن تصدق وأنت صحيح شحيح ، تخشى الفقر ، وتأمل الغنى** . . . الحديث » وقد مر. (٣)

ـ **الصدقة فى حال الإعسار** أفضل من صدقة من لا يتصدق إلا من اتساع حال وفراغ ، بال . وقد مر بنا كذلك حديث المصطفى عليه الصلاة والسلام وقد سئل أى الصدقة أفضل ؟ قال : « جهد مقل أو سر إلى فقير » (٤) .

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٤١٤
(٢) تفسير ابن كثير ٣/٤١٤
(٣) رواه البخارى فى الزكاة .
(٤) رواه أحمد

وقد قال الله تعالى : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعـدت للمتقين . الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين) [١] .

فقد بيَّنتْ هاتان الآيتان أن هذه الصفات السامية من اتصف بواحدة منها فقد صار من المتقين ، ووصل إلى مقام الإحسان ، وأنه محبوب من الله ومن أحبه الله أحبه أهل السماء ، وأهل الأرض وسائر الخلق .

قال رسول الله ﷺ : « إذا أحب الله عبدا نادى جبريل - يا جبريل إنى أحب فلانا فأحبه ، قال : فيحبه جبريل ، ثم ينادى جبريل فى أهل السماء : إن الله يحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول فى الأرض . . . الحديث » . [٢]

وفى آفاق مكارم الأخلاق يرفع الله سبحانه وتعالى قدر نبيه الكريم بهذه الوصية الجامعة التى يوصينا بها النبى عليه الصلاة والسلام كذلك فيقول : « أوصـانى ربى بتسـع أوصيكم بهن : أوصـانى بالإخـلاص فى السر والعلانية ، والعدل فى الرضا والغضب ، والقصد فى الغنى والفقر ، وأن أصل من قطعنى وأعطى من حرمنى ، وأعفو عمن ظلمنى ، وأن يكون نطقى ذكرا ، وصمتى فكرا ونظرى عبرا » .

وهذا الحديث يسترشد بضوء الآية الكريمة : ﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور﴾ [٣] .

- بين عليه الصلاة والسلام أنه إذا كانت صلة الرحم من الفضائل

---

(١) سورة آل عمران : ١٣٣ ، ١٣٤

(٢) رواه البخارى وغيره من حديث ابى هريرة رضى الله عنه

(٣) سورة الشورى : ٤٣

الواجبة ، فإن صلة رحمك إذا قطعوك هى التى تعد صلة حقا ؛ لأن لها المـزية على غيرهـا : يقـول عليه الصـلاة والسـلام : « **ليس الـواصـل بالمكافىء ، ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها** » . [(١)]

أى ليس الـواصل الذى يظفر بعظيم الأجر ، وجزيل الثواب ، من يكافىء رحمه وصلا بوصل ، لكن الواصل الكامل هو الذى يصل أرحامه الذين يقطعونه ، ويجفونه ، لأن هذا يجاهد نفسه ، ويغالب نوازعها ، وهو مقام المختار عليه الصلاة والسلام ، ومقام من كان له بالمختار ﷺ أسوة حسنة .

ـ العمـل من أصحـاب رسول الله ﷺ عموما أفضل من عمل من بعدهم ، وأعمال السابقين منهم أزكى من أعمال اللاحقين .

قال سبحـانه وتعالى : ﴿ **لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى** ﴾ . [(٢)] وقال عليه الصلاة والسلام : « **لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه** » . [(٣)]

ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا إنَّ عمل أبى بكر الصديق رضى الله عنه أزكى وأفضـل من غيره فإنـه أسبق السـابقـين ، وأقرب المقربين ، وسيد الصديقين ، وأسخى المنفقين والمتصدقين ، وإذا كان رسولنا ﷺ قد تفرد بمقام رفيع فى العبادة ، حتى كأنه العبد دون سواه ، كما سبق أن ذكرناه وأوضحناه فإن الصديق رضى الله عنه قد انفرد بمقام فريد فى الصحبة ، لم يتح لغيره حتى كأنه الصاحب دون سواه قال الله تعالى : ﴿ **إلا تنصروه فقد نصره الله إذْ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذْ هما فى الغار إذْ يقول**

---

(١) رواه البخارى

(٢) سورة الحديد : ١٠

(٣) رواه البخارى .

لصاحبه : **لا تحزن إن الله معنا** ﴾ . [1]

وهـذا الصاحب الوحيد هو الصديق الأكبر بإجماع المفسرين واتفاق كلمـة المسلمـين . وقـد قال عليه الصلاة والسلام كذلك : « **هل أنتم تاركوا - لى - صاحبى** » [2] . يقصد الصديق رضى الله عنه .

العبـادة من المتقـين أعظم أجراً ، وأبقى أثرا وأطيب ثمرا من عبادة غيرهم ، وهذا لأن التقوى تصحح الأعمال وتصلحها ، وتباركها من جميع جهاتها ، من ظاهرها ، وباطنها ، من لبها وحقيقتها من هيكلها وشكلها ، من ثمرتها وما يترتب عليها .

قال تعالى : ﴿ ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً ﴾ . [3]

وقال : ﴿ **من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون** ﴾ [4] .

★ ★ ★

---

(١) سورة التوبة : ٤٠

(٢) البخارى : ح : ٣٦٦١ .

(٣) سورة الطلاق : ٥

(٤) سورة البقرة : ٢٤٥

٢ - اختلاف ثواب العبادة باختلاف الأزمنة

كما أن فى النـاس الفـاضـل المبارك الذى تشع بركته على من حوله فتبشرهم بالخير ، وتحثهم عليه ، وتنفرهم عن الشر ، وتنقـذهم منه ، والذى ليس له فيمن حوله هذه الآثار الطيبة ، فكذلك الأزمنة : من السنين والشهـور والليالى والأيام : فيها المبارك الذى يتضاعف خيره ، ويتضاءل شره ، وفيها ما يقل خيره .

فمن حيث السنين والأعصر ، كان عصر النبى ﷺ خير العصور على الإطلاق لما كان فيه من بركات الوحى والقرآن ، والهدى والعرفان ، والتقى والإيمان ، والرضا والتسليم ، وإحقاق الحق ، وإبطال الباطل ، وإظهار الشريعـة ، وكبـح جنود الشيطان : من عبدة النيران ، وعبدة الأوثان ، وعبدة الصلبان ، ودحض حجتهم ، وكسر شوكتهم ، تلك البركات التى لم يكن مثلها لنبى من الأنبياء ، ولا فى أى عصر من العصور وإشارة إلى هذا المعنى يقسم الله جل جلالـه بعصره عليه الصلاة والسلام فيقول : ﴿ **والعصر ، إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** ﴾ . (١) كما يقسم سبحانه وتعالى بحياته ﷺ لأنها سبب بركة هذا العصر العظيم بما تم فيه من إكمال الدين ، وإتمام النعمة على المؤمنين وتنزل النصر العظيم والفتح المبين ، فيقول : ﴿ **لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون** ﴾ . (٢)

ومن حيث الشهور فإن لشهر رمضان بركاته ونفحاته : ففيه طائفة من العبـادات التى ترقى بالعبد وتؤهله لمرتبة أعلى من الصلاح والتقى ، فيه

---

(١) سورة العصر

(٢) سورة الحجر : ٧٢

الصيام الذى يقول عنه الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه فيما يرويه عن ربه : « **كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لى ، وأنا أجزى به** » . [1] وفيه القيام ولـه أجـره وفضيلتـه ، وفيه تلاوة القرآن الكريم ولها منزلتها العظيمة فى تربية النفوس ، وتزكيتها ، ومعالجة القلوب وتصفيتها ، والسمو بالأرواح وترقيتها ، ثم له أكبر الأثر فى تعليم المرء وتذكيره بما يرضى الله له أن يأتيه ، وما يكره أن يقارفه ، وكل هذه عبادات تترك آثارها على غرس الأخلاق الكريمة والصفات الفاضلة فى نفس العبد .

وبحسبنا أن نذكر ذلك الحديث المروى فى الصحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « **كان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير ، وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان جبريل يلقاه كل ليلة من ليالى رمضـان فيدارسـه القـرآن فلرسـول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة** » . [2] يقـول عليه الصـلاة والسـلام : « **من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه ، ومن قام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه** » . [3]

وإذا كان رمضان من أفضل الشهور ، بل هو أفضلها على الإطلاق فإن أفضل لياليه **ليلة القدر** ، فإن فضلها على سائر الليالى ، كفضل آية الكرسى على غيرها من آى القرآن الكريم .

وهـذه الليلة فى العشر الأواخـر منـه ، أو هى فى الـوتر من العشر الأواخر ، أو هى ليلة السابع والعشرين .

وكـونها ليلة السـابـع والعشرين أشهـر ، وكونها فى الوتر من العشر الأواخر ، وأنها متنقلة فى هذه الليالى من عام إلى عام أظهر محجة وأقوى

---

(١) رواه الشيخان

(٢) رواه الشيخان

(٣) رواه الشيخان

حجة ، والأخذ به وقوف مع البصيرة والدليل ، واهتداء إلى سواء السبيل .
يقـول سبحـانه وتعالى : ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة القدر ، وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر ، تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام هى حتى مطلع الفجر ﴾ .[(١)]

والواقع أن العشر الأواخر من شهر رمضان المبارك أيام فاضلة كريمة يضـاعف فيهـا الثواب ، ولذلك كان رسول الله ﷺ يجتهد فى عبادة ربه والإقبال عليه فيها أكثر مما يجتهد فى غيرها .

فعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : كان رسول الله ﷺ يجتهد فى رمضان ما لا يجتهد فى غيره ، وكان يجتهد فى العشر الأواخر ما لا يجتهد فى غيره .[(٢)]

وقالت : كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر الأواخر من رمضان أحيا الليل كله ، وأيقظ أهله ، وجد وشد المئزر)[(٣)] قال أهل الحديث : قد يكون المراد بقولها رضى الله عنها أحيا الليل أنه أحيا الليل كله فعلا ، وقد يكون المراد إحياء معظم الليل على طريق المبالغة ، وهو المعتمد ، ومرادها بإيقاظ أهله إيقاظ نسائه رضى الله عنهن للصلاة ، واغتنام هذه الأوقات المبـاركة التى تتنزل فيها الرحمة وتعم البركات ، وفى الصلاة والضراعة ، الأمن من الفتن والمحن ، والنجـاة من الشـدائد والأهوال ، والفوز برضا الكبير المتعال ، وأما الجد ، فهو الاجتهاد فى العبادة كما سبق فى حديثها . وأمـا شد المئـزر فقـد يكون على ظاهره ، وأنه يشد مئزره حقيقة جدا فى العبادة ، والراجح أن المراد به اعتزال النساء ، والتفرغ الكامل للعبادة ، فإنه كان عليه الصلاة والسلام يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى كان

---

(١) سورة القدر ـ بتمامها
(٢) متفق عليه
(٣) متفق عليه

العام الذى توفى فيه اعتكف لربه عشرين يوما ، وقد قال تعالى : ﴿ **ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد** ﴾ (١) .

ـ **ثم من الشهور الفاضلة ذات الشأن عند الله ، والعمل فيها له** فضيلته الظاهرة الأشهر الحرم : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب . وقد حذر الله فيها من الفسوق والعصيان فقال : ﴿ **إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حرم ذلك الدين القيم ، فلا تظلموا فيهن أنفسكم** ﴾ . (٢)

وعن مجيبة الباهلية عن أبيها أو عمها أنه أتى رسول الله ﷺ ، ثم انطلق فأتاه بعد سنة ، وقد تغيرت حاله وهيئته ، فقال يا رسول الله : أما تعرفنى قال : (ومن أنت) ؟ قال : أنا الباهلى الذى جئتك عام الأول ، قال : « **فما غيرك وقد كنت حسن الهيئة** » ؟ قال : ما أكلت طعاما منذ فارقتك إلا بليل ، فقال رسول الله ﷺ : « **عذبت نفسك** » ثم قال : « **صم شهر الصبر ويوما من كل شهر** » . قال : زدنى فإن بى قوة ، قال : « **صم يومين** » قال : زدنى ، قال : « **صم ثلاثة أيام** » قال : زدنى قال : « **صم من الحرم ، واترك ، صم من الحرم واترك** » وقال : بأصابعه الثلاث فضمها ثم أرسلها . (٣)

وقد قال عليه الصلاة والسلام : « **أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم ، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل** » . (٤)

ـ **ومن الأوقات الفاضلة كذلك عشر ذى الحجة ، والأحاديث صريحة** فى فضله ، وتضاعف ثواب العمل فيه ، قال عليه الصلاة والسلام : « **ما**

---

(١) سورة التوبة . ٣٦
(٢) سورة البقرة : ١٨٧
(٣) رواه أبو داود
(٤) رواه مسلم

من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله منه فى هذه الأيام » قالوا : ولا الجهاد فى سبيل الله ؟ قال : « ولا الجهاد فى سبيل الله إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشىء » .[1]

وقد قال الله تعالى : ﴿ والفجر وليال عشر ﴾ فهذه الليالى العشر هى عشر ذى الحجة فى رأى جمهرة المفسرين .

ومن الأوقات الفاضلة يوم عرفة وهو يوم مبارك عظيم يبرز المؤمنون فيه لربهم فى عرفات يدعون ويسألون ويتضرعون ، وفيه يحصل للمخلصين من ربهم خير عظيم ، إذ تغفر لهم ذنوبهم ، ويتوب عليهم ربهم ، ويبدل سيئاتهم حسنات .

قال عليه الصلاة والسلام وقد سئل عن صوم يوم عرفة « يكفر السنة الماضية والباقية »[2] وصومه لغير الحاج ، أما الحاج فالوقوف والدعاء والضراعة .

ومن الأيام الفاضلة التى يسن صيامها والتقرب إلى الله فيها يوم عاشوراء .

وهو اليوم العاشر من شهر المحرم ـ فعن أبى قتادة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن صوم يوم عاشوراء فقال : « يكفر السنة الماضية » . وقد كان رسول الله ﷺ يصومه ، ويحرص على ذلك ؛ ويأمر به أصحابه رضى الله عنهم . فعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن رسول الله ﷺ صام يوم عاشوراء وأمر بصيامه .[3] ويلحق بهذا اليوم فى الفضيلة يوم

---

(١) رواه البخارى
(٢) رواه مسلم
(٣) رواه مسلم

ومن هذه الليالى التى وقع فيها الأختلاف قديما ، ولا يزال قائما إلى الآن : ليلة النصف من شهر شعبان ، وقد وردت فيها طائفة من الأحاديث الشريفـة عنى بإيراد كثير منها الإمام الحافظ زكى الدين المنذرى فى كتابه النافع (الترغيب والترهيب) .

فمن ذلك مارواه البيهقى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « قام رسـول الله ﷺ من الليل فصـلى ؛ فأطـال السجـود حتى ظننت أنه قد قبض ، فلما رأيت ذلـك قمت حتى حركت إبهـامـه فتحـرك ، فرجعت فسمعته يقول فى سجوده : «أعوذ بعفوك من عقابك ، وأعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بك منك إليك ، لا أحصى ثناء ، عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » ، فلما رفع رأسه من السجود وفرغ من صلاته قال : «ياعائشة أو ياحميراء : أظننت أن النبى ﷺ قد خاس بك ؟ » قلت : لا والله يارسـول الله ، ولكنى ظننت أنـك قبضت لطول سجـودك فقال : « أتدرين أى ليلة هذه » ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : « هذه ليلة النصف من شعبان ، إن الله ـ عز وجل ـ يطلع على عباده فى ليلة النصف من شعبان ، فيغفر للمستغفرين ويرحم المسترحمين ، ويؤخر أهل الحقد كما هم » . (١)

فبينما يقبل هذه الأحاديث جماعة من أهل الحديث ، ويرون أن طرقها وإن كانت ضعيفة فإنها بانضمام بعضها إلى بعض تكتسب قوة ، وعلى رأس هؤلاء الإمـام البيهقى رحمـه الله ، فمنهم من يرى أنها أحـاديث شديدة الضعف وأن ضعفها لا ينجبر ، ولا تصلح لتقوية بعضها ببعض ، بل إن بعضهـا يوهن بعضا . أما الكلام فى العمل بها ، وصيام نهارها دعاء ،

---

(١) قال الحافظ المنذرى : رواه البيهقى عن طريق العلاء بن الحارث عنها ، وقال : هذا مرسل جيد ، يعنى أن العلاء لم يسمع من عائشة

ومن هذه الليالى التى وقع فيها الأختلاف قديما ، ولا يزال قائما إلى الآن : ليلة النصف من شهر شعبان ، وقد وردت فيها طائفة من الأحاديث الشريفـة عنى بإيراد كثير منها **الإمام الحافظ زكى الدين المنذرى فى كتابه النافع (الترغيب والترهيب)** .

فمن ذلك ماراوه البيهقى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « قام رسـول الله ﷺ من الليل فصـلى ؛ فأطـال السجـود حتى ظننت أنه قد قبض ، فلما رأيت ذلـك قمت حتى حركت إبهـامـه فتحـرك ، فرجعت فسمعته يقول فى سجوده : «**أعوذ بعفوك من عقابك ، وأعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بك منك إليك ، لا أحصى ثناء ، عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك** » ، فلما رفع رأسه من السجود وفرغ من صلاته قال : «**ياعائشة أو ياحميراء : أظننت أن النبى ﷺ قد خاس بك ؟** » قلت : لا والله يارسـول الله ، ولكنى ظننت أنـك قبضت لطول سجـودك فقال : « **أتدرين أى ليلة هذه** » ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : « **هذه ليلة النصف من شعبان ، إن الله ـ عز وجل ـ يطلع على عباده فى ليلة النصف من شعبان ، فيغفر للمستغفرين ويرحم المسترحمين ، ويؤخر أهل الحقد كما هم** ». [1]

فبينما يقبل هذه الأحاديث جماعة من أهل الحديث ، ويرون أن طرقها وإن كانت ضعيفة فإنها بانضمام بعضها إلى بعض تكتسب قوة ، وعلى رأس هؤلاء **الإمـــام البيهقى** رحمـه الله ، فمنهم من يرى أنها أحـاديث شديدة الضعف وأن ضعفها لا ينجبر ، ولا تصلح لتقوية بعضها ببعض ، بل إن بعضهـا يوهن بعضا . أما الكلام فى العمل بها ، وصيام نهارها دعاء ،

(١) قال الحافظ المنذرى : رواه البيهقى عن طريق العلاء بن الحارث عنها ، وقال : هذا مرسل جيد ، يعنى أن العلاء لم يسمع من عائشة

وصلاة ، وتلاوة لبعض سور القرآن فكالكلام فى يوم عاشوراء ،وأنه ماينبغى لأحد أن ينكر فيها على أحد .

غير أنـه ينبغى أن نبـين أن هنـاك أمورا ابتدعها الناس فيها ، من صلوات مخصـوصـة ، وألوان من الدعاء فى تقريرها ، وتسويغها تعسف ظاهر ، وفيها أخطاء ظاهرة ، ولكن لا ينبغى لمن وظيفته الدعوة إلى الله ، أن يصـد النـاس عن بيوت الله ، وعن الضراعـة إليه ، والإقبـال نحـو مرضاته ، ولو على وجه ضعيف ، وبخاصة وأن كثيرا من هذه العبادات هى من القربات والمستحبات فى سائر الأيام ، وعموم الأوقات ، وعلينا أن نعلم الناس أن يتعرفوا إلى ربهم ، بالفقه فى دينه قبل أن يسألوه وأن من تعرف إلى الله فى الـرخاء ، تعرف الله إليه فى الشدة ، وأنه : ﴿ **إنما يتقبل الله من المتقين** ﴾ . [1] والله ولى التوفيق والقبول ، وهو حسبنا ونعم الوكيل . . .

- **ومن الأوقات الفاضلة التى يفاض فيها العطاء** ، ويكشف فيها عن البصيرة الغطاء ، **الثلث الأخير من الليل** : وقد ورد فيه حديث صحيح : « **ينزل ربنا إلى السماء الدنيا إذا كان الثلث الأخير من الليل ، وذلك كل ليلة ، فيقول : ألا من سائل فأعطيه ، ألا من مسترزق فأرزقه ، ألا من مستغفر فأغفر له ، ألا كذا ألا كذا حتى يطلع الفجر** » . [2]

ومن الأوقات الفاضلة يوم الجمعة : وهو عيد أسبوعى للمسلمين ضل عنه اليهود والنصارى وهدانا الله إليه كما جاء فى الحديث الصحيح . قال عليه الصلاة والسلام : « **إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة فأكثروا علىّ من الصـلاة فيه ، فإن صلاتكم معـروضة علىّ** ، قالوا : يارسول الله وكيف

---

(١) سورة المائدة : ٢٧

(٢) متفق عليه .

تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت قال : يقول : بليت ، قال : **«إن الله حرم على الأرض أجساد الأنبياء »** . (١)

غير أن اغتنام فضيلة الجمعة إنما هو بالذكر وتلاوة القرآن ، والصلاة على النبى عليه الصلاة والسلام ، والمبادرة إلى أداء صلاة الجمعة ، بجميل الطهارة ، وحسن الهيئة ، وتطهير الظواهر والسرائر ، أما تخصيص ليلتها بالقيام من بين الليالى ، ويومها بالصيام من بين الأيام فقد ثبت النهى عنه .

العبادة فى أوقات الفتن والقلاقل والغفلات وإدبار الزمان لها شأنها عند الله قال عليه الصلاة والسلام : **« العبادة فى الهرْج كهجرة إلى »**(٢) وقال : **«بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا فطوبى للغرباء »** . (٣)

وقال : **« ذاكر الله فى الغافلين كالشجرة الخضراء بين الهشيم »** .

وقال : **« يأتى على الناس زمان للعامل فيه أجر خمسين منكم ، قالوا منا أو منهم ؟ قال : بل منكم »** . (٤)

ترتبط العبادات بأحوال وأوقات وأشخاص ومناسبات ، وكلما وقعت العبادات فى أكمل حالاتها كان ثوابها أكبر ، وأثرها أعظم وأدوم ، فليست الصلاة فى آخر الوقت كالصلاة فى أوله ، وليست صلاة الرجل للفريضة فى بيتـه كصـلاته لها فى المسجد ، وليست صلاة الفرد ، كصلاة الجماعة ، وهكذا . . والصدقة لها أحوال ، فليس من سارع إليها طيبة بها نفسه ، كمن تقاعس عنها ، وأكره عليها ، وكان ضيق الصدر ، كئيب النفس ،

---

(١) رواه أبو داود بإسناد صحيح .
(٢) رواه مسلم .
(٣) رواه مسلم
(٤) رواه ابو نعيم فى الحلية .

والصدقة على القريب أفضل من الصدقة على الفقير، وعلى القريب الكاشح أفضل من غيره، وصدقة السر أفضل من صدقة العلانية، لما فيها من البعد عن الرياء وحفظ كرامة المتصدق عليه، والصدقة فى سبيل الله أفضل من غيرها، وزكاة الفطر أفضل من غيرها من الصدقات.

قد يكون اختلاف ثواب العبادة راجعا إلى اختلاف الباعث عليها، والعاطفة التى تثيرها، وتدفع إليها.

إن العمل قد يكون ضئيلا، ولكن قد تدفع إليه عاطفة قوية من الرحمة والشفقة تجعله عملا مبرورا مشكورا، ترفع به درجات، وتحط به سيئات . . . وقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال: **«بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ثم خرج، وإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ منى، فنزل البئر فملأ خفه ماء، ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب، فشكر الله تعالى له فغفر له» قالوا: يارسول الله وإن لنا فى البهائم لأجرا؟ قال: «فى كل كبد رطبة أجر»**.

وفى رواية «إن امرأة بغيا رأت كلبا، فى يوم حار، يُطِيف ببئر، قد أدلع لسانه من العطش، فنزعت له موقها، فغفر لها به» (١)

وفى مقابل هذا: قد تحق كلمة العذاب على عبد، بسبب خطيئة ظاهرها أنها أمر يسير، ولكنها وزر كبير، وبلاء مستطير لدلالتها على قسوة القلب، وموت عاطفة الرحمة. يقول عليه الصلاة والسلام: **« دخلت امرأة النار فى هرة حبستها، لاهى أطعمتها وسقتها، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض»**. (٢)

---

(١) رواه مسلم (موقها): الموق: خف غليظ يلبس فوق الخف ج (أمواق).

(٢) رواه الإمام البخارى

ومن عامل الخلق بالإحسان أحسن الله إليه ، ومن شدد عليهم ، شدد الله عليه ، وقد قال الله تبارك وتعالى : ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾ . [١]

فمن عفا عن الناس ابتغاء عفو ربه عفا الله عنه ، ومن تجاوز عنهم التماسا لتجاوز ربه فاز بمطلوبه ، وظفر بمحبوبه ، ومن يسر على الناس يسر الله عليه . ومن فرج عنهم الكرب ، فرج الله عنه كرب يوم القيامة .

قال تعالى : ﴿ ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله ، وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم ﴾ [٢] وقال : ﴿ **فمن عفا وأصلح فأجره على الله** ﴾ . [٣]

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « كان رجل يداين الناس وكان يقول لفتاه : إذا أتيت معسرا ؛ فتجاوز عنه لعل الله أن يتجاوز عنا ، فلقى الله فتجاوز عنه » . [٤]

وعن حذيفة رضى الله عنه أنه قال : « أتى الله بعبد من عباده ، آتاه الله مالا فقال له : ماذا عملت فى الدنيا ؟ قال : ﴿ ولا يكتمون الله حديثا ﴾ . قال يارب آتيتنى مالك وكان من خُلُقى الجواز ، فكنت أتيسر على الموسر وأنظر المعسر ، فقال الله تعالى : أنا أحق بذا منك تجاوزا عن عبدى » . [٥]

فقال عقبة بن عامر وأبو مسعود الأنصارى رضى الله عنهما : هكذا سمعناه من رسول الله ﷺ .

---

(١) سورة الرحمن : ٦٠
(٢) سورة النور : ٢٢
(٣) سورة الشورى : ٤٠
(٤) متفق عليه
(٥) رواه مسلم .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « المسلم أخو المسلم : لا يظلمه ولا يسلمه ، من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا ، فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة . ومن يسر على معسر ؛ يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة . ومن ستر مسلما ؛ ستره الله فى الدنيا والآخرة . والله فى عون العبد ماكان العبد فى عون أخيه . ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما ؛ سهل الله له به طريقا إلى الجنة ، وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله ، يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده » .[1]

---

(١) متفق عليه .

الباب الثانى
العبادة والإيمان

سبق أن عرفنا أن العبادة فى الإسلام خضوع لله تبارك وتعالى ، وحب له ، وخشية منه ، وإذن وجب علينا أن نعرف ربنا الذى نخصه بالعبادة ، ونتوجه بها إليه وحده حتى تكون العبادة صحيحة متقبلة .

إن الإيمان بالله تبارك وتعالى خالقا للكون ، مدبرا لأموره ، وأنه واحد لا شريك له ولا نظير ، ولا ند ولا مثيل ، متفرد بصفات الكمال و الجلال والجمال ، منزه عن مشابهة خلقه فى الذات والصفات والأفعال ، وأنه بكل شىء عليم ، وعلى كل شىء قدير .

إن الإيمان بالله على هذا النحو الذى عرضناه ، والذى وضحه وفصله خاتم المرسلين صلوات الله وسلامه عليه هو الفيصل بين الإسلام والكفر ، وهو الفارق بين المسلمين الذين هم أولياء الرحمن ، والكافرين الذين هم أولياء الشيطان .

وعلى هذا الأساس الواضح يتوقف العمل ، وتتحدد الوجهة ، إذ ليس من أعرض عن أمر الله ، واتخذ إلهه هواه ، كمن استجاب لربه ، وأذ عن لأمره : ﴿ أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أم من يمشى سويا على صراط مستقيم ﴾ . (١)

والعبادة التى يرضاها الله ويتقبلها ويثيب عليها هى التى تقوم على اعتقاد صحيح ، وإيمان سليم .

وآيات القرآن الكريم متظاهرة على أنه لا يتقبل العمل إلا من مؤمن ، وأنه لا بد من الإيمان بمحمد ﷺ ، إذ الإيمان به إيمان بالرسل جميعا ، وأما الكفر به ، والإعراض عن دينه فهو كفر بالله ، وتفريق بين الله ورسله ، قال تعالى : ﴿ أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا

---

(١) سورة : الملك ٢٢ .

نكرا ، وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاءً الحسنى ، وسنقول له من أمرنا يسرا ﴾ [1] وقال : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقا ، وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا ﴾ . [2] .

وقال : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ، ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم ﴾ [3] وقال : ﴿ مثل الذين كفروابربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد ﴾ [4] .

من هذا الإيمان السليم الذى يستند إليه كل عمل ، وتقوم على أساسه كل عبادة يستمد المسلم طاقته ، ويحدد سيره ، ويبلغ بعون ربه غايته .

وهذا الإيمان متى استقر فى القلب ، وتمكن من الفؤاد ؛ ظهرت آثاره ، وأشرقت أنـواره ، رغبة فى الخير ، واندفاعا إليه ، وحبا لأهله ، وتضحية بالنفس والنفيس فى رفعة وإظهار ما يعتقد أنه حق ، وظهرت آثاره كذلك فى تخلق صاحبه بالأخـلاق الفـاضلة المحمـودة ، وطـرح الشيم المرذولة المذمومة ، ولذلك فحين يأمر القرآن المؤمنين أو ينهاهم فيما يعظهم به ، ويصلح به من شئـونهم فإنـه يخاطبهم ويحثهم على العمـل بعنوان كونهم مؤمنين ، يقول سبحانه : ﴿ يأأيها الذين استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم

(١) سورة الكهف : ٨٧ ، ٨٨ .
(٢) سورة النساء : ١٥٠ ، ١٥١
(٣) سورة محمد ﷺ : ١ ـ ٣ .
(٤) سورة أبراهيم : ١٨

لما يحييكم ﴾ (1) ، ويقـول : ﴿ ياأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا ﴾ (2)، ويقول : ﴿ ياأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾ (3)، ويقول : ﴿يا أيها الذين آمنو لا تقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم ﴾ (4)، ويقول : ﴿ ياأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا ﴾ . (5)

وكذلك يفعل رسول الله ﷺ فيما ينصح به المؤمنين فيقول : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت » (6) .

وتـأثـير الإيمان فى الحث على العمـل أمـر يدركه الإنسان بفطرته ، وجبلته ، ولعل أفضل من عبر عن هذا المعنى ذلك الشاعر المسلم شرف الدين البوصيرى ، صاحب المدائح النبوية المشهورة البردة ، والهمزية :

وإذا حلت الهدايةُ قلباً   نشطت فى العبادة الأعضاءُ

وقد قرن القرآن الكريم الإيمان بالعمل الصالح ، وهما مقترنان فلا يوجـد إيمان قوى لا يدفـع إلى عمل صالح ، ولا يوجد عمل يمكن أن يوصف بأنه صالح إلا إذا قام على إيمان صحيح ، واعتقاد سليم .

قال الله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم ، دعواهم فيها سبحانك

(1) سورة الأنفال : ٢٤
(2) سورة التحريم : ٦
(3) سورة المائدة : الاولى
(4) سورة الحجرات : الاولى
(5) سورة الأحزاب : ٤١ ، ٤٢
(6) متفق عليه .

اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ [1] وقال : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا ﴾ . [2] وقال : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا ﴾ [3] وقال : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا ﴾ [4] وقال : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ﴾ [5] وقال : ﴿ والعصر ، إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ [6].

والسؤل الآن هو : كيف نتوصل إلى هذا الإيمان الصحيح الذى يتفجر فى القلب فيحيى مواته ويجمع شتاته ؟ كيف نتوصل إلى الإيمان الصحيح ، الذى يتغلغل فى مسارب النفس ؛ فيطهرها ويزكيها ، وينفذ إلى معارج الروح ؛ فيسمو بها ويصفيها ؟

ثم ما هو الإيمان الذى نعنيه ؟ أهو الإيمان ، وكفى ؟ أم هو الإيمان بأى دين كان ؟ حقا كان أم باطلا ؟ خطأ كان أم صوابا ؟ أم أننا نعنى دينا بعينه هو دين الله الذى بشر به ، ودعا إليه خاتم الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام ؟

ولكى يكون الإنسان منصفا فإنه عليه أن يسائل نفسه : هل كان وجودى فى هذا الكون عبثا ؟ وهل أنا ذرة تائهة فيه ، شأنى كشأن أى دابة تدب على الأرض ، أو تطير فى جو السماء ؟ أو أن لى شأنا آخر يتناسب مع ما أوثرت به من خصائص ؟

---

(١) سورة يونس : ٩ ، ١٠
(٢) سورة الكهف : ٣٠
(٣) سورة الكهف : ١١٠
(٤) سورةمريم : ٩٦
(٥) سورة البينة : ٧
(٦) سورة العصر .

والجواب : الذى ترشد إليه الفطرة ، وتهدى إليه البصيرة : أن هذا الإنسان أجل وأكرم من أن يكون شيئا تافها ، وخلقا مهملا ، والله أجل وأحكم من أن يجعله كذلك ، وقد صوره فى أحسن صورة ، وأمده بطائفة من القوى المعنوية ، تخوله السيادة على العالم من حوله ، وإخضاعه والسيطرة عليه والانتفاع به ، وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا ، وأسجد له الملائكة ، وأرسل إليه الرسل ، وأنزل من أجله الكتب ، وآثره بالكثير من الخصائص .

إن الإنسان إذا أدرك سر خلقه ، وحكمة وجوده عرف نفسه فعرف ربه : عرف نفسه بضعفها وافتقارها ، وعجزها وحاجتها ، وعرف ربه قادرا غنيا قويا ، يطعم ولا يطعم يعطى ولا يحتاج ، غنى عما سواه ، مفتقر إليه جميع ما عداه .

بهذا تشهد الفطرة السليمة فى الإنسان ، ويقر العقل الصحيح فيه : ﴿ **أفى الله شك فاطر السماوات والأرض** ﴾ . ﴿**وهو يطعم ولا يطعم . . .** ﴾ .

ولكن إذا انحرفت الفطرة ، وعميت البصيرة ، وسيطرت الجهالة ، وتحكم فى المرء هواه حجب هذا المسكين عن نور الإيمان ، وصرف عن ساحة اليقين والعرفان ليدخل فى زمرة أولئك الذين قال الله فيهم : ﴿ **وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون** ﴾ [(١)] .

﴿ **وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم** ﴾ [(٢)]

---

(١) سورة فصلت : ٥

(٢) سورة الأنفال : ٣٢

أأمن هذا الجاحد بطش ربه وهو شديد ؟ أفيستطيع رد انتقامه إن وقع عليه ، أو دفع عذابه إن نزل به ؟

﴿ أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور ؟ أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير ، ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير ﴾ (١)

نعم : إن الإيمان بالله ، وبخلقه لهذا الكون وما فيه ومن فيه ، وتصريفه له وتدبيره لأموره ، وإحاطة علمه به وهيمنته عليه أمر تقره الفطرة الزكية ، ويشهد به العقل السليم المستقيم . لقد سئل أعرابى : كيف عرف ربه ، فقال : البعرة تدل على البعير ، والسير على المسير ، فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، ألا يدل ذلك على اللطيف الخبير ؟

والمشركون من العرب ، مع ماكانوا عليه من شرك ، وجهالة ، كانوا يعتقدون بوجود الله ، وكانوا يعبدون الأصنام اعتقادا منهم أنها تقربهم إليه ، وتشفع لهم عنده : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ (٢) ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ﴾ (٣) . ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ (٤) ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فى ما هم فيه يختلفون ﴾ (٥)

لذلك ؛ فلا مناص لنا إذا أردنا أن نعرف الإيمان الصحيح ، الذى

---

(١) سورة الملك : ١٥ ـ ١٨
(٢) سورة الزمر : ٣٨
(٣) سورة الزخرف : ٩
(٤) سورة يونس : ١٨
(٥) سورة الزمر : ٣

يرضاه الله ، والذى لا تشوبه شوائب الشرك والخطأ ، والذى ينجينا الله به فى الآخرة ، ويدخلنا بفضله فى زمرة أوليائه وأحبابه ، وتحصل لنا به الكرامات ، ونتبوأ باعتناقه ورعايته ، والحرص عليه وموالاة أهله روضات الجنات ، لا مناص لنا إذا أردنا أن نصل إلى هذا الإيمان من الاهتداء بهدى الدين ، والاعتصام بشريعة سيد المرسلين ، وخاتم النبيين محمد ﷺ ، فإنها شريعة الله الفذة الفريدة فى هذا الزمان ، فلقد نسخ الله بها الشرائع ، وجعل كتابها المهيمن على ما سبقه من الكتب ، وتكفل بحفظه من التصحيف والتحريف ، وبإبقائه برهانا ساطعا ، ودليلا قويا قاطعا على صحة رسالته ، وصدق رسوله .

إنه الكتاب الإلهى الوحيد الذى لم تنله ـ ولن تناله ـ يد التحريف والتبديل لأن الله بحكمته ـ وله الفضل والمنة ـ أخذ على نفسه أن يحفظه ، ولم يترك هذه المهمة لأحد من عباده قال تعالى : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون** ﴾ . (١)

أما ما سبقه من الكتب التى أنزلت من الله على رسله فقد لعبت بها أهواء البشر ، وحرفها الأحبار والرهبان ، واندثر منها ما اندثر ، واختفى ما اختفى ، وما بقى منها من حق فهو مشوب بالباطل ، ولم يكتف حملة هذه الأسفار بتحريف ألفاظها ، بل عمدوا إلى تشويه معانيها ، وطمسها ، وتأويلها على غير وجهها ـ يفعلون هذا الإفك ويصرون عليه ، مع علمهم بالحق الذى أنزل الله على عبده إيثارا للدنيا على الآخرة ، ولشهوة الجاه والرياسة على مرارة الحق وشدته .

والحق أنه لا وجه للمقارنة بين ديننا وبين ما يعتنقه الناس من أديان ، ولا بين كتابنا وما بأيدى الناس من كتب ، ولا بين شريعتنا ، وما يعرف

---

(١) سورة الحجر : ٩

البشر من شرائع ، ﴿ وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور ﴾ (١)

الله أكبرُ إن دينَ محمدٍ وكتابهَ أقوى وأقومُ قيلاً
لاتذكروا الكتبَ السوالفَ عنده طلعَ الصباحُ فأطْفِيءَ القِنديلاً (٢)

إن الأنبياء السابقين الذين كلفهم الله إبلاغ رسالته ، وأداء أمانته متفقون فى جوهر الدين ، وفى الدعوة إلى عبادة إله واحد ، لاشريك له ، ولارب سواه ، ولا معبود غيره .

يقول الله تعالى : ﴿ لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال : ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ (٣) . ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا قال ، ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾ (٤) . ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا قال : ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم ﴾ (٥) . ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم ﴾ (٦) . ﴿ وهل أتاك حديث موسى ، إذْ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ، فلما أتاها نودى ياموسى إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى ، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى : إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى ﴾ (٧) . ﴿ وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال : سبحانك ، مايكون لى أن أقول

---

(١) سورة فاطر : ١٩ - ٢١
(٢) البيتان من قصيدة طويلة للشاعر المسلم شرف الدين البوصرى صاحب البردة والهمزية فى مدح خير البرية .
(٣) سورة الأعراف : ٥٩
(٤) سورة الأعراف : ٦٥ .
(٥) سورة الأعراف : ٧٣ .
(٦) سورة الأعراف : ٨٥ .
(٧) سورة طه : ٩ - ١٤ .

ماليس لى بحق ، إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك ، إنك أنت علام الغيوب ، ماقلت لهم إلاما أمرتنى به : أن اعبدوا الله ربى وربكم ، وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد ، إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ (١) ويخبر الله سبحانه وتعالى بأن وحدانية الله والتوجه بالعبادة له وحده هى دعوة كل المرسلين ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ (٢).

ولقد نري : ـ جليا ـ أن الاعتقاد بوجود إله لهذا العالم ، مهيمن عليه ، عليم بما يجرى فيه ، قدير على تصريفه حسب مشيئته ، غالب على أمره ، يصح أن يأمر فتجب طاعته وينهى فلا تجوز مخالفته ، هذا النظر يجب أن يكون سابقا على النظر فى شريعة بعينها ، أصحيحة هى فيذعن لها ؟ أم غير صحيحة فيهمل أمرها ؟ أجل ! إنه لو لم يسبق إلى نفسك بأن لك خالقا خلقك فسواك ، وأنعم عليك ورباك ، ثم تقوم الأدلة على أن هذا الذى تشعر به حقيقة لاشك فيها ، وأمر ثابت لامناص منه ولا مفر ، وأنه إذا قدر على الإنعام عليك ، فهو قادر على السلب منك ، وإذا أنعم بالفضل ، فلا يؤمن منه البطش ، وأنك بين نعمته وبطشه عبد له ، وهو سيدك ، يصح أن يأمرك ؛ فيجب عليك أن تطيعه ، وينهاك، فلا يجوز أن تخالفه ، وأنك بطاعته تستحق رضاه ، وبمعصيته ؛ تتعرض لغضبه ، وأنه مطلع على مايكون منك ، وأنه بكل شىء عليم .

نقول : لو لم يسبق إلى نفسك هذا الشعور يتلوه الاعتقاد الجازم الذى تتجلى معالمه ، وتظهر دلائله ، ماكان لك أن تفكر فى شريعة تجب

---

(١) سورة المائدة ١١٦ ـ١١٨

(٢) سورة الأنبياء : ٢٥

طاعتها ، ودين يلزم الإذعان له ، فما كان لنفس أن تذعن إلا لمن تعلم أنه غامرها بنعمته ، وقاهرها بقدرته ، فترجوا رحمته ، وتخاف عذابه .

من أجل هذا ؛ كانت الدعوة إلى الشريعة مسبوقة أو مبدوءة بتوجيه النفوس إلى الاعتراف بخالقها الذى تشعر به فى وجدانها ، وتقرير هذه العقيدة بدليلها وبرهانها .

من أجل ذلك ، نرى الكلام فى إثبات وجود خالق العالم ،وبيان استناده إلى الفطرة الإنسانية ـ فطرة الله التى فطر الناس عليها ـ أمرا واجب التقديم على معضلات الشريعة من عقائد وأحكام [1] . . .

إن القرآن الكريم لايفرض الاعتقاد بوجود الله ، والإيمان به خالقا مدبرا حكيما على العقول ، وإنما يذكرها بآياته ، ويبصرها بما هو مركوز فى الفطرة ، ويقول مع ذوى العقول : إنه مامن صنعة إلا ولها صانع ، ومامن حكمة إلا ولها حكيم ، وما من تدبير إلا ووراءه مدبر .

يقول سبحانه وتعالى : ﴿ **أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون ؟ أم خلقوا السموات والأرض ؟ بل لا يوقنون** ﴾ . [2]

وفى توجيه هذا الاستفهام إليهم عن حقيقة وجودهم ــ وهى حقيقة ثابتة لامفر من الاعتراف بها ، ولاسبيل إلى إنكارها مافيه من إلزامهم الحجة . هل وجدوا من غير شىء ؟ هذا ماتنكره الفطرة ، ويرفضه العقل ، أم أنهم أوجدوا أنفسهم من غير خالق ؟ وهذا أمر لايستطيع أحد أن يدعيه أو يقول به . وإذن فلا مفر من الإقرار بأن لهم خالقا رازقا مهيمنا ، يغمر الأنام بفضله ، ويشملهم بإحسانه : منه الإيجاد والإمداد ، وإليه المرجع والمآب ﴿ **الله الذى خلقكم ثم رزقكم ، ثم يميتكم ثم**

---

(١) الإسلام دين الفطرة الشيخ ابراهيم الجبالى ١٥ ـ ١٧ بتصرف يسير
(٢) سورة الطور : ٣٥ ٣٦

يحييكم ، هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء ؟ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ . (1)

﴿ أم من هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه ؟ بل لجوا في عتو ونفور ﴾ (2)

﴿ قل : أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين ﴾ (3)

﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ؟ خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ (4) . ﴿ أفرأيتم ماتمنون ؟ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ ﴾ (5) .

وكما يذكر القرآن الإنسان بآيات الله عليه ، ونعمته المسبغة على أكنافه فإنه يوجه الأبصار إلى مافى الكون ، وهو كتاب الله المنشور - من آيات بينات ، ودلائل باهرات فى السموات والأرض ، كلها تشهد بأن لها خالقا كريما ، مدبرا حكيما : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا ، كذلك الخروج ﴾ (6) . .

﴿ الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ،

---

(1) سورة الروم : ٤٠
(2) سورة الملك : ٢١
(3) سورة الملك : ٣٠
(4) سورة الطارق : ٥ - ٧
(5) سورة الواقعة : ٥٨ - ٥٩
(6) سورة ق : ٦ - ١١

إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، وفى الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ (١)

ويذكر الله سبحانه الإنسان بالأطوار ، التى تقلب فيها ؛ عسى أن يذكر فتنفعه الذكرى يقول سبحانه : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ . (٢)

فأى هداية وإرشاد ؟ وأى دليل أثبت ، وأصدق مما تأخذه من قرارة نفسك ، ومتناول حسك ، ومما يحيط بك من جميع نواحيك ، وكافة جوانبك ؟ إن النشأة الأولى برهان على النشأة الآخرة ــ ومن كانت له القدرة على الإبداء من العدم ؛ كان على الإعادة أقدر : ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ . (٣) ولذلك فإن الله يختم هذه الآيات السابقة ببيان نهاية الإنسان ومصيره فيقول : ﴿ ثم إنكم بعد ذلك لميتون ، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾ . (٤)

فالموت ليس فناء مطلقا ولا هو نهاية أبدية ، وإنما هو نقلة من حالة ، إلى حالة وخروج من نواميس هذه الحياة ، إلى نواميس حياة أخرى : ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ﴾ (٥) ، ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لاترجعون ﴾ . (٦)

---

(١) سورة الرعد : ٢ ـ ٤
(٢) سورة المؤمنون : ١٢ ـ ١٤
(٣) سورة الروم : ٢٧
(٤) سورة المؤمنون : ١٥ ، ١٦
(٥) سورة القيامة : ٣٦
(٦) سورة المؤمنون : ١١٥

العبادة ثمرة من ثمرات الايمان

والإيمان بالله ، والإذعـان لأمره مقدم على الأعمال والعبادات ، فمن عرف الله وآمن به ، وذاق حلاوة الإيمان ؛ أقبـل على الطاعة التى ترقيه وتزكيه وتصفيه وتحليه ، فتكون عبادته وسيلة لنيل العطاء من ربه ، وارتفاع منـزلته عنده ، إلى جانب أنها الغاية من وجوده ، فتكون العبادة مطلوبة طلب الغـايات والوسائل ، بل إن الإنسان الذى تذوق حلاوة الإيمان ، يكون إتيانه للطاعات ، وقيامه بالعبادات مستمدا من حافزه وباعثه ، لامن أجل النتيجة التى يرجوها ، ولا الثمرة التى يحصل عليها ـ وإن كانت تأتى تبعـا ـ ولكنـه بعد وصوله للإيمان ، وصلته بالله فإنه يعبده لأنه أهل لأن يعبد ؛ ويذكره ويشكره ؛ لأنه الجدير بالذكر والشكر ﴿ **هو أهل التقوى وأهل المغفرة** ﴾ (١)

فإذا أكـرمه الله وأعزه ، ومنحه وأعطاه ؛ رضى وشكر ، وإن اختبره وامتحنه ؛ رضى وصبر ، لأنه تعلم من إيمانه أن ربه مالك حكيم ، مدبر عظيم ، وماعليه إلا أن يكون معه متأدبا ، وبطاعته قائما ، وعلى مرضاته حريصا ، إنه عبد ، وعليه أن يقوم بواجبات عبوديته ، وربه سيد مالك حكيم ، له حق السمع والطاعة ، والإذعان والاستجابة : ﴿ **ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين** ﴾ (٢) . وهذا هو الإيمان المستيقن الراسخ الذى يرضاه الله ، ويبارك أهله ، وتلك هى العبادة المثلى التى تقرب العبد من مولاه ، وتجعله أهلا لفضله ورضاه ، وليست عبادة الضعفاء ، ومرضى القلوب وعبـاد الأغـراض والأمـراض ، الـذين تقف هممهم عند حظوظ دنياهم ، أولئك الذين قال الله فيهم : ﴿ **ومن الناس من يعبد الله على**

---

(١) سورة المدثر : ٥٦

(٢) سورة الأعراف : ٥٤

حرف ، فإن أصابه خيرٌ اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ، خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ﴾ . (١)

ولاينبغى أن يغرب عن أذهاننا ما سبق أن قلناه من أن الله غنى عن العالمين : لا تنفعه تقوى المتقين ، ولاتضره معصية الفاسقين وإنما أمره وشرعه وسيلة لشئون جعلها لإصلاح مابين الناس وبين ربهم ، ولإصلاح مابينهم وبين بعضهم ، ولإصلاح حالهم فى أنفسهم ، فمن امتثل واهتدى ، فله أجره وثوابه ، ومن ضل وأعرض فعليه وزره وعقابه : ﴿ إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ، ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ، ولاتزر وازرة وزر أخرى ، ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون إنه عليم بذات الصدور ﴾ (٢)

(١) سورة الحج : ١١
(٢) سورة الزمر : ٧

الرسل عليهم الصلاة والسلام

وإذا كان قد ثبت بشهادة الفطرة والعقل أن الله تعالى هو الخالق الرازق ، الحكيم المدبر المهيمن ، المتصف بكل كمال ، والمنزه عن كل نقص ، هو الذى أوجد الخلق بقدرته ، ودبرهم بحكمته ، وغمرهم بإحسانه وفضله ورحمته ، فإن العقل السليم يقضى بأن يكون منه ماينقذ الناس من الحيرة ، ويهديهم إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور : من ظلمات الحيرة والجهالة والضلالة إلى نور الحق والهداية واليقين .

لذلك اقتضت حكمته ورحمته أن يصطفى من عباده طائفة من البشر رسلا إلى خلقه ، يتلقون منه ، ويبلغون عنه ، ليرشدوا الناس ويهذبوهم ، ويوجهوا الفطرة إلى الله حتى لاتنحرف ، ويرشدوا العقل إلى الحق كيلا يضل ، حتى لايعبد البشر إلاربهم الذى خلقهم وسواهم ، وأنعم عليهم ، بنعم لاتحصى عددا ، ولايدرك لها مدى ، وحتى لايعبدوا الله إلا بما يقرب إليه ، ويوجب رضاه . .

إن الإنسان لوترك ونفسه من غير مرشد يهديه ، أورائد يدله على طريق الخير ، فإنه لايستطيع السير وحده فى دروب الحياة ، ولايعرف له هدفا ولاغاية ، لأنه مهما علم فعلمه محدود ، يدرك من الحقيقة جانبا ، وتغيب عنه جوانب ، ومهما جرب فتجربته قاصرة ، لايمكن أن تدله أوتوصله إلى الصراط المستقيم ، والمنهاج القويم ، فهو إن فكر أو وضع المنهاج ، فتفكيره جزئى ، ومنهاجه وقتى ، قد يصلح تفكيره ومنهاجه لزمانه ولحاله ، ولكنه لا يصلح لغيره ، فالإنسان حادث ، بدأ بعد عدم ، وينتهى بعد حدوث ، وماقد يكون صالحا لزمنه من المناهج والأفكار قد لا يصلح لغيره ، وربما كان

هذا الغير فى زمنه ، ومن ثم فأفكار الناس ومناهجهم مشوبة بالتقصير، مختلطة بالتناقض ، مليئة بالاضطراب ، وثمت أمر آخر له أهميته البالغة : وهو أن الناس قد يعرفون مسالك الخير ، وطرائق الصواب فى بعض الأمور، ولكنهم ينصرفون عنها ، ويهملون شأنها ، خضوعا للهوى ، واتباعا للشهوات العاجلة تقليدا للأباء ، ومسايرة للبيئة .

وإذن فلابد من هداية إلهية وإرشادات ربانية ، تهدى إلى الحق ، وتدل على الصواب وتعصم من الضلال ، وتربى النفوس ، وهذه مهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، فمن اتبع سبيلهم ، ولزم منهجهم فقد اهتدى ورشد ، ومن حاد عنهم ، وأعرض عن سبيلهم فقد ضل وغوى ، قال تعالى : ﴿ **يابنى آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى فمن اتقى وأصلح فلاخوف عليهم ولاهم يحزنون** ﴾ (١) وقال : ﴿ **قال : اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو ، فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى . . .** ﴾ (٢) .

وبإرسال الرسل تقوم حجة الحق على الخلق ، وتنقطع المعاذير : ﴿ **رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما** ﴾ . (٣) ﴿ **ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى** ﴾ . (٤)

وقد أرسل الله رسله إلى كل أمة ، وختم الأنبياء بمحمد ﷺ ، وختم الشرائع بشريعته ، وجعله رسوله إلى الناس كافة من العرب والعجم ،

---

(١) سورة الأعراف : ٣٥
(٢) سورة طه : ١٢٣ــ ١٢٤
(٣) سورة المائدة: ١٦٥
(٤) سورة طه : ١٣٤

والإنس والجن . قال تعالى : ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾ .[1]

﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ، وإن من أمة إلا خلافيها نذير ﴾ .[2] ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ، فمنهم من هدى الله ، ومنهم من حقت عليه الضلالة . . . ﴾[3]

فكانت مهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام : ﴿ أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ . فالعقل البشرى عاجز عن إدراك ما ينبغى إدراكه من صفات الخالق سبحانه وتعالى ، كما أنه أشد عجزا عن القيام بحق شكره على ما تفضل به وأنعم ، وهو عاجز كذلك عن إدراك مصالحه الحقة ، فهو بما جبل عليه من هلع وجزع ، وحب للخير شديد ، وشح بالمال ، وضن به يحاول جلب كل المنافع لنفسه ، ومنعها عن غيره وسلوك الطرق الملتوية للحصول عليه والمنع منها ، وذلك يسبب له المشاكل والمتاعب ، والتطاحن والتقاتل ، وتغلب الأقوياء القادرين على الضعفة والعاجزين ، لذا أصبح من المحتم واللازم أن يكون هناك حكم له الهيمنة على الجميع ، لتسود العدالة ، ويستتب النظام ، ويقوم بناء الحياة على أسس سليمة ، ومبادىء قويمة .

وهذا الحكم الذى ظهرت للعقول ميزته ، وانفرد بما لم يشركه فيه من الصفات غيره ، وإن كان بشرا من البشر لكنه يوحى إليه ، لذلك أصبح — وقد تبين اصطفاء الله له ـ ميزانا يحكم بالعدل ، ويبصر بالصواب ، ويدل الخلق على الحق ، ويخرج الناس بإذن ربهم من الظلمات إلى النور ـ فهوالذى

---

(١) سورة الفرقان: الاولى

(٢) سورة فاطر: ٢٤

(٣) سورة النحل : ٣٦ .

يعرف الناس صفات ربهم ، ويعلمهم طريق شكره وتعظيمه ، وذكره وتقديسه ، كما يعرفهم الطريق السليم فى التعامل والعلاقات بينهم لتستقيم حياتهم ، وتنتظم أمور معاشهم ، وتستقيم أسباب آخرتهم : ﴿ **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط** ﴾ (١) .

والرسل عليهم الصلاة والسلام صفوة مختارة : اختارهم الله واصطفاهم ، وهو سبحانه : ﴿ أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ (٢) وزودهم بالعلم والمعرفة ، وأمدهم بروح منه ، وكتب فى قلوبهم الإيمان الراسخ ، والعزم الشديد ، والصبر والمصابرة ، وحلاهم بالصدق والأمانة والفطانة ، وطهرهم من كل مايصرف البشر عنهم ، وآتاهم من الصفات والفضائل مالم يؤت أحدا من خلقه ، ثم كلفهم تبليغ رسالته إلى خلقه ، وقيادة عباده إليه ، وتعريفهم به ودلالتهم عليه ، وتحذيرهم الإعراض عن ذكره ، والإقبال على غيره ، وتذكيرهم بنعمته وسابغ فضله ورحمته لعلهم يذكرون فتنفعهم الذكرى : ﴿ **ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة ، وإن الله لسميع عليم** ﴾ . (٣)

فماذا كان موقف البشر من رسل الله وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام ؟ هل استجابوا لهم ؟ وانتفعوا بنصائحهم ؟ وساروا إلى الله فى ضوء نورهم أم أعرضوا عن واضح الدليل ؟ وعموا وصموا عن سواء السبيل ؟

إن المتتبع لتاريخ الأمم مع أنبيائهم يرى أن هؤلاء المصطفين الأخيار ، الذين دعوا البشر لما يحييهم لايبغون منهم جزاء ولاشكورا ، ولايطلبون منهم أجرا ولا ثوابا ـ يرى أنهم قد كذبوا وأوذوا ، وقوبلوا بالجحود والكفر من

---

(١) سورة الحديد : ٢٥
(٢) الأنعام : ١٢٤
(٣) سورة الانفال : ٤٢

أممهم ، ومـا أجابهم وأقبل على هديهم إلا قليل : ﴿ ياحسرة على العباد مايأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ﴾ (١) ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الأولـين ، ومـا يأتيهم من رسـول إلا كانـوا به يستهزئون ﴾ (٢) ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ، أتواصوابه ؟ بل هم قوم طاغون ﴾ (٣).

ومن طغيانهم استبعادهم أن يكون الرسول واحدا من البشر ، فهم يريدون ملائكة من السماء تتولى تبليغ الناس ، أولمرافقة الرسل ، وكانت لهم اقـتراحـات على رسلهم عجيبـة غريبـة ، لايقصـد بها إلا التعنت والاستهـزاء ، قال تعـالى : ﴿ فإن أعـرضـوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا : لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ (٤) ومن اقتراحاتهم على الرسول ﷺ ما سجله القرآن الكريم : ﴿ وقالوا : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أوتكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجـر الأنهار خلالها تفجيرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ، قل : سبحان ربى هل كنت إلابشرا رسولا ، وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا ، قل لوكان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ﴾ . (٥)

---

(١) سورة يس : ٣٠

(٢) سورة الحجر : ١٠ـ١١

(٣) سورة الذاريات : ٥٢ـ ٥٣

(٤) سورة فصلت : ١٣ ـ١٤

(٥) سورة الإسراء : ٩٠ ـ ٩٥

الحكمة فى اصطفاء الرسل إلى البشر من بينهم

ولكن الله العليم الحكيم اقتضت حكمته أن يرسل الرسل من جنس الأمم التى أرسلوا إليها قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾ (١) فلو كان أهل الأرض ملائكة لأنزل الله إليهم ملائكة ﴿ قل لوكان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ﴾ (٢) .

وإنما اختار الله رسله إلى عباده من بينهم ومن بنى جنسهم ، ممن يتكلمون بألسنتهم ويحسون بأحاسيسهم ويباشرون سائر أمور الحياة : من البيع والشراء والزواج والمصاهرة ونحو ذلك مما يحتاج إليه ويقوم به سائر الناس ، وذلك ليتسنى لهم الاستفادة بهم ، والتعلم منهم ، والتأسى بهم فى أفعالهم ومسالكهم ، وليكون كل رسول بالنسبة لقومه مثلا أعلى به يقتدون ، وعلى منهاجه يسيرون ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾ (٣)

---

(١) سورة إبراهيم : ٤

(٢) سورة الإسراء : ٩٥

(٣) سورة الاحزاب : ٢١

أخلاق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

أبرز دلائل صدقهم

لقد كان فى مواقف الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم أصدق الأدلة وأقوى البراهين على صدقهم فى دعواهم ، وتجردهم عن الأغراض الذاتية ، والمنافع الشخصية . وشرف المهمة التى يحملون ، وسمو الأخلاق التى بها يتخلقون وإلا فما الذى كان يحملهم على تحمل المشاق الشداد وتجشم الصعاب الجسام ، فى سبيل هداية الناس ، وخلعهم من عبادة الأوثان إلى عبادة الملك الديان .

ويتحدث القرآن الكريم عن رسول الله ﷺ المجبول على الرحمة وعما يحس به من الألم الذى يعتصر قلبه لإعراض قومه وكفرانهم فيقول : **﴿ لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ﴾** (١) **﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾** (٢) لذا يقول الله له ناصحا : **﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون ﴾** (٣)

ومن دلائل صدقهم : **أنهم لايريدون جزاء ولاشكورا** ، ولايبغون محمدة ، من الناس ولامنفعة ، ولقد ظن الكافرون أن هؤلاء الدعاة يمكن أن تغريهم الوعود أويخيفهم الوعيد ، ولكن القرآن الكريم أعلن سموهم وسمو مقاصدهم ، وأنهم أصحاب مبادىء لايحيدون عنها لشىء ، وأنهم على مبادئهم فى حياتهم ومماتهم **﴿ أم كنتم شهداء إذا حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه : ما تعبدون من بعدى ؟ .**

---

(١) سورة الشعراء : ٣

(٢) سورة الكهف : ٦

(٣) سورة فاطر : ٨ .

قالوا : نعبد إلهك وإله ابائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون ﴾ (١)

وحكى القرآن الكريم مقالة نوح عليه السلام لقومه : ﴿ وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ﴾ . (٢)

ومقالة هود عليه السلام : ﴿ ياقوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجرى إلاعلى الذى فطرنى أفلا تعقلون ﴾ . (٣)

وقول خاتم المرسلين : ﴿ قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى ﴾ . (٤)

وقد اقتضت سنة الله ـ وهو العزيز الحكيم ـ أن يكتب النصر لرسله ولمن آمن به فقال : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ . (٥) ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾ (٦) ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ . (٧)

ومما استعرضناه من تبليغ الرسل لرسالات ربهم لأقوامهم ، وتحملهم المشاق وعدم استجابتهم للوعود وإغرائها ، وعدم تأثرهم بالوعيد وسطوته مايدل أبلغ الدلالة على صدقهم فى مايدعون ، وثبوت النبوة والرسالة لهم ، إلا أن الله ـ وله الحكمة البالغة ـ أيدهم إلى ذلك : بالآيات البالغة ، والمعجزات القاهرة ، والأدلة الساطعة ، والبراهين القاطعة ، والحجج البالغة .

---

(١) سورة البقرة : ١٣٣
(٢) سورة الشعراء: ١٠٩
(٣) سورة هود : ٥١
(٤) سورة الشورى : ٢٣
(٥) سورة غافر ٥١
(٦) سورة المجادلة : ٢١
(٧) سورة الطافات : ١٧١ ـ ١٧٣

واقتضت حكمته سبحانه أن تكون المعجزات - التى يؤيد بها رسله - من جنس ما برع فيه أقوامهم ، ولهم فيه التفوق ، والسبق على غيرهم ، ليكون ذلك أبلغ فى التحدى والإعجاز .

فكانت معجزة موسى مشابهة فى الظاهر لما برع فيه القوم من السحر ، لذا كان السحرة أول من أدرك أن أمره ليس بأمر السحر ، وإنما هو من عند الله ، وكانوا بذلك أول آمن به ، وأيده ، وضحى بالنفس والنفيس فى سبيله .

وجاءت معجزة عيسى عليه السلام على وجه يحار فيه الأطباء ، ويعجزون عنه وهم الذين بلغوا فيه شأوا لا يبارى ، ومبلغا لم يكن إذ ذاك ليدرك فكان يبرىء الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله .

★ ★ ★

الرساله الخاتمة

أكمل الله الشرائع ، وختم النبوات بسيدنا محمد ﷺ قال تعالى : ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شيء عليما ﴾ (١) .

وقد صح عنه أنه قال : « أنا العاقب الذى ليس بعده نبى » (٢) .

وقد جعل الله رسالته عامة لقومه وغيرهم ، شاملة للإنس والجن : لمن كان فى زمنه ولمن يأتى من بعده إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

قال تبارك وتعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشير ونذيرا ، ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾ (٣) وقال : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ . (٤)

وقال : ﴿ قل : أى شيء أكبر شهادة ؟ قل : الله شهيد بينى وبينكم وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ﴾ . (٥)

وفى حديث جابر رضى الله عنه عند مسلم « أعطيت خمسا ـ لم يعطهن أحد قبلى ـ : كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس كافة . . الحديث » وفى رواية : « وبعثت إلى الخلق كافة » وقد ختم الله بهذه الشريعة الشرائع ، فلا يقبل عمل إلا على أساسها ، ولايهتدى سائر ولايوفق إلا على ضوئها ونبراسها .

---

(١) سورة الاحزاب : ٤٠
(٢) متفق عليه .
(٣) سورة سبأ : ٢٨
(٤) سورة الأنبياء : ١٠٧
(٥) سورة الأنعام : ١٩

قال تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ .(١)

وفى الحديث الصحيح يقول عليه الصلاة والسلام « والله لوكان موسى حياً ماوسعه إلا اتباعى» (٢) . ويقول : « مامن أحد من هذه الأمة من يهودى ولانصرانى يسمع بى ثم لايؤمن بالذى جئت به إلا كان من أهل النار » (٣) .

والمراد بالأمة - فى هذا الحديث - : سائر العالمين الذين بعث إليهم عليه الصلاة والسلام ، وإنما ذكر اليهود والنصارى دون غيرهم ؛ لأن لكل من الفريقين كتاباً منزلاً ، ونبيا كريما مرسلا ، ومع ذلك فلا يقبل من أى منهما عمل ، ولا يعتد بإيمان إلا من آمن بمحمد ﷺ إيمان إذعان واستجابة ، فغيرهما من عبدة الأوثان وأضرابهم من باب أولى . وكذلك ذكر رسول الله ﷺ فى الحديث الذى قبله موسى عليه الصلاة والسلام دون غيره لأنه نبى أنبياء بنى اسرائل ، وشريعته شريعة لهم جميعا .

فإذا كان هذا هو الشأن مع موسى عليه السلام : أنه لو كان حيا فأدرك محمدا ﷺ ما جاز له إلا أن يؤمن به ، وينقاد له ، ويتبعه ، فغيره من الأنبياء الكرام ، وسائر أمة بنى اسرائيل أولى بالاتباع والانقياد ، بل هذا هو مادل عليه القرآن الكريم .

قال تعالى : ﴿ وإذْ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال : أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ؟ قالوا : أقررنا ، قال : فاشهدوا ، وأنا معكم من الشاهدين ﴾ . (٤)

---

(١) سورة آل عمران : ٨٥
(٢) حديث صحيح
(٣) رواه مسلم وغيره
(٤) سورة آل عمران : ٨١

ولاريب أن فى إرساله صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة مكرمة وشرفا له صلوات الله وسلامه عليه .

يقول ﷺ : « أعطيت خمسا - لم يعطهن أحد قبلى - : كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى كل أحمر وأسود . . الحديث والمراد بالأحمر والأسود الإنس والجن وسائر الخلق » .

لذلك بلغ رسول الله ﷺ دعوته إلى قومه وغيرهم فى جزيرة العرب ، ومصر والشام والعراق وغيرها من البلاد ، وأرسل بكتبه إلى ملوك هذه البلاد يدعوهم إلى إتباعه والإيمان به ، وقد حمل أصحابه من بعده هذه الراية ، وبلغوا دعوة الله إلى عباده .

وقد اقتضت الحكمة الإلهية أن يؤيد الله رسوله ونبيه محمدا ﷺ بكثير من الآيات والمعجزات الحسية والمعنوية ، حتى ليقول بعض العلماء : **إنه مامن معجزة أعطيت لنبى من الأنبياء السابقين إلا أعطى النبى ﷺ معجزة تضاهيها وذلك حتى لايمتاز المنسوخ على الناسخ بما يجعله أقوى منه .**

فمثلا فى مقابلة إحياء الموتى ، وانقلاب العصا حية تسعى حنين الجذع له ﷺ وتسبيح الحصا فى يده .

وفى مقابلة فلق **البحر** نبع الماء من بين أصابعه الشريفة كأمثال العيون حتى توضأ القوم وشربوا ، وكذلك انشقاق القمر له عليه الصلاة والسلام .

وفى مقابلة إبراء الأكمه رد عين قتادة ، وقد جاء إلى النبى ﷺ - وعينه فى يده وقد فقئت بسهم فى غزوة - .

فقال : عينى يا رسول الله فقال : ﷺ «إن شئت رددتها لك ، وإن شئت أن يعوضك الله خيرا منها فى الجنة ؟»

فقال : يارسول الله ، إنى رجل مبتلى بحب النساء ، وأخاف أن يقلن : أعور فارددها لى واسأل الله أن يؤتينى خيرا منها فى الجنة ، فضحك ﷺ وردها له ودعا له بما طلب .

وهكـذا ما من معجـزة أوتيها نبى من الأنبياء إلا أوتى صلوات الله وسلامه وبركاته عليه مثلها تشريفا له وتكريما ، وإجلالا لشأنه وتعظيما . .

والقرآن الكريم هو أظهر المعجزات المعنوية الباقية بذاتها وبآثارها ، أنزله الله على رسوله ونبيه محمد ﷺ ، ولما كانت شريعة الإسلام باقية إلى قيام الساعة فقد اقتضت الحكمة الإلهية أن يكون لها دستور باق إلى يوم القيامة .

هذا الكتـاب الكـريم هو كلام رب العـالمين ، وهـو حق وصدق **﴿ لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾** (١) **﴿ ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين ﴾** . (٢)

كانت الأمة العربية التى بعث من بينها رسول الله ﷺ من أعظم الأمم نبـوغـا فى البـلاغـة والفصـاحـة ، فجـاء القرآن الكريم فى ذروة البلاغة والفصاحة ، فألفاظه ومعانيه فوق قدرة البشر ، أنزله الذى يعلم السر فى السمـوات والأرض بلسان عربى مبين ، يهدى للتى هى أقوم ، فهدايته عامـة شاملة للأفـراد والجماعات ، فى جميع الاتجاهات وكافة المجالات : يهديهم للتى هى أقـوم فى جميع اتجاهاتهم : عقيدية كانت أوتشريعية أو أخـلاقية ، يهديهم للتى هى أقـوم فى تنظيم حياتهم ، وإقامة علاقاتهم بعضهم ببعض على أسس سليمة بعيدة عن الهوى ، فلا غرو أن يكون هذا الكتاب عاما خالدا ، صالحا لكل زمان ومكان ، ووجه صلاحيته أنه محفوظ من التغيير والتبديل ، فالله الذى أنزله تكفل بحفظه .

قال سبحانه : **﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾** (٣) وكان حفـظه وبقـاؤه طوال هذه القـرون منـذ نحو أربعة عشر قرنا فى السطور

---

(١) سورة فصلت : ٤٢

(٢) سورة البقرة : الآية الأولى

(٣) سورة الحجر : ٩

والصدور دليلا على صدقه ، وأنه كتاب الله ، وقد تحدى به الجن والإنس أن يأتوا بمثله أو بسورة مثله أو عشر آيات منه فعجزوا .

﴿ قل : لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ [1]

وقد جاءت هذه الآية بعد قول الله : **﴿ ويسألونك عن الروح ، قل : الروح من أمر ربى ﴾** . [2] فالقرآن كالروح لايدرك الناس سره ، وإن أدركوا بعض خصائصه ، وصدق الله إذ يقول : **﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذى له مافى السموات ومافى الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور ﴾** . [3]

ولعلك تقول : إن الشريعة دائمة وعامة للناس أجمعين ، ولايقبل الله دينا غيرها من أى إنسان ، وأن الغرض من المعجزة الباقية إخراج المتمسك بها عن أن يكون مقلدا لغيره ولكن الإعجاز البلاغى لايدركه إلا أهل البلاغة ، فهل يكون غيرهم مقلدا لهم ؟ وماذا فعلنا إ ذن ؟ فنقول :

أولا : معلوم أن الشىء متى أعجز صاحب الفن البارع فيه فقد أعجز غيره بالأولى ، فقامت الحجة على الجميع .

ثانيا : كان يصح منك هذا القول لو كان إعجازه محصورا فى بلاغته ، أما ووجوه إعجازه لاتقف عند هذا الحد فلا يتجه هذا القول .

فكن أى رجل شئت تجد أمامك من وجوه إعجاز القرآن مايبهرك ، بل يملأ صدرك حكمة وإيمانا .

---

(١) سورة الإسراء : ٨٨

(٢) الإسراء ٨٥

(٣) سورة الشورى : الأيتان الأخيرتان .

فكن رجل القانون : وانظر إلى الأمم التى تضع قوانينها بنفسها لنفسها تجدها أولا تختار فئة من أماثلها ، درسوا القوانين السابقة ، وعرفوا حالة أمتهم التى يخالطونها ، وفهموا مواضع الحاجة منها ، فيضعون مشروعا يفرغون فيه جهدهم متعاونين متساندين ، ثم يبرزونه لفئة أخرى تهذبه ، ثم أخرى تنفذه ، وهكذا تسلمه فئة إلى فئة حتى يخرج ، وهو عصارة أفكار قوم هم صفوة أمتهم فيعتمدونه قانونا لهم .

فكم يمكث ؟ .

هل ترى قانونا يمضى عليه عشر سنين إلا دب إليه سوس التغيير والتبديل ؟ وها أنت ترى قانونا جاء به فرد واحد ، لم يدرس قوانين أمم أخرى ، فقد كان أميا نشأ بين أميين منفصلين عن سائر الأمم ، **فجاء هذا القانون صالحا لكل أمة فى كل زمان** ، وفى كل مكان ، وكل طور من أطوار الحضارة والبداوة ، فإذا كنت من رجال القانون فما رأيك فى هذا القانون ؟ أبقى عندك شك فى أنه معجزة قانونية ؟

كن من رجال الطب : واقرأ قوله تعالى : ﴿ **بلى قادرين على أن نسوى بنانه** ﴾ [(١)] **وانظر لماذا اختار البنان من سائر أعضاء الإنسان ؟** إذا كنت عالما بالتشريح فأنت أقدر منى على بيان عظام الأنامل وتقسيمها ، وعضلات الأنامل ودقتها ، وسهولة انزلاقها ونمطها حتى يزاول بها صاحبها أدق الصناعات وأصعبها وأعصاب الحس والحركة فى الأنامل وعظم شأنها ، بل فى بشرتها وجلاتها ، وما طابع الإبهام منك ببعيد [(٢)] .

ولست الآن بصدد الكلام عن خصائص القرآن ومحتوياته ، وإعجازه العلمى أو البيانى أو النفسى . . إلى آخر ما أفاض فيه العلماء قديما

---

(١) سورة القيامة : ٤

(٢) الإسلام دين الفطرة ٨٣ ـ ٨٥

وحديثاً [1] ، وإنما هى كلمة موجزة عن هذه المعجزة الكبرى التى أكرم الله بها سيدنا محمدا ﷺ ، ولعل خير مانختم به هذه الكلمات قول النبى ﷺ : **« مامن الأنبياء نبى إلا أوتى من الآيات مامثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الـذى أوتيه وحيا أوحـاه الله إلى ، فأرجـو أن أكـون أكثـرهم تابعـاً يوم القيامة »** [2] .

(١) انظر : إعجاز القرآن للأديب المسلم مصطفى صادق الرافعى والنبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز ونظرات فى القرآن للشيخ محمد الغزالى

(٢) رواه الشيخان . .

وجوب الإيمان بما أخبر به الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم جُملةً وتفصيلاً

وإذا انشرح صدر العبد للإيمان بالله ـ تبارك وتعالى ـ خالقا للكون ومافيه ، مدبرا له ، له الخلق والأمر ، وانشرح صدره للإيمان برسله عليهم الصلاة والسلام وبما أنزل عليهم من كتب ، وآمن على الخصوص بمحمد ﷺ خاتما للأنبياء ، وبشريعته ناسخة للشرائع ، وبكتابه مهيمنا على الكتب ، فإنه يبقى عليه بعد ذلك أن يؤمن تفصيلا بما تضمنه القرآن الكريم ، وأخبر به النبى الأمين من أمور الغيب ، وأحوال الآخرة ، وما يسبقها من أحوال البرزخ ، وهى ما اصطلح أهل العلم على تسميته : بالسمعيات وذلك لأن العقل لاسبيل له إلى إدراكها ، وإنما مستندها السماع من المعصوم صلوات الله وسلامه عليه وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين .

ومعرفة السمعيات والإيمان بها تأتى تبعا للإيمان بالرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فإنهم قد أخبروا بها وأكدوها ، وموضعهم من الصدق والأمانة فى مايبلغونه عن ربهم ، وفى سائر أحوالهم فوق الشك والريبة فإنهم المصطفون الأخيار ، المطهرون المقربون .

اليوم الآخر

فمن السمعيات التى يجب الإيمان بها ، والتى أخبر بها النبى ﷺ اليوم الآخر الذى يقوم الناس فيه لرب العالمين ، وتسأل كل نفس : عما اعتقدت من إيمان وكفر ، وعما اقترفت من حسنات وسيئات ، وعما وقفت عنده أو تعدته من حدود ، وعما قابلت به نعم الله عليها من شكران أو جحود ،

ويحاسب كل امرىء على ماقدم وأخر ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ، ولنسألن المرسلين ، فلنقصن عليهم بعلم ، وماكنا غائبين ﴾ (١) .

وقد استفاض ذكر اليوم الآخر فى الكتاب الحكيم وأخذ أوصافا متعددة ، وأسماء مختلفه : ـ ما منها من اسم إلا وهو منبىء عن حال من أحواله ، أو موقف من مواقفه ـ .

فهو يوم القيامة ، وهو يوم البعث ، وهو يوم الحشر ، وهو يوم الحساب ، وهو يوم الدين ، وهو يوم الفصل ، وهو يوم التغابن ، ومن أسمائه الواقعة ، والقارعة ، والحاقة ، والطامة والصاخة .

وقد ذكره النبى ﷺ وذكر أحواله وأحوال الناس فيه ، واختلاف شأنهم عند ربهم بما لايتسع لذكره المجال ، وقد كان النبى ﷺ حريصا على تبليغ أمره إلى أمته لأول عهده بالجهر بدعوته إذ قام صلوات الله وسلامه عليه على جبل الصفا فنادى فى الناس « يابنى فلان . يابنى فلان » . فلما اجتمعوا عليه استنطقهم وأشهدهم على أنفسهم : « أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا وراء هذا الوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟ » قالوا : نعم ، ماجربنا عليك كذبا فقال : « والله إنى لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة ، والله الذى لاإله إلا هو لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا ، وبالسوء سوءا ، وإنها لجنة أبدا أو لنار أبدا » . .

وللإيمان باليوم الآخر أثره الطيب على المؤمن فى عبادته وأخلاقه ومعاملاته ، فهو يجعله أصبر على الشدائد ، وأقدر على الكفاح ، وأتقى لله ، وأصدق لسانا ، وأقوم سلوكا ، وأرعى للأمانات ، وأشد ارعواء عن الحرمات ، إنه يعمل وهو يعرف ربه ويعلم أنه ملاقيه ، فيقصده بعمله ،

---

(١) سورة الأعراف : ٦ ، ٧ .

ويتـوجـه به إليه وحده على المنهاج الذى رسم ، والطريق التى أوضح ، والمعالم التى بين . والقادة والرواد فى هذا السبيل إنما هم الرسل الكرام ، وخاتمهم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام . .

إن المؤمن بالله واليوم الآخر لاتراه إلا راضيا مفوضا ، فهو لايضيق بحياته ، ولايسأم من وجوده ؛ **لأنه يدرك** إدراك العلم والبصيرة ، والشعور والـوجـدان : **أن بقـاءه فى هذه الحياة بقـاء موقـوتاً** ، وأنه فى مرحلة ممر لامستقر ، وأن الحياة الحقيقية إنما هى حياة الآخرة تلك الحياة التى ينعم فيها المتقون بمالايخطر لأحد على بال ، أو يدور منه بخيال : نعيم لابؤس فيه ، وعـافية ليس معهـا بلاء ، وأمن لايزعجه خوف ، وعطاء لاينقص ولا يغيض ، وزيادة من العطاء ، ورضوان مع الله أكبر ، مع أحباب الله وأوليائه من النبيين والصديقين ، والشهداء والصالحين .

يقـول الله تعـالى حكـاية عن مؤمن آل فرعون فى نصيحته لقومه : ﴿ **ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ، وإن الآخرة هى دار القرار من عمل سيئـة فلايجـزى إلا مثلهـا ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب** ﴾ . [1]

أمـا الكـافرون باليوم الآخر وما يتضمنه من إثابة أهل الإحسان ، وعقوبة أهل الإساءة ، فهم أشد الناس فى هذه الحياة بؤسا ، وأضيقهم أفقـا ، وأقلهم عقـلا وأكثرهم تعاسة وشقاء ، أهدافهم فى الحياة محدودة بشهـواتهم ولـذائذهم وغاياتهم واقفة عند رغائبهم وأهوائهم فهم كما قال القرآن عنهم : ﴿ **والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم** ﴾ [2] ، هم فى شقاء وحيرة ، وقلق واضطراب لأنهم فارقوا الحق والخير ، وأصموا آذانهم عن صوت الفطرة فى أعماق نفوسهم بأن هذه الحياة

---

(١) سورة غافر : ٣٩ ، ٤٠

(٢) سورة محمد : ١٢

ليست نهاية المطاف ، ولكن لابد من حياة أخرى يثاب فيها المحسن بإحسانه ، ويعاقب فيها المجرم المسىء على إساءته . ﴿ **إن الذين لايرجون لقاءنا ، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، والذين هم عن آياتنا غافلون ، أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون** ﴾ (١) .

أترى من العدل والإنصاف أن يسوى ربك بين المؤمنين والكافرين ، والمتقين والفجار ؟ . . أيسرق السارق وينهب الناهب ويقتل القاتل . . ثم تنتهى الحياة ولايؤخذ للمظلوم من الظالم ، ولايفصل بين العباد ؟ .

كلا ثم كلا . . إن الذى يقتضيه العقل أن يحكم الله بين عباده ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴿ **ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب ، من يعمل سوءا يجز به ولايجد له من دون الله وليا ولانصيرا ، ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولايظلمون نقيرا** ﴾ . (٢)

وهذا منطق العقل السليم ، وخبر الدين القويم ، وحاشا لله أن يسوى بين المتقين والفجار ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ؟ ﴾ . (٣)

﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ؟ ساء مايحكمون** ﴾ (٤)
﴿ **أفنجعل المسلمين كالمجرمين . مالكم كيف تحكمون** ﴾ (٥)

فالحياة الدنيا لاتصلح أن تكون دار جزاء وبقاء ، وإنما هى دار اختبار وبلاء ، على هذا أطبقت الشرائع السماوية ، أطبقت على تقرير عقيدة

---

(١) سورة يونس : ٧ ، ٨
(٢) سورة النساء :١٢٣ ، ١٢٤
(٣) سورة ص ٢٨
(٤) سورة الجاثية : ٢١
(٥) سورة القلم : ٣٥ : ٣٦

البعث والجزاء منذ أهبط الله آدم وزوجه من الجنة ﴿ قال : اهبطا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولايشقى . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾[1] .

وحين قرر النبى ﷺ تلك القضية التى تتضمن البعث بعد الموت وعودة الحياة إلى الأجساد بعد طول سبات ورقاد ، بل بعد البلى والتمزق والتفرق ظن المشركون أن هذه نقطة الضعف فى دعوته ، وحسبوها فرصة سانحة للنيل منه ومن دعوته ، وصد الناس عن سبيله ، فقابلوه بالسخرية ، والاستهزاء ، والإنكار ، وليس لهم من دليل يستندون إليه إلا مجرد الاستبعاد العقلى والاستمساك بالإلف والعادة . حكى القرآن عنهم ﴿ وقال الذين كفروا : هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق : إنكم لفى خلق جديد ، أفْتَرى على كذبا أم به جنة ﴾ وقد رد الله عليهم بقوله : ﴿ بل الذين لايؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد ﴾ . [2]

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى . مقالات منكرى البعث وشبها تهم وفندها ، وأقام الحجج الواضحة على إمكان البعث الجثمانى ووقوعه فعلا .

قال تعالى : ﴿ قَ والقرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكفرون : هذا شىء عجيب ، أئذا متنا وكنا ترابا ؟ ذلك رجع بعيد . . ﴾

هكذا حكى الله مقالتهم ، ثم رد عليهم : بأن ذلك سهل على العليم الخبير القادر المقتدر .

﴿ قد علمنا ماتنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ ﴾ . [3]

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ أفعيينا بالخلق الأول ، بل هم فى لبس من

---

(١) سورة طه : ١٢٣ ، ١٢٤

(٢) سورة سبأ : ٧ ، ٨

(٣) سورة ق : ١ ـ ٤

خلق جديد ﴾ (1) أى : ماعجزنا عن الخلق الأول الذى لايستطيعون إنكاره ، وأنه كان من لاشىء ، فكيف نعجز عن الخلق الثانى ومواده موجودة ، وَصُورُه قائمة ؟

ولايمكنكم الإنكار ولكنكم تتبجحون وتعاندون ، والإعادة أهون من البدء . فإلى أين تذهبون ؟ وذلك بحسب ماتتصوره عقولكم ، وهو يخاطبكم بمقتضى عقولكم **﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى فى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم ﴾** (2) .

وإن كانت الحقيقة لدى المؤمن أن القدرة الإلهية ليس أمامها مايوصف بسهولة أو صعوبة ، وإنما هو أمر يتوجه من القادر المقتدر فإذا ما أراد الله كائن متحقق :

﴿ إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له : كن فيكون ﴾ (3) . **﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾** (4) . ونحو هذه الآية قوله تعالى فى سورة مريم **﴿ ويقول الإنسان أئذا مامت لسوف أخرج حيا ؟ أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا ﴾** (5)

ولم يكتف القرآن بإقامة الحجة على إمكان البعث ، بل بين أن البعث الجسمانى قد وقع فعلا فى هذه الحياة الدنيا فى مناسبات شتى ، **نكتفى منها بمناسبتين وكلتاهما فى سورة البقرة :**

يقول تعالى : **﴿ أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال : أنى يحيى هذه الله بعد موتها ؟ ـ فأماته الله مائة عام ثم بعثه ـ**

---

(١) سورة ق ١٥

(٢) سورة الروم ٢٦، ٢٧

(٣) سورة النحل : ٤٠

(٤) سورة يس : ٨٢

(٥) سورة مريم : ٦٦ ، ٦٧ .

قال : كم لبثت ؟

قال : لبثت يوماً أو بعض يوم : قال : بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه ، وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس ، وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما ، فلما تبين له

قال : أعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾ [1] .

ويقول سبحانه : ﴿ وإذ قال إبراهيم : رب أرنى كيف تحيى الموتى ؟

قال : أولم تؤمن ؟

قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبى .

قال : فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعياً ، واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾ [2]

ويقول النبى صلى الله عليه وسلم : « أيها الناس إنكم محشورون إلى ربكم حفاة عراة غرلا ، وإنَّ أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم ، أما إنه سيجاء بأناس من أمتى فيؤخذ بهم ذات الشمال ، فأقول : يارب أصحابى ، فيقال لى : إنك لاتدرى ما أحدثوا بعدك ، فأقول كما قال العبد الصالح : وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد ، إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ». [3]

إن الموت ليس فناء تاما ، ولاهو نهاية أبدية ، وإنما هو نقلة من حال إلى حال ، ومن دار إلى دار ، هو نقلة من دار الفناء إلى دار البقاء ، حيث يلقى كل ساع سعيه ويوفى كل عامل عمله إما نعيم مقيم أو عذاب أليم : ﴿ إن الأبرار لفى نعيم ، وإن الفجار لفى جحيم ﴾ [4] . .

---

(١) سورة البقرة : ٢٥٩

(٢) سورة البقرة : ٢٦٠

(٣) متفق عليه .

(٤) سورة الانفطار : ١٣، ١٤ .

ونعيم الأبرار كعذاب الفجار كلاهما يتناول الحس والنفس ، والجسد والروح ، يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين . ياعباد لاخوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون . ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون . يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون ، وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون ، لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون . إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون . لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون . وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ونادوا يامالك ليقض علينا ربك قال : إنكم ماكثون . لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون ﴾ (١) .

ويقول سبحانه : ﴿ قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ؟ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ، ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد ﴾ (٢) .

ويجأر أهل النار ويضرعون ﴿ قالوا : ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين . ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴾ .

فيجابون ﴿ قال : اخسأوا فيها ولاتكلمون ﴾ (٣) . وإذا كان فى الرضوان من النعيم مافيه . ففى مواجهة أهل النار بهذا الخطاب من الألم النفسى مافيه .

على أنه ينبغى أن نُقرِّرَ أن الشعور فى بقاء آخر للنفس الإنسانية بعد هذه الحياة أمر لايستقل باعتقاده والإيمان به أهل الأديان الإلهية وحدهم ، وإنما هو اعتقاد طوائف كثيرة من البشر ، وإن كانوا يختلفون فى حقيقته ،

---

(١) سورة الزخرف . ٦٧ ـ ٧٨

(٢) سوره آل عمران : ١٥

(٣) سورة المؤمنون : ١٠٦ ـ ١٠٨

وبيان مداه ، والاختلاف هنا أمر بدهى ، فإن الأمور التى لايستقل العقل بإدراكها لابد أن يتخبط فيها من آثر السير على هواه بغير هدى من الله .

يقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده : اتفقت كلمة البشر موحدين ووثنيين مِلّيِّينَ وفلاسفة ـ إلا قليلا لايقام لهم وزن ـ على : أن لنفس الإنسان بقاء تحيا به بعد مفارقة البدن ، وأنها لاتموت موت فناء ـ أى زوال مطلق ـ وإنما الموت المحتوم هو ضرب من البطون والخفاء ، وإن اختلفت منازعهم فى تصوير ذلك البقاء وفيما تكون فيه وتباينت مشاربهم فى طرق الاستدلال عليه .

فمن قائل : بالتناسخ فى أجساد البشر أو الحيوان على الدوام .

ومن ذاهب إلى : أن التناسخ ينتهى عندما تبلغ النفس أعلى مراتب الكمال .

ومنهم من قال : إنها متى فارقت الجسد عادت إلى تجردها عن المادة ، حافظة لما فيه لذتها أو مابه شقوتها .

ومنهم من رأى : أنها تتعلق بأجسام أثيرية ألطف من هذه الأجسام المرئية .

هذا الشعور العام بحياة بعد هذه الحياة ، والْمُنْبَثُّ فى جميع الأنفس عالمها وجاهلها ، وحشيها ومستأنسها ، باديها وحاضرها ، قديمها وحديثها ، لايمكن أن يعد ضلة عقلية ، أو نزعة وهمية ، وإنما هو من الالهامات التى اختص بها هذا النوع .

فكما ألهم الإنسان أن عقله وفكره هما عماد بقائه فى هذه الحياة الدنيا ـ وإن شذ أفراد منه أنكروا ذلك أو شكوا فيه ـ كذلك قد ألهمت العقول وأشعرت النفوس أن هذا العمر القصير ليس هو منتهى ما للإنسان فى الوجود ، بل الإنسان ينزع هذا الجسد كما ينزع الثوب عن البدن ، ثم يكون حيا باقيا فى طور آخر وإن لم يدرك كنهه .

ذلك إلهام يكاد يزاحم البديهة فى الجلاء يشعر كل نفس أنها خلقت مستعدة لقبول معلومات غير متناهية ، من طرق غير محصورة ، شيقة إلى لذات غير محدودة ، ولا واقفة عند غاية ، مهيأة لدرجات من الكمال لاتحدها أطراف المراتب والغايات) . (1)

ويقول باحث آخر : كيف يسيغ العقل أن ينفض سوق هذه الحياة وقد نهب فيها من نهب ، وسرق فيها من سرق ، وقتل فيها من قتل ، وبغى فيها من بغى ، وتجبر فيها من تجبر ، ولم يأخذ أحد من هؤلاء عقابه ، بل تستر واختفى ، فأفلت ونجا ، أو تمكن من إخضاع الناس له بسيف القهر والجبروت ؟

وفى الجانب الآخر : كم أحسن قوم وضحوا وجاهدوا ، ولم ينالوا جزاء ماقدموا ، إما لأنهم كانوا جنودا مجهولين ، أو لأن الحسد والحقد جعل الناس يتنكرون لهم ، بلا أن يعرفوا فضلهم ، أو لأن الموت عاجلهم قبل أن ينعموا بثمرة ماعملوا من خير ، وكم من قوم دعوا إلى الحق ، واستمسكوا به ، ودافعوا عنه ، فوقف الظالمون فى طريقهم ، وأوذوا وعذبوا ، واضطهدوا وشردوا ، وسقطوا صرعى فى سبيله ، وأعداؤهم الطغاة فى أمن وعافية ، بل فى ترف ونعيم .

ألا يسيغ العقل - الذى يؤمن بِعَدَالَةِ الإله الواحد - بل يطلب أن توجد دار أخرى يجزى فيها المحسن بإحسانه ، والمسيىء بإساءته ؟

هذا ما تنطق به الحكمة السارية فى كل ذرة فى السموات والأرض **﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ، ما خلقناهما إلا بالحق ، ولكن أكثرهم لا يعلمون إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين ﴾** (2) .

---

(1) رسالة التوحيد صـ ۹۸ - ۱۰۰

(2) سورة الدخان : ۳۸ - ٤٠ .

﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار ، أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ . (١) (٢)

وجوب الإيمان بالملائكة

من الأمور التى أخبر بها الصادق المصدوق ﷺ ، والتى يجب الإيمان بها التصديق بالملائكة كما أخبر الله عنهم ، وكما وصفهم سبحانه وتعالى فى كتابه ، وصح فى سنة رسوله ﷺ والكلام فى الملائكة وعنهم مستفيض فى القرآن الكريم والسنة الشريفة ، ومانَذكره عنهم إنما هو فى نطاق ما علمناه من صريح القرآن وصحيح السنة مع الاكتفاء والاقتصار .

فالملائكة خلق من الأنواع التى خلقها الله ، لهم خصائصهم ، ووظائفهم ، ومعرفتهم بربهم ، يقبلون على طاعة ربهم فى غير تقصير ولا فتور ، يتشكلون بالأشكال الحسنة ولبعضهم القدرة على الأفعال الخارقة .

مم خلق الملائكة ؟

وقد ثبت عن النبى ﷺ أن الملائكة خلقوا من نور ، قال عليه الصلاة والسلام : « **خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم** » . (٣)

وهم مفطورون على عبادة الله وطاعته ، وخشيته وتعظيم أمره ، والرحمة بعباده والنصيحة لهم قال تعالى :

﴿ **يسبحون الليل والنهار لايفترون** ﴾ (٤)

---

(١) سورة ص ٣٧ - ٣٨

(٢) الدكتور يوسف القرضاوى فى كتاب العلم والإيمان ص ٤٣ .

(٣) جزء من حديث رواه مسلم

(٤) سورة الأنبياء : ٢٠

وقال : ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾[1]
وقال : ﴿ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾[2] . يسكن غالبهم السماء ، ومنهم من يسكن الأرض ، ينزلون بالوحى من ربهم لإبلاغه لعباده ﴿ الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ﴾[3] .

﴿ ينزِّل الملائكةَ بالروح من أمره على من يشاء من عبادة أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾[4] .

كما يتنزلون على المؤمنين بالبشريات عند احتضارهم قال تعالى : ﴿ إن الـذين قالـوا : ربنـا الله ثم استقـاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لاتخافوا ولاتحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ماتشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ﴾ . [5]

وهم يوجهون إلى عباد الله نصائح لطيفة ببيان الحق والخير والدعوة اليهـا ، والكشف عن البـاطـل والشر والتحـذير منها قال عليه الصلاة والسلام : « إن للشيطان لمة بابن آدم وإن للملك لمة : فأما لمة الشيطان : فإيعـاد بالشر وتكـذيب بالحق ، وأما لمة الملك : فايعاد بالخير وتصديق بالحق ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم ﴾ . [6] وهذا الحديث رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه

نعم : إن صلتهم بالبشر طابعها الشفقة عليهم ، والرحمة بهم ، فهم يسألون المغفرة لأهل الأرض عموما .

---

(١) سورة التحريم : ٦
(٢) الانبياء ٢٧ ، ٢٨
(٣) سورة الحج : ٧٥
(٤) سورة النحل : ٧٢ .
(٥) سورة فصلت : ٣٠ ، ٣١
(٦) سورة البقرة : ٢٦٨

قال تعـالى : ﴿ والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض ﴾ .[١]

ويستغفرون للمؤمنين خصوصا ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا : ربنا وَسِعْت كل شئ رحمـة وعلما فاغفـر للذين تابـوا واتبعـوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ، ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم ، وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته ، وذلك هو الفوز العظيم ﴾ .[٢]

كما أنهم يتنزلون بالنصر والتأييد للمؤمنين ﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴾ [٣] .

والملائكة يصلون على رسول الله ﷺ كما يصلون على المؤمنين ، ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبى ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ﴾ [٤]

﴿ هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما ﴾ . [٥] وللملائكة وظائف كلفهم الله بها ، وأقدرهم عليها فمنهم : الموكل بالوحى وهوجبريل عليه السلام وله أسماء منها : روح القدس ، والروح .

قال تعالى : ﴿ قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ﴾ .[٦]

---

(١) سورة الشورى : ٥
(٢) سورة غافر : ٧ ـ ٩
(٣) سورة الأنفال : ١٢
(٤) سورة الأحزاب : ٥٦
(٥) سورة الأحزاب : ٤٣
(٦) سورة النحل : ١٠٢

ومنهم ملك الموت قال تعالى : ﴿ **قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعـون** ﴾ . (١) وقـد جاء فى بعض الآثار أن اسمه عزرائيل واشتهر هذا على الألسنة ولكنه لم يأت من وجه صحيح يطمأن اليه .

ومنهم رضوان خازن الجنة ومالك خازن النار ومنهم إسرافيل وهو الموكل بالنفخ فى الصور لإماتة الخلق ثم لإحيائهم وبعثهم .

قال عليه الصلاة والسلام : « **كيف أنعم واسرافيل قد التقم الصور واستمع الإذن متى يؤمر بالنفخ فينفخ** » ، فكان ذلك ثقل على أصحاب رسول الله ﷺ .

فقال لهم : « **قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل** » . (٢)

ومنهم حملة العرش وهم أربعة فى الدنيا وثمانية يوم القيامة لعظم تجلى الحق سبحانه وتعالى ، قال سبحانه : ﴿ **ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية** ﴾ . (٣) وقد سبق حديث القرآن الكريم عنهم .

ومنهم الحفظة والكتبة ، وهل هما نوعان أوالحفظة هم الكتبة ؟ الظاهر أنهم صنف واحـد قال تعـالى : ﴿ **وإن عليكم لحافـظين كرامـا كاتبين يعلمون ما تفعلون** ﴾ (٤).

كما نؤمن بأن من خصائص الملائكة أنهم لايأكلون ولا يشربون ، ولا ينـامـون ولا يتنـاكحون لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة ، من وصفهم بأنوثة كفر ، ومن وصفهم بذكورة فسق ، بل هـم عباد مكرمون . .

---

(١) سورة السجدة : ١١ .
(٢) رواه الترمذى وقال : حديث حسن
(٣) سورة الحاقة : ١٧ ، ١٨
(٤) سورة الانفطار : ١٠ ـ ١٢ .

موقف البشر من الملائكة :

وموقف البشر بإزاء الملائكة مختلف ، فمنهم من آمن بهم كما أخبر القرآن الكريم عنهم ، وكشفت السنة عن أحوالهم ، وهم المؤمنون بالإسلام ، وبما ثبت عن نبيه عليه الصلاة والسلام .

ومنهم من جحدهم وأنكر وجودهم إنكارا تاما .

ومنهم من زعم أنهم بنات الله .

ومنهم من اتخذهم آلهة وعبدهم من دون الله .

والقرآن الكريم أشار الى هذه المقالات الضالة ، ونعى على معتنقيها ، وبين مبلغ ضلالهم ، وسوء حالهم ، وانعكاس فطرهم ، وظلام بصائرهم .

قال تعالى : ﴿ فاستفتهم : ألربك البنات ولهم البنون ، أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون ، ألا إنهم من إفكهم ليقولون : ولد الله وإنهم لكاذبون ، أصطفى البنات على البنين ؟ مالكم كيف تحكمون ﴾ (1) .

وقال : ﴿ إن الذين لايؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى ، وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ (2) .

والملائكة سوف يتبرأون يوم القيامة ممن عبدهم فى الدنيا واتخذهم آلهة من دون الله ، قال الله سبحانه : ﴿ ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ، قالوا : سبحانك أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ (3) ..

وقد يتمثل الملائكة فى صورة البشر كما ثبت فى الصحيح عن عمر بن

---

(1) سورة الصافات : ١٤٩ ، ١٥٤

(2) سورة النجم : ٣٧ ، ٣٨

(3) سورة سبأ : ٤٠ ، ٤١ .

الخطاب رضى الله عنه أنه قال : « **بينما نحن جلوس عند رسول ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد** بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لايرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى ﷺ ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخديه ، وقال : يامحمد أخبرنى عن الإسلام ؟

فأجابه النبى ﷺ ،

ثم سأل : عن الإيمان والإحسان والساعة وفى كل ذلك يجيبه عليه الصلاة والسلام .

فلما أدبر قال النبى ﷺ : « ردوا علىّ الرجل » . فأخذوا ليردوه فلم يروا شيئاً

فقال عليه السلام : « أتدرون من السائل »؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : «هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم » [(١)] .

وفى حديث آخر عن النبى ﷺ : « **أن رجلا زار أخا له فى الله فى قرية أخرى فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكا فلما أتى عليه قال : أين تريد ؟**

قال : أريد أخا لى فى هذه القرية .

قال : هل لك من نعمة تربها عليه ؟

قال : لاغير أنى أحببته فى الله تعالى .

قال : فإنى رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه » [(٢)] .

الإيمان بالقدر

من تمام الإيمان بالله سبحانه الإيمان بالقضاء والقدر .

فما هو القضاء ؟ وما هو القدر ؟

ثم ما علاقة القضاء والقدر بأعمال العبد ؟

---

(١) متفق عليه .

(٢) رواه مسلم .

وهل يسوغ له أن يتعلل بالقضاء والقدر لتبرير تقاعسه عما كلف به من واجبات ، أو الوقوع فى مانهى عنه من سيئات ؟ هذه الأسئلة التى يثيرها هذا البحث جديرة بالدرس المتأنى ، والفهم الواعى ، والنظر العميق ، والاستنارة فيها بنور الله سبحانه وتعالى ونور رسوله ﷺ من الكتاب الكريم والسنة المطهرة ، ثم بما جاء عن الصحابة والتابعين والعلماء العاملين رضوان الله عليهم أجمعين .

ولنبدأ بالكلام عن القضاء والقدر ما هما فنقول : القضاء : هو عبارة عن وجود الأشياء على الوجه الأكمل فى علمه تعالى على وجه كلى .

والقدر : إيجاد تلك الأشياء فى عالم الظهور على وجه تفصيلى يوافق القضاء السابق . [1]

ومن صفات الله تبارك وتعالى التفصيلية - وهو المتصف إجمالا بكل كمال ، المنزه المتعالى عن كل نقص - العلم الواسع المحيط ، والارادة الشاملة ، والقدرة الكاملة .

فصفة العلم : انكشف بها كل شىء مما كان أو سيكون أو هو كائن ، فالله قد أحاط بكل شىء علما **﴿ يعلم مايلج فى الأرض وما يخرج منها ، وماينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير ﴾** . [2] **﴿ يعلم ما فى السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور ﴾** [3] **﴿ وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ﴾** [4]. **﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلاهو ، ويعلم ما فى البر**

---

(١) الشيخ يوسف الدجوى : مجلة الازهر - العدد الرابع ربيع الثانى سنة ١٣٤٩ هـ واسمها نور الاسلام اذ ذاك .

(٢) سورة الحديد : ٤

(٣) سورة التغابن : ٤

(٤) سورة يونس : ٦١

والبحر وما تسقط من ورقة إلايعلمها ولاحبة فى ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾. [1]

ولما كان وجود الله تعالى أعلى الوجودات فإن علمه أعلى العلوم ، وهو علم أزلى لايفتقر إلى غير ذاته ، ولاينتهى بالجهل او الفناء كما هو شأن البشر وأشباههم من الخلق ، وتبارك الذى أثنى على نفسه فقال : **﴿ كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾** [2] **﴿ كل شىء هالك إلا وجهه ، له الحكم ، وإليه ترجعون ﴾** [3] .

والإرادة : صفة تخصص فعل العالم ، أما غير العالم بشىء أبدا فلا يعقل أن تكون له إرادة لشىء دون شىء آخر لأن المجهول المطلق لا تتوجه إليه إرادة [4] .

١ - **وقد ثبت** أن واجب الوجود هو موجد هذه الكائنات ، وأنه عالم بها وأن مايوجد من الممكنات لابد وأن يكون مطابقا لعلمه بها فإنه يلزم من ذلك ثبوت الإرادة له .

ذلك أن خلقه لتلك الكائنات الممكنة على وجه معين دون مايقابله من الوجوه ، ومجىء خلق تلك الممكنات على ذلك الوجه المعين مطابقا لعلمه بها يدل على أنه أراد فعله على ذلك النحو المطابق لعلمه بها دون غيره من الأنحاء إذ لو لم تأت أفعاله عن علم سابق بها لما كان مريدا .

فالنائم الذى يطوح بذراعه فيحطم شيئا لاعلم له بها فعل ، ومن ثم لم يتطابق فعله هذا مع علم سابق به ، ولهذا لا نصفه بالإرادة أثناء نومه ، بل نصف أعماله بأنها غير إرادية . .

---

(١) سورة الأنعام : ٥٩

(٢) سورة الرحمن : ٢٦ ، ٢

(٣) سورة القصص : ٨٨ .

(٤) العقيدة الإسلامية والأخلاق ص ٤٨

٢ ـ كل كائن مخلوق على قدر معين وصفة خاصة ، وله زمان ومكان محددان ، وهـذه وجـوه قد اختص بها دون غيرهـا من الـوجوه الممكنة ، وتخصيصه بها جاء على نحو مطابق للعلم بالضرورة ، وتخصيص الكائن ببعض الوجوه المتقابلة عن علم سابق بها هو حقيقة الارادة ﴾ (١) .

القدرة : وهى صفة بها الإيجاد والإعدام أى صفة يوجد بها الفاعل مايوجده ، من الأشياء والافعال ، وبعدم بها مايعدم منها .

والدليل على ثبوت صفة القدرة لله ـ سبحانه وتعالى ـ أن : (واجب الوجود هو مبدع هذه الكائنات وخالقها على مقتضى علمه وحكم إرادته أى على وفق علمه بما ستكون عليه من أحوال و إرادته لتلك الأحوال . ولما كان كذلك فلاشك أن بداهة العقل تحكم بأنه قادر ، لأن فعل العالم المريد فى تلك الكائنات التى يعلمها وعلى النحو الذى يريدها عليه فعلا يحقق علمه وإرادتـه فيهـا ـ إنـما يكـون بسلطة له على التصرف فى تلك الكائنات ، ولا معنى للقدرة إلا هذا السلطان على الأفعال) (٢) .

أمـا اختيار الله سبحانه فمعناه : إصدار الأثر بالقدرة على مقتضى العلم ، وحكم الإرادة أى : إيجاد الفاعل لأفعاله بقدرته على نحو مايقتضيه علمه بها ، وتحكم به إرادته بحيث تأتى الأفعال مطابقة للعلم ، والإرادة معا ﴾ (٣) .

على الصفـات المتقـدمة قامت عقيدة القضاء والقدر ، فالله العليم المريد القادر إذا أراد شيئا فإنما يقول له : كن فيكون ، فما إنْ تتوجه الإرادة إلى هذا الشىء وتتعلق بإبـرازه حتى يوجد على أكمل الوجوه التى أرادها

---

(١) المرجع السابق ـ صفحة ٤٩ .

(٢) العقيدة الإسلامية والاخلاق ، صفحة ٥٠

(٣) المرجع السابق ، ص ٥٢

وقدرها العليم الخبير : ﴿ وربك يخلق مايشاء ويختار ، ماكان لهم الخيرة ، سبحان الله وتعالى عما يشركون ﴾ [١] .

بهذا الهدى الكريم ندخل بعون الله فيما نحن بصدده فى القضاء والقدر .

هناك أمور تحدث وتتم بمحض القدرة العليا على وفق المشيئة الإلهية وحدها ، وهى تنفذ فى الناس طوعا وكرها ، سواء شعربها الناس أم لم يشعروا .

فالعقول ومقدار مايودع فيها من ذكاء أو غباء .

والأمزجة وما يلابسها من هدوء أو عنف .

والأجسام وما تكون عليه من طول أو قصر ، وجمال أوقبح .

والشخصيات وماتطبع عليه من امتداد أو انكماش ، والزمان الذى تولد فيه ، والمكان الذى تحيا به : والبيئة التى تنشأ فى ظلها ، والوالدان اللذان تنحدر منهما ، وما تتركه الوراثة فى دمك من غرائز وميول ، والحياة والموت ، والصحة والمرض ، والسعة والضيق ، ذلك ومثله لايد للإنسان فيه ، فاصابع القدر وحدها هى التى تتحرك ظاهرة وباطنة لتوجه الحياة كما يريدها صاحب الحياة ﴿ إن الله لايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ [٢] .

وغنى عن البيان أن شيئا من هذا ليس موضع مؤاخذة ، ولا موضع حساب ، وإنما لفتنا النظر إليها لتعرف أن الجنسية التى تنتمى إليها ، واللغة التى تنطق بها ، بل نوع التكوين الذى يوجد الإنسان عليه ذكراً كان ، أو أنثى ، هذا شىء من الخصائص التى لاقبل لنا بها ، ولا سبيل

---

(١) سورة القصص : ٦٨

(٢) سورة آل عمران : ٥ ، ٦

لنا إليها ، وفى مثلها يساق قول القرآن الحكيم : ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ، ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ، وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون ﴾ (١) .

والإيمان بهذا الضرب واجب ، والأدلة عليه متظاهرة من العقل والنقل (٢) فالكون وما يحدث فيه محكوم بضوابط محكمة وضعها ونظمها الحكيم العليم الذى أحاط بكل شىء علما ، وخلق كل شىء فقدره تقديرا ﴿ إنا كل شىء خلقناه بقدر ﴾ (٣) .

وعلى المسلم أن يسلم بما قدره الله مما لا حيلة له فيه ، ولا قدرة له على دفعه ، فمثلا إذا نزلت بالمؤمن نازلة ، أو ألم به مكروه ، أو خاب له أمل رأيته مفوضا لربه ، راضيا بقضائه ، شاكرا لنعمائه ، فإيمانه يعصمه ، ويقينه يحميه ، لأنه يعلم علم اليقين أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ﴿ ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ، ومن يؤمن بالله يهد قلبه ، والله بكل شىء عليم ﴾ (٤) .

وفى الحديث الذى أخرجه مسلم رحمه الله عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير ، احرص على ماينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شىء فلا تقل لوأنى فعلت كذا كان كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان » (٥) .

---

(١) سورة القصص : ٦٨ - ٧٠
(٢) عقيدة المسلم : ١٢٣ - ١٢٥
(٣) سورة القمر : ٤٩
(٤) سورة التغابن : ١١ .
(٥) أخرجه مسلم فى كتاب القدر.

وعقيدة المسلم على هذا الأســاس الـواضـح المستقيم تجعله رضى النفس ، قوى الإيمان يندفع لأداء واجبه ، وهو حريص على تحقيق الخير ونصرة الحق فى دنيا الناس غير مبال أوقع على الموت أم وقع الموت عليه ، لأن شعاره تلك الآية الكريمة : ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، هو مولانـا ، وعـلى الله فليتـوكل المؤمنون ﴾ (١) . فلا ترى المؤمن بحال من الأحوال هلوعا أو جزوعا ، وكيف وهو يقرأ قول الله تعالى :

﴿ ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ، لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ، والله لا يحب كل مختال فخور ﴾ (٢) .

أفعال العباد

وما تقدم هو الذى يعتقده المسلمون على اختلاف منازعهم ، ويدينون الله به ، لاخلاف بين أحد منهم فى شىء منه ، فلا خلاف بين أحد منهم فى إثبات القدر السابق ، ولا فى أن كثيرا مما يحدث فى الكون ويجرى على الخلق لا يد للعبـاد فيه أصلا من قريب أو بعيد ، وإنما هو محض فعل البارىء سبحانه وتدبيره ، وأثر أمره وتسخيره ، ولا عبرة بما ذهب إليه نفاة القدر الذين قالوا : ـ كلمتهم المشهورة ـ (لا قدر والأمر أنف) فإنه رأى ساذج ، ومذهب غث لا يستند إلى دليل أو شبه دليل من عقل أو نقل ، أو قرآن أو سنة .

بل العقل والنقل ، ونصوص القرآن الكريم والسنة المطهرة متظاهرة متواترة صريحة فى إثبات القدر السابق ، وفى إثبات الصفات التى قامت عليها وهى : العلم ، والإرادة ، والقدرة ، وكل هذا أثبته القرآن الكريم ،

---

(١) سورة التوبة : ٥١

(٢) سورة الحديد : ٣٢ ، ٣٣ .

وتابعته السنة فى ذلك فى صراحة وحسم ، لا تدع فرصة لمتردد ، أو متشكك .

ولكن الـذى اشتد حوله الجدال ، وكثر فيه القيل والقال هو أفعال العباد ، وبعبارة أوضح : أفعال العباد الاختيارية ، فقد انقسمت الأمة بشأنها شيعا وأحزابا ، لكل منها وجهته ، فهناك :

الجـبرية الـذين جردوا الإنسـان من كل إرادة واختيار ، وذهبـوا إلى التسـوية بين ما نطلق نحن عليه الأفعـال الاضـطرارية ، والأفعـال الاختيارية ، وقالوا : إن الإنسان مقهور فى كل ما يأتى ويذر ، وما يحدث منه من طاعة أو معصية ليس إلا خضوعا لسيطرة الإرادة والقدرة الآلهية .

ومن الجـبرية من قال : بخلق الله لجميع أفعال الإنسان ، وأن ما يفعله الإنسان هو مقارنة قدرته لقدرة الله فى خلق تلك الأفعال .

وفى القـول بالجـبر إبطال للشرائع ، وتهرب من المسئوليات بإسقاط التكـاليف ، ولـو كان الأمر كما زعموا لكان إرسال الرسل عبثاً ، ووجود الشرائـع لا معنى له ، لأن الشرائع قائمة على تكليف الإنسان بالأحكام الشرعية ، وتحـديد المسئـولية ليثـاب المطيع ، ويعاقب المسىء ولا معنى للثواب والعقاب إلا إذا كان للإنسان قدرة واختيار على إتيان ما يريد ، ولو كان مجبورا لكان تكليفه تكليفا بالمحال .

وأصحاب هذا الرأى مفترون باطلا على دين الله وهم يريدون إشباع غرائزهم الدنيا ثم يتعللون بالأقدار ، ويحكمون على العقل بالإعدام ، إذ المجبور كالسجين ، لا حرية له ولا تصرف ، وفى هدم **العقل هدم الدين** ، وفى ذلك من الفساد مالا يحتاج إلى بيان .

وهناك القائلون بسيطرة الإنسان المطلقة على جميع أفعاله وخلقه لها ، وهذا الرأى يقف على طرفى نقيض مع القول الأول .

وفى هذا القول من الغرور ما فيه ، إذ يحمل الإنسان على الاعتقاد بأنه مستقل عن قدرة الله تعالى وإرادته وسيطرته ـ سبحانه على الكون كله بجميع ما فيه ، وهذا الإنسان ليس إلا ذرة مما فى الكون ، فكيف يخرج عن الحكم الآلهى ؟

وإذا كان القولان السابقان يمثلان جانبى الإفراط والتفريط ـ وكلاهما ذميم ـ فإن الرأى المعتدل المستقيم الذى تتضافر على إثباته نصوص القرآن والسنة ، وبراهين العقل والنقل هو أن للإنسان قدرة وإرادة واختيارا فى إطار المشيئة الإلهية بها يختار وينفذ ويحقق ما ارتآه ، أو يحجم عن تنفيذه ، فهو له الحرية فى الاختيار والترك إلا أن هذا الاختيار لايخرج عن إطار ما قدره الله وأراده ، على نحو ما قال الله تعالى : ﴿ **لمن شاء منكم أن يستقيم ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين** ﴾ (1) .

بهذه الحرية التى منحت له ، والتى يشعر بها شعوراً لا يخامره شك أو شبهة ، وبذلك الاختيار الذى يقدم به على إيثار الشىء دون غيره ، والإقدام على الأمر دون سواه ، فيسلك طريق الخير إن شاء أو طريق الشر ان شاء يكون الثواب والعقاب ، فللإنسان الجانب الكسبى والجانب السببى ، ولكنه ـ كما سبق أن قلنا ـ ليس مستقلا ولا مستغنيا .

وإذا كانت الأشياء الجمادية لها تدخل فى الأشياء كما قال تعالى فى حق الماء : ﴿ **ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات** ﴾ (2) فجعل الإنبات به كما جعل الإحياء به فى الآية الأخرى ، فكيف لايكون لنا تدخل فيما يكون منا ؟ هل السبب الآلى أقوى من السبب المفكر المختار الذى يستطيع أن يغلب الأسباب الآلية ويسيرها فى أى طريق شاء وهو أعظم منها فإنها مسخرة له وهو مالكها ، فكيف لا يعطى ما

---

(1) سورة التكوير : ٢٨ ، ٢٩

(2) سورة النحل : ١٩

أعطيته من الأحكام وهو أقوى الأسباب وأعظمها ؟

ولماذا لا يجعلون من الأسباب التى يتوقف عليها الفعل نظر الإنسان وإرادته واختياره وترجيحه ؟

هل يكون لغير العاقل المقهور من التدخل فى الفعل ماليس للفاعل المختار؟ اللهم إن ذلك غير معقول فلم يبق إلا التحديد وبيان مقدار ماللعبد من ذلك وهو غير ضرورى للعلم الإنسانى بل غير ممكن ، فإن اكتناه الأشياء كما هى غير مستطاع للإنسان ولا داخل فى متناول قدرته ، فهذا الغذاء الذى هو من أظهر الأشياء لا نعرف من أمره إلا الظواهر التى لا تسمن ولا تغنى من جوع ، أما كيفية انقلابه إلى أعضاء مختلفة فلا نعرفها ولا نستطيع أن نعرفها ﴾ (1) .

فالقول بكون الإنسان مجبرا لا مختارا قول بإسقاط كل تبعة ، وكل مزية وجراءة على التسوية بين الخبيث ، والطيب ، وهو أمر يناقض العلم اليقينى ، وينافى البدهيات الأولية . ويعجبنى قول من قال : **كيف تزعم أنك جبرى مع أنك تجرى لأحضار الطبيب لمريضك ، وتدافع عن وطنك ، وتستدعى رجال المطافىء لإطفاء حريق بيتك** ، وتعمل على وقف النار التى بدأت تشب من شرارة أصابت أوراقك فى حجرة عملك ، وإن لديك عقلا ، وإنك لتنتفع به فيما تريد ولا سبيل إلى إنكار ذلك ، فالأشياء تقع بأسبابها ، ومنها الإرادة الإنسانية فهى بعض الأسباب العاملة فى سير الحوادث فى هذا الوجود .

ثم نقول : يوجد أعمال كبيرة لكبار الرجال ، فمن الذى يستطيع أن يقول : إنه لا فضل لهم فى إحداثها ، أو ليس لهم تدخل فيها ؟ أو بعبارة أخرى : أليسوا من أسبابها ؟ أو ليسوا هم أعظم أسبابها من حيث كونهم

---

(1) مجلة نور الإسلام ـ الشيخ العجوى ، صفحة ٣٠٠

رجالا ذوى عزيمة صادقة ، وإرادة قوية ، وأفكار حرة ؟ لا من حيث كونهم آلات مسخرة لا تستحق حمداً ولا شكراً .

ولا تستطيع أى سفسطة أن تزيل منا ذلك الاعتقاد أو تزحزحنا عنه ، وهو الذى نعتقد أنه يتملك كل نفس ، ويسيطر على كل عقل ، حتى عقول الأطفال وعقول الجهال ، فإن كل واحد منا يعتقد اعتقادا لا يدافع أن له أثراً أو تسببا فى كثير من الأشياء ، فنحن نعمل ونعتقد أننا فاعلون لا منفعلون ، ونعتقد أننا نبنى صرح المستقبل فى الدنيا والآخرة ، وإن كان ذلك على حد محدود ، وعلى قدرة وهبنا الله تعالى ، فكيف يصح أن يقال : إننا كمية مهملة فى الوجود مع أننا أكبر عوامله التى تعطيه الرواء والبهاء ؟

والنتيجة لهذا كله أن للإنسان تأثيراً فى وجود الأشياء ، فإنه حلقة كبيرة من حلقات سلسلة الوجود ، بل هو أعظم حلقاتها ، ولكنه غيرمستقل استقلالا تاما فى المسألة ، **فيجب أن يكون عليه من المسئولية بقدر ماله من الأثر** فى ذلك بذلك الفعل ، والتدخل فيه ، حتى إذا صار مكرها أو مجبرا فإنه يكون غير مسئول بالمرة ، فليس العبد مجبراً ، ولا آلة صماء ، كما يحس إحساساً لا يعارض عندما يعرض له أمر خطير ، بل عندما يسعى لرزقه ، أو جاهه ، ووظيفته ، وشهادته .

ومن العجب أنه فى أموره الدنيوية يكون معتزليا متطرفا ، وفى أموره الدينية يكون جبريا متطرفا اتباعا لما تهوى الأنفس : ﴿ ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ (1) .

ومع كوننا نقول : إنه غير مجبر نقول أيضا : إنه لا غنى له عن الله تعالى ، فَإنَّ علمه قاصر ، وقدرته قاصرة ، ولا سلطان له على الأمور الخارجية ، ولا على تتميم الموجبات لما يريد ، ولا منع الموانع عما يريد ،

---

(1) سورة النجم : ٢٣

فمن الموانع التى يجوز أن تحدث مالا يدخل تحت علمه وقدرته ، وأنت تعرف أنك حر ههنا ، ولكن كونك حرا لا يقتضى أن تكون غير مقيد بالقوانين ، ولا خاضع للدساتير . . الى آخر ما تعلم ولا تجهل .

فالأشياء يجب أن توضع فى مراكزها ولا تتعدى حدودها ، فإن الاستقلال التام يتبع القدرة القاهرة والعلم المحيط ، وليس ذلك لأحد إلا لله تعالى [1]

والذى نراه - بداهة وعقلا - : أننا نريد فعل الشىء ، أو تركه بمحض اختيارنا ، ونرجح هذا على ذاك ، ونحس بالحرية فى حركاتنا وسكناتنا وفى إرادتنا للأكل والشرب والنوم وسائر الأفعال ، ومع هذا كله فنحن نعلم بالبرهان العقلى أن مرد الأمور إلى الله وهو المالك لزمامها ، والمتصرف فيها فيما شاء كان ، ومالم يشأ لم يكن ﴿ **ولله غيب السموات والأرض ، وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه** ﴾ [2] .

وإحساسنا بحرياتنا بديهة وعقلا يؤكده ويقويه القرآن ، فالله تعالى يسند الأفعال إلى العباد وهو سبحانه قد كلفهم ، وما كان ليكلفهم ما هو خارج عن استطاعتهم أو ليس فى متناول قدراتهم ﴿ **لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت** ﴾ [3]

فالقرآن لا يخلى الإنسان من المسئولية على ما يحصل منه :

﴿ **قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ، فمن إهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها** ﴾ [4] .

فها أنت ذا ترى : أنه نسب إليه ما كسب وما اكتسب ، ونسب إليه

---

(١) مجلة نور الإسلام - العدد المشار أليه سابقا
(٢) سورة هود : ١٢٣
(٣) سورة البقرة : ٢٨٦
(٤) سورة يونس : ١٠٨

الهداية والضلال ، ولكن مع ملاحظة ، واستحضار أن قدرة الله هى المرجع فى كل الحالات لجميع الكائنات ، ومن آثارها الحيلولة بين العبد وبين إتمام ما يريد :

﴿ يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه اليه تحشرون ﴾ (١)

وعلى العبد الأخذ فى الأسباب ، وإحكام الأمور وتدبيرها ، معتقدا أن المعين هو الله رب العالمين ، فلا حول ولا قوة إلا به .

والعمل يسند إلى الله على أنه الفاعل له ويسند للعبد على أنه سبب فيه ، يقول الله تعالى : ﴿ أفرأيتم ما تحرثون ، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ﴾ (٢) . ففى الإمكان أن تسمى الفلاح زارعا لأنه سبب ، وتسمى الحق زارعا لأنه تولى الإنبات . فازرع خيرا تحصد خيرا ، وازرع شراً تحصد ما زرعت .

من يزرع الشر يحصد فى عواقبه ... ندامةً ولحصدِ الزرَّع إبَّانُ

﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ (٣)

﴿ إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا ، ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلا ﴾ (٤) .

فمسئولية الإنسان إذن إنما تكون عن فعله سواء كان قلبياً كالإيمان والكفر والإخلاص والرياء ، والكبر والتواضع ، والحب والكراهية أو عملياً يتعلق بالجوارح كالعبادات والطاعات ، أو الموبقات والسيئات من نحو

---

(١) سورة الأنفال : ٢٤
(٢) سورة الواقعة : ٦٣ ، ٦٤
(٣) سورة الزلزلة : ٧ ، ٨
(٤) سورة طه : ٧٤ ، ٧٥

الكذب والسرقة وشرب الخمر ونحوها من أعمال الجوارح .

والثواب أو العقاب مبنيان على ما اختاره العبد وارتضاه :

﴿ إن سعيكم لشتى ، فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ﴾ (1) .

فكل إنسان يختار لنفسه طريقها ، والله ييسر له ما اختار من غير جبر ولا قهر :

﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ : أى أعمال العباد التى اكتسبوها والتى هم بصدد اكتسابها متضادة ومتخالفة ، فمن فاعل خيرا ومن فاعل شرا قال تعالى : **﴿ فأما من اعطى واتقى ﴾** اى اعطى ما أمر باخراجه واتقى فى أموره **﴿ وصدق بالحسنى ﴾** أى بالمجازاة على ذلك . قاله قتادة .

وقال خصيف : بالثواب ، وقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وأبو صالح وزيد بن أسلم : **﴿ وصدق بالحسنى ﴾** أى بالخلف .

وقال أبو عبد الرحمن السلمى والضحاك : **﴿ وصدق بالحسنى ﴾** أى بلا اله الا الله .

وفى رواية عن عكرمة : ﴿ وصدق بالحسنى ﴾ أى : بما أنعم الله عليه .

وفى رواية عن زيد بن أسلم : **﴿ وصدق بالحسنى ﴾** قال : الصلاة والزكاة والصوم وقال مرة ، وصدقة الفطر .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا صفوان بن صالح الدمشقى ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا زهير بن محمد ، حدثنا من سمع أبا العالية الرياحى يحدث عن أبى بن كعب قال : سألت رسول الله ﷺ : عن الحسنى ؟ قال : (الجنة) .

---

(1) سورة الليل : ٤ - ١٠ .

وقوله تعالى : ﴿ فسنيسره لليسرى ﴾ قال ابن عباس : يعنى للخير، وقال زيد ابن أسلم : يعنى للجنة ، وقال بعض السلف : من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، ومن جزاء السيئة السيئة بعدها ؛ ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وأما من بخل ﴾ أى : بما عنده ﴿ واستغنى ﴾ قال عكرمة عن ابن عباس : أى بخل بماله واستغنى عن ربه عز وجل ، راواه ابن أبى حاتم .

﴿ وكذب بالحسنى ﴾ أى : بالجزاء فى الدار الآخرة ﴿ فسنيسره للعسرى ﴾ أى : لطريق الشر .

كما قال الله تعالى : ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ونذرهم فى طغيانهم يعمهون ﴾ .

والآيات فى هذا المعنى كثيرة دالة على : أن الله يجازى من قصد الخير بالتوفيق له ، ومن قصد الشر بالخذلان ، وكل ذلك بقدر مقدور .

قال الإمام أحمد : حدثنا على ابن عباس ، حدثنا العطاف ابن خالد ، حدثنى رجل من أهل البصرة عن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى أبكر الصديق عن أبيه قال : سمعت أبى يذكر : أن أباه سمع أبا بكر وهو يقول : قلت يا رسول الله ، أنعمل على ما فرغ منه أو على أمر مؤتنف ؟ قال : « بل على أمر قَدْ فرغ منه » قال : ففيم العمل يا رسول الله ؟ قال : « كل ميسر لما خلق له » اهـ (١) .

فالله سبحانه وتعالى ـ وله الحكمة البالغة والحجة القاطعة ـ قد هدى الإنسان النجدين وبين له السبيل إما شاكرا وإما كفورا ، فمدار الأمر على ما يختاره الإنسان لنفسه ، فإن اختار طريق الخير وفقه الله وأعانه ، وإن اختار طريق الشر يسر الله له ما اختار .

قال تعالى : ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين ، الذين ينقضون عهد الله

---

(١) تفسير ابن كثير : ٤ / ٥١٨ .

من بعـد ميثـاقـه ، ويقـطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون فى الأرض ، أولئك هم الخاسرون ﴾ (١)

وقـال تعـالى : ﴿ فلما زاغـوا أزاغ الله قلوبهم ، والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ (٢) وقال : ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ، ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم ، وساءت مصيرا ﴾ (٣) .

وفى جانب الهـداية والضـلال معا يتحدث القرآن الكريم فيقول : ﴿ قل : إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب ، الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ (٤) .

فمسئـولية الإنسـان إنـما هى على نفسه بعد اختياره الحر لما يريد ، وسلوكه سبيله كما قال الحق جل وعلا ﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة ، ولو ألقى معاذيره ﴾ (٥) .

التعلل بالأقدار لا معنى له

ولقد زعم المشركون أن الله رضى منهم الشرك ، وأنه لو شاء لحملهم على الإيمان وقد تجاهلوا ما وهبهم الله من استعداد للخير والشر والهداية والضلال ، وقد حكى الله فى كتابه مزاعمهم ، وبين بطلانها ، وعدم جدواها .

قال سبحانه : ﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا ، ولا حرمنا من دونه من شىء ، كذلك فعل الذين

---

(١) سورة البقرة : ٢٦ ، ٢٧ .
(٢) سورة الصف : ٥ .
(٣) سورة النساء : ١١٥ .
(٤) سورة الرعد : ٢٧ ، ٢٨ .
(٥) سورة القيامة : ١٤ ، ١٥ .

من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ، ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ، ومنهم من حقت عليه الضلالة ، فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ، إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل ، وماهم من ناصرين ﴾ [1] .

يقول ابن كثير فى تفسير هذه الآيات : يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الإشراك واعتذارهم محتجبين بالقدر بقولهم : لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شىء . أى : من البحائر ، والسوائب ، والوصائل وغير ذلك مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم مما لم ينزل به سلطانا .

ومضمون كلامهم أنه لو كان الله تعالى كارها لما فعلنا لأنكره علينا بالعقوبة ولما أمكننا منه ، قال تعالى - رادا عليهم شبهتهم - : **﴿ فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ﴾** أى : ليس الأمر كما تزعمون أنه لم ينكره عليكم بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار ، ونهاكم عنه آكد النهى ، وبعث فى كل أمة أى : فى كل قرن ، وطائفة من الناس رسولا ، وكلهم يدعون الى : عبادة الله ، وينهون عن : عبادة ما سواه : **﴿ أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾** .

فلم يزل الله تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك فى بنى آدم فى قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح ، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم محمد ﷺ الذى طبقت دعوته الجن والإنس فى المشارق ، والمغارب وكلهم كما قال الله تعالى : **﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾** [2] .

---

(١) سورة النحل : ٣٥ - ٣٧ .
(٢) سورة الأنبياء : ٢٥

﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا : أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ (١)

وقال تعالى فى هذه الآية الكريمة : **﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾** .

فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول : **﴿ لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء ﴾** ؟ .

فمشيئته تعالى الشرعية عنهم منتفية لأنه نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله ، وأما مشيئته الكونية وهى تمكينهم من ذلك قدراً فلا حجة لهم فيها ، لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين ، والكفرة ، وهو لا يرضى لعباده الكفر ، وله فى ذلك حجة بالغة ، وحكمة قاطعة (٢) .

وقد زيف القرآن أباطيل المشركين وافتراءاتهم ، يقول الله تعالى : **﴿ سيقول الذين أشركوا : لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء ، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل : هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، إن تتبعون إلا الظن ، وإن أنتم إلا تخرصون ﴾** (٣) .

وهم يزعمون : أن الله لو كان غير راض عما نحن فيه لحال بيننا وبينه ، فلما لم يفعل دل ذلك على رضاه بذلك .

يقول الله تعالى : **﴿ قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ﴾** . يدل على : زعمكم ويؤيدكم فى اتجاهكم ، وليس لهم من ذلك شىء .

ولذا يقول سبحانه : **﴿ إن تتبعون إلا الظن ﴾** أى : الوهم والخيال ، والمراد بالظن ههنا : الاعتقاد الفاسد : **﴿ وإنْ أنتم إلا تخرصون ﴾** أى :

---

(١) سورة الزخرف : ٤٥

(٢) تفسير ابن كثير ٦ / ٥٦٨ ، ٥٦٩ .

(٣) سورة الأنعام : ١٤٧ ، ١٤٨ .

تكذبون أشد الكذب على الله فيما تدعون وفيما تزعمون .

بقى سؤالان لا مناص لنا من التعرض لهما والإجابة عليهما . .

الأول : ما السر فى أننا نرى بعض الناس قد أعطى من المواهب مالم يعط غيره ، ونال من التوفيق مالم ينله سواه ؟

والثانى : إذا كان الله تعالى قد علم كل شىء أزلاً وقدره على عباده ولابد أن تكون الأعمال مطابقة للعلم الإلهى السابق ، أفلا يكون معنى هذا أن الإنسان مضطر فى مايأتى ويذر ، ولا اختيار له ؟

والجواب عن الأول :

إن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والفضل لاحجر عليه ، وأما قوله تعالى : ﴿وأن ليس للإنسان إلا ماسعى﴾ [1] فهذا من باب العدل ، وأما الفضل فإن الله تبارك وتعالى قال : ﴿قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم ، يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ [2] .

والجواب عن الثانى :

إن صفة العلم صفة انكشاف ، وليست صفة تأثير فهذا العلم الشامل المحيط لامدخل له فى اتجاه الإنسان الذى يصدر عن اختيار ، وإرادة ، وحرص منه ، وذلك أن العلم لا علاقة له بالجبر ، والاختيار ، فعلم الله ليس ملزماً للإنسان ، ولا مانعاً من فعل مايريد بمحض إرادته واختياره .

القدر سر لايستطاع إدراكه

وقد أراد الله بنا وأراد منا : أراد بنا ماقدره علينا ، وأراد منا ماكلفنا

---

(١) سورة النجم : ٣٩

(٢) سورة آل عمران : ٧٣، ٧٤

به ، **فلاينبغي أن نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا** ، والقدر سر استأثر الله به ، ووقع فى السنة التحذير من الخوض فيه .

قال ـ ﷺ ـ : «إذا ذكر القدر فأمسكوا» [1] **وكلامنا فيه ـ معشر** البشر ـ إنما هو وقوف بساحله ، أما لجته فمن خاضها هلك ، سئل رجل من الصالحين عن رأيه فى القدر فقال : رأيى فيه رأى ابنتى وكانت طفلة صغير لاتدرك شيئاً من هذا فكأنه يقول : لا رأى لى .

وقد سأل الإمامَ علياً رضى الله عنه وكرم الله وجهه شيخ ـ بعد انصرافه من صفين ـ **فقال أخبرنى عن مسيرنا إلى الشام : أكان بقضاء الله وقدره ؟**

فقال : والذى خلق الحبة وبرأ النسمة ماوطّئنا ولاهبطنا وادياً ، ولا علونا تلعة إلا بقضاء الله وقدره .

فقال الشيخ : فعند الله أحتسب عنائى ، ماأرى لى من الأمر شيئاً .

فقال له : (مه أيها الشيخ عظم الله أجركم فى مسيركم وأنتم سائرون ، وفى منصرفكم وأنتم منصرفون ، ولم تكونوا فى شىء من حالاتكم مكرهين ، ولا إليها مضطرين .

فقال الشيخ : فكيف ساقنا القضاء والقدر ؟

قال : ويحك . لعلك ظننت قضاء مجبراً ، وقدراً قاسراً ، لو كان ذلك لبطل الثواب والعقاب ، والوعد والوعيد ، والأمر والنهى ، ولم تأت لائمة من الله لمذنب ، ولا محمدة لمحسن ، ولم يكن المحسن أولى بالمدح من المسىء ولا المسىء أولى بالذم من المحسن ، تلك مقالة عبدة الأوثان ، وجنود الشيطان ، وشهود الزور ، وأهل العمى عن الصواب ، وهم قدرية هذه الأمة ومجوسها ، إن الله أمر تخييراً ، ونهى تحذيراً ، وكلف يسراً ، لم يعص مغلوباً ، ولم يطع مستكرهاً ، ولم يرسل الرسل إلى خلقه عبثاً ، ولم يخلق

---

(١) جزء من حديث رواه الطبرانى

السموات والأرض ومابينهما باطلاً ، ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار) [1]

ومن دعوات العارف بالله تعالى أبى الحسن الشاذلى رحمه الله وأثابه : (اللهم إنى أتوسل بك إليك ، اللهم إنى أقسم بك عليك ، اللهم كما كنت دليلى عليك ، فكن شفيعى إليك.

اللهم إن حسناتى من عطائك ، وسيئاتى من قضائك فجد اللهم بما أعطيت على مابه قضيت حتى تمحو ذلك بذلك . لا من أطاعك فيما أطاعك فيه له الشكر ، ولا لمن عصاك فيما عصاك فيه له العذر ، لأنك قلت وقولك الحق : ﴿لايسأل عما يفعل وهم يسألون﴾ [2] .

اللهم لولا عطاؤك لكنت من الهالكين ولولا قضاؤك لكنت من الفائزين ، وأنت أجل وأعظم ، وأعز وأكرم من أن تطاع إلا بإذنك ورضاك ، أو تعصى إلا بحكمك وقضائك ، إلهى ما أطعتك حتى رضيت ، ولا عصيتك حتى قضيت أطعتك بإرادتك والمنة لك على ، وعصيتك بتقديرك والحجة لك على ، فبوجوب حجتك وانقطاع حجتى إلا مارحمتنى ، وبفقرى إليك وغناك عنى إلا ماكفيتنى يا أرحم الراحمين) [3]

(أما بعد) فالإيمان بالقدر : يملأ نفس المؤمن بالطمأنينة ، وقلبه بالسكينلله ، ويحفزه إلى قوة العزيمة ، وخلق الشجاعة ، وفضائل الصبر والرضا والثبات ، لأنه يعلم أنه لايملك الحياة إلا واهبها ، ولايملك الرزق والعطاء إلا مانحه ومسديه وهو المنعم الوهاب سبحانه .

وأن ماقدر له أو عليه فإنه مصيبه لامحالة ، فلا يهلع ولايجزع ولايحسد

---

(١) مجلة نور الإسلام ـ العدد المذكور سابقا

(٢) سورة الأنبياء : ٢٣

(٣) كتاب أبى الحسن الشاذلى ـ للدكتور عبد الحليم محمود ١٩٦٨ ـ ١٦٩ .

ولايحقـد ، ولايشمت ولاينـافق ، بل يواجـه الحياة بوجـه باسم ، وصدر منشرح وقلب نقى رضى ، واندفاع لعمل صالح يسعد به فى دنياه ، وتحسن به عقباه .

يقول ﷺ : **«لايؤمن عبد حتى يؤمن بأربع : يشهد أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله بعثنى بالحق ، ويؤمن بالبعث بعد الموت ، ويؤمن بالقدر»** .

الباب الثالث
العبادة وأثرها فى الفرد والجماعة

الفصـل الأول
أثر العبادة فى صلاح الفرد

يجدر بنا ـ قبل أن نتحدث عن أثر العبادة فى صلاح الفرد ، وتقويم أخلاقه وتزكية نفسه ، وتهذيب وجدانه ، وتوجيهه الوجهه النافعة ـ **أن نشير إلى الغـاية من وجود هذا الإنسان** ، والحكمة التى من أجلها خلقه ربه وسواه ، وأمده بالعلوم والمعارف ، وسخر له الكائنات ، وهى غاية سبق أن تناولناها فى مناسبات عدة ، إلا أننا نجد أنفسنا ملزمين بمعاودة التذكير بها هنا لأنها مدخل لابد منه لما نريد أن نتكلم فيه ، ونصل إليه .

الغاية من خلق الانسان

إن الغاية من خلق الناس هى أن يعبدوا ربهم مخلصين له الدين ، ويتعرفوا إليه بطاعته وعبادته ، وذكره وشكره ، وإنَّ منازلهم عنده تتحدد على ضوء هذه العبـادة . وهـذا التعـرف . ولاعـبرة بها وراء ذلـك من علوم ومعارف ، أو أعمال وعبادات إذا جهل العبد ذلك ، أو أعرض عنه وتهاون فيه .

فلو افترضنا أن إنسانا من الناس أتيح له من العلم والمعرفة أقصى ما يتاح لبشر ، ثم لم يعرف ربه فهو جاهل .

ولو افترضنا كذلك أن رجلا قام بكل ماكلف به من واجبات فى : بيته وعمله ونحو وطنه وأعرض عن واجبه نحو ربه فهو مقصر ، بل من أشد الناس تقصيرا .

وفى سبيل تحقيق هذه الغـاية النبيلة فإن الله سبحـانه **أوصى عباده بالفضائل ، وحذرهم من الشرور والرذائل** ، لقد أوصاهم بذلك إجمالا فى مواطن كثـيرة نذكـر منهـا : قول الحق سبحانه : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل**

والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ . (١)

وأوصاهم بذلك على التفصيل فى مواطن كثيرة كذلك من كتابه الكريم ، وعلى لسان خاتم رسله ﷺ : لقد أوصى سبحانه بالإخلاص ، وحذر من الرياء وأمر بالتواضع ، وحذر من الكبر ، لقد حث على الجود والسماحة ، وحذر من الشح والبخل ، وهكذا . .

إنه ما من مكرمة إلابينها الدين ودعا إليها ، ورغب فيها ، وأشار إلى بركاتها وما من رذيلة إلانهى عنها ، وحذر منها ، وأشار إلى شؤمها وغوائلها ، وسوء عاقبتها .

ونستطيع أن نتخذ من هذه الغاية مقياسا نحكم به على الأفراد والجماعات ، فمن تحققت له هذه الغاية فى التعرف إلى ربه ، وامتثال أمره ونهيه ، والوقوف عند حدوده ، وارتقت مشاعره ، فصار يحب لله ، ويبغض لله ، ويعطى لله ، ويمنع لله ، فإنه يعتبر من وجهة نظر الدين قد صلح أمره ، واستقام حاله ، ورجى خيره ، وأمن شره ، وهذا الصنف من الناس هم الذين يصفهم القرآن الكريم بالعقل فهم أولو الألباب دون سواهم ، لأن العاقل من عقل عن الله أمره ونهيه . قال سبحانه وتعالى : ﴿ **فبشر عباد ، الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب** ﴾ (٢)

إنهم الذين ينتفعون بعقولهم وقلوبهم ، وأسماعهم وأبصارهم ، فيذكرون ربهم مستحضرين ماله من جلال وجمال ، وإحسان وكمال ، ويتفكرون فى مخلوقاته وبديع آياته ، ويبتهلون إليه ، ويتوكلون عليه ،

---

(١) سورة النحل : ٩٠

(٢) سورة الزمر : ١٧، ١٨

تحصر فى الآخرة همتهم وتلهج بالخير ألسنتهم ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض : ربنا ما خلقت هذا باطلا ، سبحانك فقنا عذاب النار ، ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته ، وما للظالمين من أنصار ، ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولاتخزنا يوم القيامة ، إنك لاتخلف الميعاد ﴾ [1] .

وأما من حالت شهوته وهواه ، وإيثاره لهذه الحياة على ابتغاء مرضاة مولاه والرغبة فيما عنده ، وعجز عن تحقيق هذه الغاية والتحقق بها فإنه يعتبر من وجهة نظر الدين فاشلاً ، خسر الدنيا والآخرة ، وضيّع حياته سدى

ويتحدث القرآن الكريم عن هؤلاء الحمقى ، فيقول : ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾ . [2]

ويحذر المؤمنين من صنيعهم ويذكر سوء عاقبتهم ويقارن بينهم وبين أهل الإخلاص والإيمان والاستجابة فيقول : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد ، واتقوا الله ، إن الله خبير بما تعملون ، ولاتكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ، لايستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾

وقد يكون لبعض هؤلاء الأشقياء حسن تصرف فى جمع المال واقتنائه وتثميره ، وكسب الجاه والوصول إلى المناصب ، ومعرفة ما يستجلبون به ذلك كله ، وقد يثنى عليهم الناس بالعقل ، ويصفونهم بالنجاح ، والذين

---

(١) سورة آل عمران : ١٩٠ - ١٩٤ .
(٢) سورة التوبة : ٦٧
(٣) سورة الحشر : ١٨ - ٢٠

الدين ينظر إلى هؤلاء نظرة تختلف عن هذه النظرة القصيرة ، فلا عبرة بما قد يكون لهم من علم أو عمل ، وأى قيمة لعلم من يجهل ربه ، وأى عمل لمن جحد حق مولاه ؟ إن هؤلاء هم الذين عناهم القرآن الكريم حين قال : ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون** ﴾ (١) . ﴿ **أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ؟ إن هم إلا كالانعام ، بل هم أضل سبيلا** ﴾ (٢) .

وفى حديث **حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال** : حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر : حدثنا : «أن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن ، فعلموا من القرآن وعلموا من السنة » .

ثم حدثنا عن رفع الأمانة قال : «**ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الكوت، ثم ينام النومة فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرها مثل المجل، كجمرٍ دحرجته على رجلك فتراه مُنْتَبِراً، وليس فيه شىء ثم أخذ حصى فَدَحْرَجَهُ على رجله، فيصبح الناس يتبايعون لايكاد أحد يؤدى الأمانة حتى يقال: إن فى بنى فلان رجلاً أميناً، وحتى يقال للرجل: ما أجلَدَه، ما أظـرفَهَ، ما أعقله، وما فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان**»، ولقد أتى على زمان وما أبالى أيكم بايعت: لئن كان مسلما ليردنه على دينه، ولئن كان نصرانيا، أو يهوديا ليردنه على ساعيه، وأما اليوم فما كنت إلا لأبايع فلانا وفلاناً (٣)

ويحذر القرآن الكريم من الاغترار بما يفتح على هؤلاء من زهرة الحياة الدنيا ، وما يفتنون به من مال وبنين ، وجاه وسلطان ، فإن ذلك كله إلى

---

(١) سورة الروم : ٦، ٧

(٢) سورة الفرقان : ٤٤

(٣) أخرجه مسلم فى كتاب الايمان ٢ / ١٦٩

زوال ومن اغتر به وركن إليه ، واطمأن إليه ، وحصر همته فيه كان مصيره النار ، وبئس القرار قال سبحانه وتعالى : ﴿ لايغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد ، متاع قليل ، ثم مأواهم جهنم ، وبئس المهاد ﴾ . (١)

ويقتلع القرآن ما قد يتبادر إلى بعض الأذهان من أن الخير الدنيوى الذى غمروا فيه ، ومتعوا به دليل على كرامتهم على الله ، وفضيلتهم عنده ، مبينا أن الخير كل الخير ، والعطاء الحقيقى إنما هو فى الاستجابة لأمر الله ، وانشراح الصدر بطاعته ، وابتغاء مرضاته ، ووجل القلوب من خشيته يقول سبحانه : ﴿ أيحسبون أنما نمدُّهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات ؟ ، بل لايشعرون ، إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ، والذين هم بآيات ربهم يؤمنون ، والذين هم بربهم لايشركون ، والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ، أولئك يسارعون فى الخيرات ، وهم لها سابقون ﴾ . (٢)

وفى حديث ابن مسعود رضى الله عنه عند الإمام أحمد مرفوعاً يقول عليه الصلاة والسلام : « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الدين إلا من أحب ، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه » . (٣)

دور العبادة فى إصلاح الفرد

وللعبادة دورها الفعال ، وتأثيرها القوى فى إصلاح الفرد ، وتقوية إيمانه وشحذ عزيمته ، وتربية
كالإخلاص والصدق ، والحلم والتواد

(١) سورة آل عمران : ١٩٦، ١٩٧

(٢) سورة المؤمنون : ٥٥-٦١

(٣) أخرجه الامام أحمد

والإحسان ، والسماحة والكرم ، واليقين والتوكل ، والصبر والرضا ، والقناعة والعفاف ، وتطهيره من الصفات المرذولة مثل الشك والرياء ، والنفاق والمداهنة ، والكبر والعجب ، والحسد والحقد ، والغل والبغضاء ، والفحش والكذب ، والشح والبخل وغير ذلك من الصفات .

وقد أشار القرآن الكريم إلى بركات العبادة وثمراتها إجمالا حين قال : ﴿ **يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ (1) .

كما أشار إلى أثر الصيام فى ذلك على وجه خاص فقال : ﴿ **يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ (2).

وتحدث عما تثمره الصلاة فقال : ﴿ **اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر والله يعلم ماتصنعون** ﴾ . (3)

وبين ما ينبغى أن يكون عليه من أراد الحج من مكارم الأخلاق ، ومحاسن الصفات فقال : ﴿ **الحج أشهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولافسوق ولاجدال فى الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، واتقون يأولى الألباب** ﴾ (4) .

وأوضح عليه الصلاة والسلام الحج الذى يقبله الله ويثيب عليه أجل الثواب فقال : « **من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه** » (5) .

---

(1) سورة البقرة : ٢١

(2) سورة البقرة : ١٨٣

(3) سورة العنكبوت : ٤٥

(4) سورة البقرة : ١٩٧

(5) متفق عليه

التقـوى

لكن ما هى التقوى التى جعلها الله سبحانه غاية للعبادة ؟ والتى بين أن منازل العباد عنده سبحانه تابعة لها ، فكلما ازدادت التقوى لدى عبد أصبح كريما على ربه أكثر من غيره ممن أقل منه شأنا فى أمر التقوى حسبما قال جل شأنه : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ (١) .

ورتب على التحقق بها ألوانا من العطاء الجزيل فى الدنيا والآخرة ، وأوصى بها المتقدمين والمتأخرين فقال سبحانه : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ (٢) وقال : ﴿ ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا ﴾ (٣)

وقال : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا ، يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ﴾ . (٤)

وقـال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم ﴾ (٥) .

وبين أوصاف المتقين فى ارعوائهم عن الشر ، وسرعة مبادرتهم إلى الخير فقال : ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ (٦) .

وقال : ﴿ ولله ما فى السموات وما فى الأرض ، ولقد وصينا الذين أُوتُوا

---

(١) الحجرات : ١٣

(٢) سورة الطلاق : ٣

(٣) سورة الطلاق ٥

(٤) سورة الأحزاب : ٧٠ : ٧١

(٥) سورة الأنفال : ٢٩

(٦) سورة الأعراف : ٢٠١

الكتـــاب من قبلكم وإياكم أن اتقـــوا الله ، وإن تكفـروا فإن لله ما فى السموات وما فى الأرض ، وكان الله غنيا حميدا ﴾ [1] .

لقـد عرض العـلامـة ابن رجب الحنبـلى فى كتابه : (**جامع العلوم والحكم**) لبيان معنى كلمة (**التقوى**) ، وأورد آثارا للصحابة وأتباعهم من السلف رضوان الله عليهم أجمعين ـ فى بيان حقيقتها ، وتوضيح معناها ، وآثارها وثمراتها وذلك فى أثناء شرحه لحديث معاذ بن جبل مرفوعا « اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن » رواه الترمذى وحسنه .

قال رحمه الله : وأصل التقوى أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه ، فتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبـه ، وسخـطه ، وعقـابـه ـ وقـاية تقيه من ذلك ، وهو فعل طاعته واجتناب معاصيه .

وتارة تضاف التقوى إلى اسم الله عز وجل كقوله تعالى : **﴿ واتقوا الله الـذى إليه تحشرون ﴾** [2]. وقال تعالى : **﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾** [3].

وإذا أضيفت التقوى إليه سبحانه فالمعنى : اتقوا سخطه وغضبه ، وهو أعظم ما يتقى ، وعن ذلك ينشأ عقابه الدنيوى والأخروى .

قال تعـالى : **﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾** [4] وقال تعالى : **﴿ هو أهل التقـوى وأهـل المغفرة ﴾** [5] فهو أهل أن يخشى ويهاب ويجل ويعظم فى

---

(١) سورة النساء : ١٣١ .
(٢) سورة المائدة : ٩٦
(٣) سورة الحشر : ١٨
(٤) سورة آل عمران : ٣٠
(٥) سورة المدثر ٥٦

صدور عباده ، حتى يعبدوه ويطيعوه لما يستحقه من الإجلال والإكرام وصفات الكبرياء والعظمة وقوة البطش وشدة البأس .

وفى الترمذى عن أنس عن النبى ﷺ فى هذه الآية : ﴿ هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴾ قال : قال الله تعالى : (أنا أهل أن أتقى ، فمن اتقانى فلم يجعل معى إلها آخر ، فأنا أهل أن أغفر له) [1]

وتارة تضاف التقوى إلى عقاب الله وإلى مكانه كالنار ، أوإلى زمانه كيوم القيامة قال تعالى : ﴿ واتقوا النار التى أعدت للكافرين ﴾ [2] وقال تعالى : ﴿ فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ [3] وقال تعالى : ﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ﴾ [4] . ﴿ واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ﴾ [5] . .

ويدخل فى التقوى الكاملة فعل الواجبات وترك المحرمات والشبهات وربما دخل فيها بعد ذلك فعل المندوبات وترك المكروهات ، وهى أعلى درجات التقوى .

قال الله تعالى : ﴿ الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ﴾ [6]

وقال تعالى : ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم

---

(١) أخرجه الترمذى وقال: حَسَنٌ غريب .

(٢) سورة آل عمران ١٣١

(٣) سورة البقرة : ٢٤ .

(٤) سورة البقرة : ٢٨١

(٥) سورة البقرة : ١٣٣

(٦) سورة البقرة : ١ ـ ٤

إذا عاهـدوا والصـابـرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون ﴾ [1] .

قال معاذ بن جبل : ينادى يوم القيامة أين المتقون ؟ فيقومون فى كنف من الرحمن لا يحتجب منهم ولا يستتر .

قالوا له : من المتقون ؟

قال : قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان ، وأخلصوا لله بالعبادة .

وقال ابن عباس : المتقون : الذين يحذرون من الله عقوبته فى ترك ما يعرفونه من الهدى ، ويرجون رحمته فى التصديق بما جاء به .

وقال الحسن : **المتقون** : اتقوا ما حرم الله عليهم ، وأدوا ما افترض الله عليهم .

وقال عمر بن عبد العزيز : ليس تقوى الله بصيام النهار وقيام الليل ، والتخليط فيما بين ذلك ، ولكن تقوى الله ترك ما حرم الله ، وأداء ما افترض الله فمن رزقه بعد ذلك خيرا فهو خير إلى خير .

وقال طلق بن حبيب : التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله .

وعن أبى الدرداء قال : تمام التقوى أن يتقى الله العبد ، حتى يتقيه من مثقـال ذرة ، **وحتى يترك بعض ما يرى أنـه حلال خشية أن يكـون حرامـا** ، يكـون حجابا بينه وبين الحرام ، فإن الله قد بين للعباد الذى يصيرهم إليه فقال : **﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾** [2] . فلا تحقرن شيئا من الخير أن تفعله ، ولا شيئا من الشر أن تتقيه .

---

(١) سورة البقرة : ١٧٧

(٢) سورة الزلزلة : ٧ ، ٨

وقال **الحسن** : ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيرا من الحلال مخافة الحرام .

وقال الثورى : إنما سموا متقين لأنهم اتقوا مالا يتقى . قال موسى بن أعين : المتقون تنزهوا عن أشياء من الحلال مخافة أن يقعوا فى الحرام فسماهم الله متقين .

وقد سبق فى حديث : « **لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به حذرا مما به بأس** »[1] ، وحديث : « **من اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه** »

وقال ميمون بن مهران : **المتقى أشد محاسبة لنفسه من الشريك الشحيح لشريكه** .

وقال ابن مسعود فى قوله تعالى : ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾[2]

قال : (**أن يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر**)[3] . والشكر يدخل فيه جميع فضل الطاعات .

ومعنى ذكره فلا ينسى : ذكر العبد بقلبه لأ وامر الله فى حركاته وسكناته وكلماته فيمتثلها ، ولنواهيه فى ذلك كله فيجتنبها .

وقد يغلب استعمال التقوى على اجتناب المحرمات كما قال أبو هريرة وسئل عن التقوى فقال : هل أخذت طريقا ذا شوك ؟

فقال : نعم .

قال : فكيف صنعت ؟

---

(١) رواه الترمذى

(٢) سورة آل عمران : ١٠٢

(٣) أخرجه الحاكم مرفوعاً ، والموقوف أصح .

قال : اذا رأيت الشوك عدلت عنه ، أو جاوزته ، أو قصرت عنه .
قال ذلك التقوى .

وأخذ هذا المعنى ابن المعتز فقال :

خـل الـذنـوب صغـيرهـا وكـبـيرهـا فهـو التقـى
واصـنَعْ كـمـاشٍ فـوقَ أرضِ الشـوكِ يحـذر ما يـرى
لا تحقـرن صغـيرة إن الجـبـالَ مـن الحصـى

وأصل التقوى أن يعلم العبد ما يتقى ثم يتقى .

قال عون بن عبد الله : تمام التقوى أن تعلم علم مالم تعلم منها إلى ما علمت منها .

وذكر معروف الكرخى عن بكر بن خنيس قال : كيف يكون متقيا من لا يدرى ما يتقى ؟ ثم قال معروف الكرخى :
إذا كنت لا تحسن تتقى أكلت الربا .
وإذا كنت لا تحسن تتقى لقيتك امرأة فلم تغض بصرك .
واذا كنت لا تحسن تتقى وضعت سيفك على عاتقك .
وقد قال النبى ﷺ لمحمد بن مسلمة : « اذا رأيت أمتى قد اختلفت فاعمد إلى سيفك فاضرب به أحدا » .

ثم قال معروف : ومجلسى هذا لعله كان ينبغى لنا أن نتقيه ، ثم قال : ومجيئكم معى من المسجد إلى ههنا كان ينبغى لنا أن نتقيه ، أليس جاء فى الحديث أنه فتنة للمتبوع ، مذلة للتابع » يعنى : مشى الناس خلف الرجل .

وفى الجملة فالتقوى هى وصية الله لجميع خلقه ، ووصية رسول الله ﷺ لجميع أمته .

وكان ﷺ اذا بعث أميرا على سرية أوصاه ـ فى خاصة نفسه ـ : بتقوى الله ، وبمن معه من المسلمين خيرا .

ولما خطب رسول الله ﷺ فى حجة الوداع يوم النحر وصى الناس بتقوى الله وبالسمع والطاعة لأئمتهم . .

ولما وعظ الناس قالوا له : كأنها موعظة مودع فأوصنا .

قال : « أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة . . . » .

وفى حديث أبى ذر ـ الطويل ـ الذى أخرجه ابن حبان وغيره .

قلت : يارسول الله أوصنى .

قال : « أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة » (١) .

وخرّج الإمام أحمد من حديث أبى سعيد الخدرى .

قال : قلت : يارسول الله أوصنى .

قال : « أوصيك بتقوى الله ، فإنه رأس كل شىء ، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام » (٢) .

وأخرجه غيره ، ولفظه : قال : « عليك بتقوى الله ، فإنه جماع كل خير » .

وفى الترمذى عن يزيد بن سلمة أنه سأل النبى ﷺ قال : يارسول الله إنى سمعت منك حديثا كثيرا فأخاف أن ينسينى أوله آخره ، فحدثنى بكلمة تكون جماعا .

قال : « اتق الله فيما تعلم » . (٣)

ولم يزل السلف الصالح يتواصون بها . .

---

(١) رواه الترمذى وقال : حسن صحيح

(٢) رواه الإمام أحمد

(٣) رواه الترمذى وفيه ضعف .

وكان أبوبكر الصديق رضى الله عنه يقول فى خطبته : أما بعد فإنى أوصيكم بتقوى الله ، وأن تثنوا عليه بما هو أهله ، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة ، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة ، فإن الله عز وجل أثنى على زكريا ، وأهل بيته فقال : ﴿ إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ، ويدعوننا رغبا ورهبا ، وكانوا لنا خاشعين ﴾ .

ولما حضرته الوفاة وعهد إلى عمر دعاه فوصاه بوصية ، وأول ماقال له اتق الله ياعمرٌ .

وكتب عمر إلى ابنه عبد الله : أما بعد ، فإنى أوصيك بتقوى الله عز وجل ، فإنه من اتقاه وقاه ، ومن أقرضه جزاه ، ومن شكره زاده ، واجعل التقوى نصب عينيك ، وجلاء قلبك .

واستعمل على بن أبى طالب رجلا على سرية فقال له : أوصيك بتقوى الله عز وجل الذى لابد لك من لقائه ، ولامنتهى لك دونه ، وهو يملك الدنيا والآخرة .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى رجل : أوصيك بتقوى الله عز وجل التى لايقبل غيرها ولايرحم إلا أهلها ، ولايثيب إلاعليها ، فإن الواعظين بها كثير والعاملين بها قليل ، جعلنا الله وإياك من المتقين .

ولما ولى . خطب فحمد الله ، وأثنى عليه ، وقال : أوصيكم بتقوى الله عز وجل فإن تقوى الله عز وجل خلف من كل شىء ، وليس من تقوى الله من خلف .

وقال رجل ليونس بن عبيد : أوصنى . فقال : أوصيك بتقوى الله والإحسان ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

وقال له رجل يريد الحج : أوصنى .

فقال : اتق الله فمن اتقى الله فلا وحشة عليه .

وقيل لرجل من التابعين عند موته أوصنا .

فقال : أوصيكم بخاتمة سورة النحل : ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ (١) .

وكتب رجل من السلف إلى أخ له : أوصيك وأنفسنا بتقوى الله ، فإنها أكرم ما أسررت وأزين ما أظهرت ، وأفضل ماادخرت ، أعاننا الله وإياك عليها ، وأوجب لنا ولك ثوابها .

وكتب رجل منهم إلى أخ له : أوصيك وأنفسنا بالتقوى ، فإنها خير زاد الآخرة والأولى واجعلها لِكلِّ خير سبيلك ، ومن كل شر مهربك فقد تكفل الله عز وجل لأهلها بالنجاة مما يحذرون ، والرزق من حيث لايحتسبون .

وقال شعبة : كنت إذا أردت الخروج قلت للحكم : ألك حاجة ؟ .

فقال : أوصيك بما أوصى به النبى ﷺ معاذ بن جبل : «اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » .

وقد ثبت عن النبى ﷺ أنه كان يقول فى دعائه : « اللهم إنى أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى » (٢) .

وقال أبوذر : قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ﴾ . ثم قال : « يا أباذر لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم » (٣) . انتهى

ونستطيع بعد هذه النُّقول - التى أوردها العلامة ابن رجب الحنبلى - رحمه الله تعالى - عن هؤلاء الصفوة من الصحابة والتابعين وغيرهم رضوان

(١) سورة النحل : ١٢٨

(٢) رواه الأمام أحمد ومسلم والترمذى وغيرهم .

(٣) رواه أحمد - راجع تفسير بن كثير جـ ٤ ص ٣٧٩

الله عليهم أجمعين ـ أن نتبين : **المعانى التى تتضمنها كلمة التقوى ، فهى** : الإيمان القوى ، والعلم النافع والإخلاص والصدق ، والرضا واليقين ، وهى اجتناب المعاصى والمخالفات ، والمسارعة إلى القربات والمبرات ، وهى الشدة فى أمر الله ، والغيرة على حرماته ، وحفظ حدوده ، وصدق الإنابة إليه ، ودوام الإقبال عليه .

إنها مراقبة الله وخشيته ، وحب الله وإجلاله ، وإحسان الظن به ، وجميل التوكل عليه ، إنها أم الفضائل النفسية والاجتماعية ، ومنبع المكارم ، ومبدأ الإحسان إنها الباعث على كل خير ، والزاجر عن كل إثم ، والقائد إلى كل فضيلة .

إنها سلاح النصر على الأعداء ، وملهم الصبر فى البأساء ، والمعين على الرضا بالقضاء .

إنها بركة العلم ، ونور الفهم ، وجلاء البصيرة ، وصفاء السريرة .

إنها نور القلوب والشفاء لما فى الصدور .

إنها عطاء الرحمن لمن تعرف إليه ، وهبة المنان لمن أقبل عليه .

إنها النعمة العاجلة ، والمثوبة الآجلة .

إنها السكينة فى الاضطراب ، والأنس فى الحيرة والاغتراب .

إنها شعور العبد بالرقابة الإلهية ، وإحساسه بالعطايا الربانية ، إنها مصدر الذكر والشكر ، ووسيلة البر والإحسان .

إنها ثمرة الاعتصام بحبل الله ، والاستنارة بنوره ، والتحقق بالحق الذى أنزله .

إنها ولاية الله لعبده إذا أقام عليها ، ووصلته به إذا استند إليها .

بها يجاب الدعاء ، ويكشف البلاء ، ويضاعف العطاء . .

أثر العبادة فى تربية الدعاة

من أجل هذه الآثار التى تؤدى إليها العبادة ، بالتقوى التى هى ثمرة من ثمراتها ، والفضائل النفسية والاجتماعية التى تغرسها التقوى ، وتحرك دواعيها فى النفوس ، وتثير بواعثها فى الضمائر كان لابد للدعاة إلى الله من العبادة ، لأنها تقوى أرواحهم وتشحذ عزائمهم ، وتورث قلوبهم الصفاء والإشراق ، وتشرح صدورهم لما ندبهم الله إليه من دعوة الناس إلى الخير ، وتحذيرهم من الشر ، وإخراجهم من الظلمات إلى النور ، وتمدهم بفيض غامر من السكينة والطمأنينة ، إلى جانب أنها تديم تذكيرهم بالله جل جلاله ، بعظمته وجلاله وإحسانه وكماله ، وتحليهم بالعفة والزهد ، والتواضع والسماحة وهى صفات إذا كانت كمالاً بالنسبة للمؤمن فى خاصة نفسه ، فإنها ضرورية له إذا ماتصدى لدعوة الناس إلى ربهم ، وتبصيرهم بشئون دينهم .

ولقد أشار القرآن الكريم إلى الصفات التى تؤهل المؤمن لنيل شرف الدعوة إلى الله ، والظفر بالإمامة فى الدين ، فقال سبحانه وتعالى : **﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾** (1) .

وإنما يتحقق الصبر بتحقق أنواعه الثلاثة وهى : الصبر على البلاء : فى البأساء والضراء حتى لايكون هناك جزع ولا اضطراب ، ولاسخط ولاضجر ، بل تسليم كامل ، وتفويض مطلق ، اقتداء بأولئك الصفوة الذين امتدح الله مسلكهم فى كتابه ، ونوه بمواقفهم بين أوليائه وأحبابه فقال سبحانه : **﴿ وبشر الصابرين ، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا :**

---

(1) سورة السجدة : ٢٤

إنا لله وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون ﴾ (١) .

والنوع الثانى وهو الصبر على الطاعة ، أى : المداومة عليها ، والإقبال على الله فيها وإرادة الله عز وجل بها ، وسرعة النهوض إليها ، وأداؤهاعلى أكمل وجوهها . .

والنوع الثالث وهو الصبر عن المعصية ، وهو نوع من جهاد النفس يحتاج إلى قوة إيمان وصدق يقين ، وخشية من الله ، وزهد فى الدنيا وزهرتها .

والصبر على البلاء يحتاج إلى قوة يقين ، والصبر عن المعصية يحتاج إلى شدة خشية ، والصبر على الطاعات يحتاج مع ذلك إلى قوة رغبة فى الآخرة . .

وفى الحديث الشريف : « اللهم اقسم لنا من خشيتك ماتحول به بيننا وبين معصيتك ، ومن طاعتك ماتبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ماتهون به علينا مصائب الدنيا . . . الحديث » . (٢)

والصابرون درع الأمة فى القتال ، وسيفها فى النضال ، ولايغنى أحد فى المعامع غناءهم ، ولايبلى غيرهم من الناس بلاءهم ، فالواحد منهم بكثير .

قال تعالى : ﴿ ياأيها النبى حرض المؤمنين على القتال : إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لايفقهون ، الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا

---

(١) سورة البقرة : ١٠٥-١٠٦

(٢) رواه الترمذى ، وقال حديث حسن

فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين ﴾ (١) .

والله سبحانه وتعالى مع المتقين بالنصر والتأييد ، والمعونة والتثبيت : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجدوا فيكم غلظة ، واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ (٢)

والصابرون يحبهم الله ، ويثبت أقدامهم ، يجزيهم ماهم أهل له من التأييد .

قال الله تعالى : ﴿ وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وماضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ﴾ . (٣)

وحينما كلف الرسول ﷺ بتبليغ رسالة ربه ، وإنذار قومه ، وخلعهم من عبادة الأوثان إلى عبادة الملك الديان وهى مهمة شاقة تتطلب جهدا جهيدا ، وعزما شديدا ، أوصاه ربه بطائفة من الفضائل والعبادات يقوى بها العزم ، وتهون معها الشدائد ، وتنطلق بها الهمم ، ويثبت بها القلب .

قال تعالى : ﴿ يا أيها المدثر قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولاتمنن تستكثر ، ولربك فاصبر ﴾ . (٤)

كما أوصاه فى فاتحة سورة المزمل بقيام الليل والإقبال على ربه بالعبادة له ، والتوكل عليه ، والاستمداد منه .

قال تعالى : ﴿ يا أيها المزمل قم الليل إلاقليلا نصفه أو انقص منه قليلا أوزد عليه ورتل القرآن ترتيلا ، إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا إن ناشئة

(١) سورة الأنفال : ٦٥ ، ٦٦
(٢) سورة التوبة : ١٢٣
(٣) سورة آل عمران : ١٤٦
(٤) سورة المدثر : ١ ـ ٧

الليل هى أشد وطأ وأقوم قليلا ، إن لك فى النهار سبحا طويلا ، واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا ، رب المشرق والمغرب لاإله إلا هو فاتخذه وكيلا ﴾ [1] .

وذلك لأن قيام الليل له أثره القوى فى قوة اليقين ، وصدق التوكل ، لما يورثه من صفاء النفس ، ورقة القلب ، وخشية الرب ، وشدة الحب له ، وعظم الرجاء فيه .

وحين واجه النبى ﷺ المستهزئين والمتعنتين والمنكرين ، وواجهوه بالتكذيب له ، وإشاعة الأراجيف من حوله ومن حول دعوته ، ومن حول الكتاب الذى نزل عليه فقالوا عنه تارة : إنه ساحر ، وتارة يقولون : كاهن . وطورا يقولون : إنه مجنون .

ويقولون عن القرآن الكريم مرة : إنه سحر ، ومرة هو كهانة ، وتارة : هو أساطير الأولين ، وقالوا : إنما يعلمه بشر ، ويقصدون رجلا روميا ليس بعربى اللسان ولا الأرومة حين واجه النبى ﷺ ذلك وضاق به صدره لما فيه من كفر بالله ، وصد عن سبيله ، ومحاربة لأوليائه نزل عليه قوله تعالى : **﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ، فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾** [2] .

إن الله سبحانه وتعالى يأمره بالإعراض عن أذى هؤلاء الفجرة . الكفرة والإقبال على مولاه بالعبادة والتسبيح والصلاة ، فإن ذلك عون له على تحمل أذاهم ؛ حتى يقضى الله فيهم قضاءه ، ويمضى فيهم حكمه ، فيهدى من يشاء ويضل من يشاء ، الأمر أمره ، والحكم حكمه ، لا راد لقضائه ، ولامعقب لحكمه .

---

(١) سورة المزمل : ١ ـ ٨

(٢) سورة الحجر : ٩٧ ـ ٩٩

العبادة والخلق

وقد يكون من المناسب هنا أن نبين : أن هناك علاقة وثيقة بين العبادة وبين الخلق ، فكما أن العبادة الصالحة لها تأثيرها القوى فى تقويم الأخلاق وتزكية النفوس ، وشحذ العزائم ، إلى جانب أنها تزكى فى العبد ملكة المراقبة لربه ، وترقى به إلى درجة المشاهدة والإحسان ، فيعبد الله كأنه يراه . فإن التمسك بالأخلاق الفاضلة : من الصبر والعفة ، والجود ، والسماحة ، والصدق ، والتوكل ، والبعد عن الأخلاق المذمومة ، والأفعال القبيحة ماظهر منها ومابطن ، ما تعلق منها بالقلب كالكبر ، والعجب ، والحسد ، والبغضاء والضغينة ، أو بالجوارح كالزنا والسرقة وشرب الخمر ، والكذب وشهادة الزور ومقارفة الآثام عامة إن البعد عن ذلك كله ، يجعل العبد موفقا للخيرات معانا على الطاعات والعبادات ، ينبىء عن هذا قول النبى ﷺ : « **اتق المحارم تكن أعبد الناس . . الحديث** »[1] وذلك لأن التمسك بالأخلاق الفاضلة ، وسلوك المسالك الطيبة ، وتجنب المعاصى ، والمنكرات يبقى النفس على فطرتها النقية ، ويحتفظ للقلب بصفاء الجوهر ، وللبصيرة بنورانيتها التى جبلت عليها ، ثم هو يزيد القلب نقاء والنفس صفاء ، والبصيرة نورانية .

وهذه الحياة التى نعيشها على هذه الأرض إنما هى سلسلة من المتاعب والفتن ، ولابد أن يختبر المؤمن بالشهوات ، والشدائد تمحيصا لدينه ، واختباراً لِمدَى قوة إيمانه ، ويقينه فمن الناس القوى التقى ، الصابر المصابر الذى تزيده الفتن صفاء : يصقل التمسك بالخير قلبه ، ويزكى نفسه ، ويعبد فى طريق الله مسلكه .

ومن الناس الضعيف المتزلزل الذى لايثبت عند فتنة ، ولايصبر فى

(١) رواه أحمد والترمذى من حديث أبى هريرة

محنة : إذا ابتلى بالدنيا بشهواتها وزهرتها سال لها لعابه ، وتغير بها خلقه ، واعـوج بها مسلكـه ، وإذا ابتـلى بشدائدها وضيقها ضجر وسخط وتبرم وتأفف ، فلاهو فى السراء شاكر ، ولاهو فى الضراء صابر .

يقـول عليه الصـلاة والسـلام : « **تعـرض الفتن على القلوب عودا عودا ، فأى قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء ، وأى قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء ، حتى تصير على قلبين : على أبيض مثل الصفا فلاتضره فتنة مادامت السموات والأرض ، والآخر أسود مربادا ، لايعرف معروفا ولاينكر منكرا إلاماأشرب من هواء** » . (1)

وقد يكون المراد بالفتن فى هذا الحديث مايعرض للقلوب من الشكوك والشبهات فى شئون الدين ، وأخبار الغيب من نحو البعث ، والحشر ، والحساب ، والعقاب ، وقد يكون المراد بها : ماهو أعم من ذلك فتشمل مايطرأ على القلوب من الميل إلى الشهوات ، والركون إلى الملذات ، وهذا هو الذى أطمئن إليه ، وأعول عليه .

وإنـما كان إنكـار الفتن ، والإعـراض عنهـا ، والنفـور منهـا مُقَوِّياً للإيمان ، مصلحاً للقلوب وكان القلب الذى يقبل هذه الفتن ، ويشربها قلبـاً منكـوسـاً ، منحـرفـاً ، لأن القلوب هى موطن الإرادات ، ومنطلق العـزائم ، بها تستقيم الجـوارح ، وتصلـح الحركات ، وبها كذلك يكون الاعوجاج والانحراف ، والطغيان والاعتساف .

وفى الحديث الذى رواه الشيخان : « الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه ، وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ، إلا وإن لكل ملك حمى ، إلا وإن حمى الله فى أرضه محارمه ، ألا وإن فى الجسد مضغة

(1) أخرجه مسلم من حديث حذيفة فى كتاب الإيمان ٢ / ١٧٢ بشرح النووى

إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب ». [1]

ولمواقعة الحرام ، ومقارفة الآثام ، تأثير سيء على القلوب والبصائر ، والإرادات والعزائم ، فبالإضافة إلى الحديث الذى رواه حذيفة وأوردناه منذ قليل فهناك أحاديث أخرى فى ذلك . يقول عليه الصلاة والسلام : « إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت فى قلبه نكتة سوداء ، فإن هو نزع واستغفر صقلت ، فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه ، فهو الران الذى ذكر الله تعالى ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون ﴾ ». [2]

وقد أخبر الله فى كتابه عن طائفة من المسلمين فروا يوم أحد ، وبين أن الشيطان قد استدرجهم بسبب ذنوبهم السالفة فقال : ﴿ إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ماكسبوا ، ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم ﴾. [3]

والشرور والآثام هى طريق الشيطان ، ومن سار فيها ضل ضلاله ، وساء حاله ولايزال به ذلك حتى يصبح على شاكلة أولئك الذين قال الله فيهم : ﴿ وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ، ويوم القيامة لاينصرون ﴾ [4] . قال الله تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا لاتتبعوا خطوات الشيطان ، ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى منكم من يشاء والله سميع عليم ﴾ [5].

---

(١) رواه الشيخان من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنهما .

(٢) رواه الترمذى والنسائى وابن ماجة

(٣) سورة آل عمران : ١٥٥

(٤) سورة القصص : ٤١

(٥) سورة النور : ٢١

وبصلاح الفرد واستقامته يصلح كل شيء : تصلح الأسرة ، وتصلح الأمة وتصلح سائر الشئون ، إن الفرد إذا كان فى موطن القدوة والأسوة والهيمنة : أباً أو أستاذا أو حاكما فإنه يصلح بصلاحه كثير ، ويندفع شر مستطير ، وقد تكون القوانين واللوائح محققة للمصالح التى تحتاجها الجماعة ، وتنشدها الأمة ، مثبتة لأركان العدالة .

ولكنها إذا تولت أمرها أيد غير صالحة وضمائر غير نقية ، وذمم غير مستقيمة انحرفت بها السبل ، وتعثرت بها الأمور ، وتقدم فى ظل ذلك من حقه التأخر ، وأخر من حقه أن يقدم ، وأسندت الأمور إلى غير أهلها ، وكوفىء من يستحق العقوبة وعوقب من يستحق المكافأة ، فعادت الأمور منحلة ، والأحوال مختلة ، وذلك ضرر بليغ ، وشر فظيع ، إذا ابتليت به أمة تقطعت أواصرها ، وانحلت روابطها ، وسادها الفساد ، وسيطر على أمورها العسف والاستبداد . .

- **نعم : إن السلطان إذا كان فى يد أمينة تراقب الله وتخشاه** ، وترعى حقوق الناس فإنه يضحى عدلا ورحمة وكفاية ، ومساواة وطمأنية ، وبذلك يزداد الخير ، ويتقدم المجتمع ، ويسود بين الناس الحب والتعاون ، والفضل والإيثار .

وعلى العكس من ذلك إذا كان الأمر فى يد غير أمينة ، لاتخشى الله ولاتراقبه ، ولاترجو لقاءه فإن المجتمع يضطرب ، والفوضى تستشرى ، ويتقدم الأشرار والمنافقون وتحرم البلاد من الكفايات وأهل الإخلاص والصدق . . وويل لقبيلة يسودها أراذلها ، وتبا لمجتمع تكون الكلمة العليا فى تصريف أموره لمن قل دينهم ، وضعف إيمانهم ويقينهم : من الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ، وينصرون القوى على الضعيف ، والغنى على الفقير ، ويسيرون فى المجتمع بالهوى لا بالحق والعدل ويحلون لأنفسهم وبطانتهم ماحرم الله عليهم .

ـ **والمال عصب الحياة وقوامها** ، وهو خير معين على عبادة الله والتقرب إليه ، وفيه يقول الصادق المصدوق ﷺ : « **نعم المال الصالح للرجل الصالح** » (١)

لكنه إنما يكون خيرا إذا كان فى حوزة الرجل الصالح المستقيم السخى الذى يهتم بمصالح إخوانه وجيرانه وقرابته وبلده ودينه ، الذى يأخذه من حله ، وينفقه فى محله ، ويؤمن بأنه مسئول عنه حسبما قال النبى ﷺ : « **لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيما أفناه ، وعن شبابه فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل فيه** » . (٢)

وأما إذا كان فى يد مسرفة ملوثة منحرفة فإنه يصير وبالا على صاحبه وعلى المجتمع لأنه لايراعى الله ولايتوخى فى كسبه ، وتنميته وجوه الحلال ، ولافى إنفاقه الوجوه المشروعة ، وكم اعوجت به أخلاق ، وانحرفت به مسالك ، وبه كان الشر والفجور ، والعجب والغرور ، والعسف والفساد ، والطيش والاستبداد .

وقد تلقى الأمة عدوها فى معركة ، وقد يكون السلاح فى يدها بتارا ، وقد يكون متطورا ، وقد يكون كثيرا ، ولكنه إذا وضع فى أيْدٍ مرتعشة ، وصرفته قلوب مظلمة وعقول من الخير والهدى معتمة فإنها تسىء استعماله ، ويعود ضرره أكثر من نفعه وهكذا ما من نعمة من النعم إلا وتمامها وبركتها فى معرفة الله والتعرف إليه ، وبدون هذا التعرف تنمحى بركتها ، وتنعكس آيتها ، وتغدو حسرة ووبالا ، وعذابا ونكالا . .

وإلى هذه الحقائق تشير آيات كريمة من القرآن الكريم ، يقول الله

---

(١) رواه أحمد وابن منيع عن عمرو بن العاص رضى الله عنه ـ كشف الخفا ٢ / ٢٤٢

(٢) رواه البزار والطبرانى باسناد صحيح واللفظ له (الترغيب والترهيب ٤/٧٥٧)

تعـالى : ﴿ **فأمـا الإنسـان إذا مابتـلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول : ربى أكـرمن ، وأمـا إذا مابتـلاه فقـدر عليه رزقـه فيقـول : ربى أهـانن ، كلا** ﴾ [1] . فانـظر كيف سوى سبحـانه بين النعمة الواسعة : والعيش الوارف ، وبين ضيق الرزق ، وقلة ذات اليد فجعلهما جميعا ابتلاء يختبر به العبد لتنكشف حقيقة أمره إما شاكراً وإما كفوراً . . وإنما يوفق فى الحالين المؤمن العـابـد الصـابـر الذى يشكر لدى العطاء ويصبر عند البأساء ، ويرضى فى سائر الأحوال بالقضاء .

وقـريب من هذه الآية قول الحق جل وعـلا : ﴿ **كل نفس ذائقـة المـوت ، ونبلوكم بالشر والخـير فتنـة وإلينا ترجعون** ﴾ [2] . فقد جعل سبحانه وتعالى الشر بمعناه الواسع الشامل للفقر والضيق والمرض وألوان البلاء فى النفس والولد والأحباب ابتلاء للعبد واختبارا كما جعل الخير بمعناه الشامل للمال والجاه والعافية وألوان النعم التى لاتحصى عددا ابتلاء للعبد واختبارا كذلك .

وقد ترى بعض الناس صابرا فى الشدائد ، ساكنا فى المحن والنوائب لايجأر ولايئن ، ولكنه حين يبتلى بالنعم والشهوات فقد يميل بعض الميل . **وللرسول ﷺ فى هذا المعنى كلمات مشرقة جديرة بالتأمل والتدبر** . . فعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : جلس رسول الله ﷺ على المنبر وجلسنـا حوله . فقال : « **إن مما أخاف عليكم مايفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها** » [3] .

وعن عمرو بن عوف الأنصارى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح رضى الله عنه إلى البحرين يأتى بجزيتها فجاء بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدوم أبى عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول

---
(١) سورة الفجر : ١٥ ـ ١٧
(٢) سورة الأنبياء : ٣٥
(٣) متفق عليه

الله ﷺ ، فلما صلى رسول الله ﷺ انصرف فتعرضوا له ، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم ثم قال : «أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشىء من البحرين ؟»

فقالوا : أجل يارسول الله .

قال : **«أبشروا وأملوا مايسركم فوالله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكنى أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم»** . (١)

فالرسول صلوات الله وسلامه عليه لم يكن يخشى على أصحابه من فتنة الفقر والإقلال ولكنه كان يخشى عليهم مايبسط عليهم من زينة الدنيا وزهرتها ، فيؤدى بهم ذلك إلى استعذاب مذاقها ، والركون إليها ، والتنافس فيها بما هو مشروع حينا وبما هو ممنوع أو مشتبه أحيانا أخرى ، وبما يجره ذلك مِنْ تطاحن وتقاتل وعداوة وبغضاء ، حتى ليصبح المال هو منتهى غايات بعض الناس ، ومبلغ آمالهم ، وربما بذلوا فى سبيل الظفر به ، والا ستحواذ عليه الدين والشرف ، وقطعوا لأجله ما أمر الله به أن يوصل ألم يقل النبى ﷺ : **« بادروا بالأعمال الصالحة ، فستكون فتن كقطع الليل المظلم : يصبح الرجل مؤمنا ويمسى كافرا ، ويمسى مؤمنا ويصبح كافرا : يبيع دينه بعرض من الدنيا »** . (٢)

وقد قصد النبى ﷺ من النصيحة : بالمبادرة إلى الأعمال الصالحة أن يكون للمرء بها الصلة الوثقى بربه ؛ ليدرأ عنه بذلك شرور فتن الحياة ، ونوائبها على نحو ماجاء فى حديث ابن عباس رضى الله عنهما . قال : كنت خلف النبى ﷺ يوما فقال لى : **« ياغلام إنى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت**

---

(١) متفق عليه

(٢) رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح

فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف » .

وفى رواية أخرى لهذا الحديث : « احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً » . (1)

---

(1) رواه عبد بن حميد فى مسنده . انظر جامع العلوم والحكم ٢٠٩/١

الفصـل الثـانى

أثر العبادة فـى صلاح الجماعـة

سبق أن عرفنا ما للعبادة من أثر طيب فى إصلاح الفرد ، وتقوية إيمانه ، وتربية إرادته ، وشحذ عزيمته ، وتوجيهه الوجهة النافعة ، وتأهيله ليتسنم مقام الإمامة فى الدين ، ويصبح قائدا ورائدا للصالحين المتقين ، وبذلك فإن من اليسير علينا أن ندرك أثر العبادات فى صلاح الجماعة ، ودعم روابطها ، وبناء علاقاتها على أسس راسخة من العدل والإخاء ، والبر والإحسان ، والتقدير والتوقير ، والاعتراف لكل ذى فضل بفضله ، فما الجماعة التى ينشدها الإسلام إلا طائفة من الأفراد يشدها رباط الدين ، ويؤلف بينها التآخى القائم على العدل والمساواة ، والإحسان والإيثار والبر والرحمة ، والتعاون على جلب الخير ، ودفع الضر .

ولقد يكون من المفيد أن نلقى نظرة فى كتاب الله عز وجل ، ثم فى سنة محمد صلى الله عليه لنتبين - على وجه التفصيل - : الصفات ، والسمات التى يريدها الإسلام ويرضاها للجماعة المؤمنة .

ثم نبين : دور العبادات فى غرس هذه السمات وتزكية هذه الصفات ، ثم نعرض لنماذج وقضايا تتضح بها الفكرة ، وتقوم بها الحجة .

إن الجماعة التى ينشدها الإسلام ، والتى يمكن وصفها بأنها جماعة صالحة ، وبأن مجتمعها مجتمع كريم لابد لها من أوصاف وفضائل توثق الصلة بينها وبين ربها وتوثق الصلة فيما بينها ، وتعينها على رؤية الأشياء ومعرفتها كما هى دون اغترارها ، أوتهوين لها ، وتجعلها مرهوبة الجانب ، مرفوعة الرأس ، عزيزة المنال .

إن السمة الأولى للجماعة التى ينشدها الإسلام أنها جماعة مؤمنة ، تؤمن بالله ورسوله وبما جاء عنه : تستجيب لربها : وتتوكل عليه ، وتسلم وجهها إليه ، قال الله تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه ،

والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ . (١)

إنها الجماعة التى تؤلف بين قلوبها ، وتجمع بينها رابطة الإيمان بالله والاهتداء بهديه ، والاعتصام بحبله ، والتسابق فى مرضاته ، والتعاون على منافع الدنيا والدين ، والعاجلة والآجلة ، يقول الله سبحانه : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض : يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله ، إن الله عزيز حكيم ﴾ (٢) . ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ، ولاتموتن إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾ (٣) .

إنها الجماعة التى يحكمها العدل والإنصاف ، وتنبذ الجور والاعتساف يقول الله تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنياً أو فقيرا فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا ﴾ . (٤)

إنها الجماعة التى لايصرفها يومها عن غدها ، ولا أولاها عن أخراها ، بل إنها تعمل للآخرة ، وتراقب الخالق ، وترجو رحمته وتخاف نقمته ، وتؤمل عطاءه فى العاجلة والآخرة ، يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا

---

(١) سورة البقرة : ٢٨٥

(٢) سورة التوبة : ٧١

(٣) سورة آل عمران : ١٠٢ ، ١٠٣

(٤) سورة النساء : ١٣٥

لاتلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ، وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول : رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ، ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها ، والله خبير بما تعملون ﴾ (١) .

ويقول سبحانه : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ؟ يعبدوننى لايشركون بى شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ (٢) .

إنها الجماعة التى تؤمن بأنها مسئولة ومحاسبة بين يدى ربها وولى نعمتها ، قبل أن يكون أعضاؤها مسئولين أمام الرؤساء والقوانين .

إنها الجماعة التى يقودها خيارها ، ويتولى أمرها حكماؤها وعلماؤها .

إنها الجماعة التى يأمن فيها كل فرد على نفسه وأهله وماله ورزقه وعرضه ، ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾ (٣) .

إنها الجماعة التى تتواصى بالخير والحق ، وتتعاون على البر والتقوى وتتناصح على مكارم الأخلاق ، ومحاسن الصفات ، يقول سبحانه : ﴿ والعصر إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر ﴾ (٤) . ويقول ﴿ لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا

---

(١) سورة المنافقون : ٩ ، ١١

(٢) سورة النور : ٥٥

(٣) سورة قريش : ٣ ، ٤

(٤) سورة العصر بتمامها

يعتدون ، كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون ﴾ [1] .

إنها الجماعة التى تستعذب الجهاد فى سبيل الله ، وتقدم النفس والنفيس والأهل والولد ابتغاء مرضاة الله ، ورفعا لدينه ، وإعلاء لكلمته ، ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة : يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم ﴾ [2] .

إنها الجماعة التى اصطفاها الله لرسالته ، وخصها بكرامته ، وأسبغ عليها العطاء ، وأجزل لها النوال ، فشعرت بمنة الله عليها وفضله ، وإحسانه وجوده ، فشكرت أنعمه بحسن السمع والطاعة ، وكريم الأدب والإجابة فارتقت إلى منصب العدالة ، وتسنمت درجة الشهادة ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وجاهدوا فى سبيل الله حق جهاده ، هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ، ملة أبيكم إبراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل ، وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم ، وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير ﴾ [3] .

وهذه الجماعة ليست خيالا ، ولاشيئا محالا ، وإنما ظهرت إلى عالم الواقع فى العصر النبوى الكريم وعصر الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم أجمعين ولهذا فقد أثنى الله عليهم فى كتابه ، ورفع أقدارهم بين عباده وأحبابه فقال : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون

(1) سورة المائدة : ٧٨، ٧٩
(2) سورة التوبة : ١١١
(3) سورة الحج : ٧٨

عن المنكر ، وتؤمنون بالله ، ولوآمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم ، منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ﴾ (١) .

وأشار إلى ماسيكون لهذه الأمة من رفعة طالما كانت مؤمنة بربها ، متمسكة بكتابه ، مستضيئة بنوره ، فقال : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين مِنْ قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا : يعبدوننى لايشركون بى شيئا ﴾ (٢) .

وعن صلاح النفوس واستقامتها بالإسلام وشعائره ، وعباداته ، عبر الصحابى الجليل جعفر بن أبى طالب أفضل تعبير ، فبين : ماكان عليه الناس فى الجاهلية من فساد فى العقيدة ، وضلال عن الإيمان ، وانحراف فى المعاملات ، وشذوذ فى نواح كثيرة من الحياة ، ثم ما أحدثه الإسلام من صلاح فى العقيدة ، واستقامة فى الأخلاق ، ومسارعة فى الخيرات وعزوف عن القبائح ، وارعواء عن المفاسد والموبقات ، حتى استحقوا من الله أحسن الثناء ، وأجزل العطاء .

قال رضى الله عنه ـ أمام النجاشى : ملك الحبشة : عندما سأله عن هذا الدين الذى فارق فيه قومه ولم يدخل به فى دينه ولا فى دين أحد من الناس ؟ : (أيها الملك : كنا قوما أهل جاهلية : نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسئ الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه ، وأمانته وعفافه ، فدعانا لتوحيد الله وأن لانشرك به شيئا ، ونخلع ما كنا نعبد من الأصنام .

---

(١) سورة آل عمران : ١١٠

(٢) سورة النور : ٥٥

وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وأمرنا بالصلاة والصيام . . .) وعدد عليه أمور الاسلام .

قال جعفر : (فآمنا به وصدقناه وحرمنا ماحرم علينا ، وحللنا ما أحل لنا ، فَعَدَا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا فى ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان ، فلما قهرونا وظلمونا ، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورجونا أن لا نظلم عندك) . [1]

وهذه الشمائل الطيبة ، والأخلاق الفاضلة التى حث عليها الدين ، وأوصى بها جماعة المسلمين ، والتى من شأنها أنها تزيد المسلمين تماسكا ، وترابطا ، وتراحما ومودة ، وتثمر لهم القوة ، والعزة ، والمنعة ، وتجعلهم كما كان الصحابة الكرام رضوان الله عليم أشداء على الكفار رحماء بينهم ، هذه الأخلاق إن كان الدين الحنيف قد أمر بها ، وأبرز آثارها ، وأشار إلى بركاتها وثمراتها . وبين : ما ينطوى عليه الإعراض عنها والتهاون بها من شرور وآثام فى نحو قوله تعالى : **﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون ﴾** [2] . **﴿ إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون ﴾** [3] . **﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء ، فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ،**

---

(١) قال الشيخ محمد ناصر الالبانى : أخرج هذه القصة ابن اسحاق فى المغازى (١/١١ - ٢١٣ من ابن هشام) وأحمد (رقم ١٧٤٠) من طريق ابن اسحاق بسند صحيح من حديث أم سلمة زوج النبى ﷺ .(فقه السيرة للشيخ محمد الغزالى) . . .

(٢) سورة النحل : ٩٠

(٣) سورة الحجرات : ١٠ .

وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾ (1) . وفى نحو قول الرسول ﷺ : (إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لايفخر أحد على أحد ، ولايبغى أحد على أحد ﴾ (2) .

« من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لاينقص ذلك من آثامهم شيئا » (3) .

« الدين النصيحة »

قلنا : لمن يارسول الله ؟ قال : « لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » . (4)

« أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا » (5)

« إن الله رفيق يحب الرفق ، ويعطى على الرفق مالا يعطى على العنف ، ومالا يعطى على شيء سواه » . (6)

« ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب » (7) « أهل الجنة ثلاثة : ذو سلطان مقسط موفق ، ورجل رحيم رقيق القلب . لكل ذى قربى ومسلم ، وعفيف ذو عيال » (8) .

« لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق » (9) .

نقول : إن هذه الأخلاق الكريمة التى يصلح بها الفرد ، وتقوى بها

---

(1) سورة آل عمران : ١٠٢، ١٠٣ .

(2) رواه مسلم .

(3) رواه مسلم .

(4) رواه مسلم .

(5) رواه الترمذى .

(6) رواه مسلم .

(7) متفق عليه .

(8) رواه مسلم .

(9) رواه مسلم .

الجماعات ، وتسعد بها الأمم إن كان الله قد أمربها فى محكم كتابه وعلى لسان خاتم أنبيائه ورسله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فإن هذه العبادات المتنوعة التى شرعها هى التى تغذيها وتنميها وتثبتها ، وتمددها بمدد قوى لاينفد من التذكير بها ، والترغيب فيها .

ولقد مر بنا فى مناسبات سابقة ماتثمره العبادات فى النفوس من فضائل ومكارم ، وما تورثه للقلوب من خشية وتقى ، وما ترقيهم إليه من صفاء وإشراق ، وما تمدهم به من عزائم قوية وبصائر نافذة يستجيبون بها لأمر ربهم ، ويسارعون بها فى مرضاته ، ويقفون بها عند حدوده ، ويجاهدون بها فى سبيله ، فلانعود إلى القول فيه ، وإنما هى لمحات نوردها بمناسبة هذا المقام الذى نتكلم فيه ، وهو أثر العبادة فى صلاح الجماعة لبيان وإبراز الأثر الاجتماعى الذى تحققه بقدر ما يتسع له المجال ، وهاهى ذى بعض العبادات نسوقها مع ما يتصل بها من شعائر لنكشف عما فيها من خير للجماعة فى دينها ودنياها ، وأولاها وأخراها ، وعن دورها فى بناء الفضائل الإيمانية وتقوية الروابط الاجتماعية، والسمو بأهداف الجماعة وغاياتها والسير بها إلى معارج الكمال .

الصلاة

الصلاة هى الفريضة الأولى بعد الإيمان بالله ورسوله ومابعث به ، وهى عماد الدين ، ومكانتها فى الدين ، ومنزلتها بين أركانه وشعائره أوضح وأظهر من أن تحتاج إلى بيان ، فمن وفق إليها ، وأعين عليها ، فهو الموفق السعيد ، ومن حرم منها فهو الشقى البعيد . وإذا تحدثنا عن الصلاة وبركاتها وثمراتها فإنما نريد بها الصلاة التى يخشع فيها الفؤاد ، ويطمئن بها القلب ، ويرقى بها المؤمن إلى الخلق الحميد ، والمسلك السديد .

ومثل هذه الصلاة التى يخشع فيها صاحبها ، ويحافظ على روحها

وآدابها لا يقتصر دورها على أجر يثاب عليه المؤمن ، وعذاب ينجو منه ، وإنما تحفظه وتنفى عنه الشرك الظاهر والخفى ، وتعود به إلى صفوف المتواضعين إن كان فيه شئ من الكبر ، وترقى به إلى درجة الأعزاء إن كان فيه شىء من الذلة والخنوع .

فالحاكم والمحكوم ، والرئيس والمرءوس ، وأصحاب الثروة والقوة والنفوذ والسلطان والذين ليس لهم من ذلك شىء : **كل هؤلاء متساوون فى الوقوف بين يدى الله** ، والإقبال عليه ، لا فضل لأحد منهم على أحد إلا بمقدار ما فى قلبه من تقوى ، وما تثمره هذه التقوى من خيرات ، وما تحجز عنه من موبقات ، فكل أعمال الصلاة وسائر تلاوتها وأذكارها ترجع الأمر كله لله : يقف العباد بين يدى ربهم مؤتمين بإمام واحد كأنهم بنيان مرصوص ، يعلنون ، ويهتفون : الله أكبر ، وإنها لنعم الكلمة تفتتح بها تلك العبادة السامية : إنها إعلان بأن الله أكبر من كل شىء : إنه أكبر من سائر الخلق ، وإن جلت مناصبهم وتعاظم نفوذهم ، واشتدت سطوتهم : إنها نفى لكبر المتكبرين ، وذل الأذلاء وإعادة للأمر كله إلى من يملكه وهو رب الأرض والسماء : إنها نفى للخوف والتردد ، وإبعاد لشبح الهلع والفزع ، والجبن والخور ، نعم الكلمة شعارا للجنود الظافرين ، وسلاحاً وضعه الله فى أيدى الغالبين .

ثم إنهم يتوجهون إلى ربهم قائلين : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ ، فلانعمة على الحقيقة إلا من الله ، ولا بقاء لها إلا به ، ولا بركة لها إلا بتوفيقه ، فلا رب غيره ، ولا حمد لسواه .

وإنهم ليقولون كذلك : **﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾** لا عبادة لغير الله ، ولا استعانة بسواه ، فهو الحقيق بالعبادة ، الجدير بأن يستعان به ، ويتوكل عليه ، إذ الأمور كلها بيده ، لا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه

﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم ﴾ . (١)

ثم إنهم يدعون ربهم قائلين : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ إن هذا الطلب إذا صدق فيه قائله فلا بد أن يؤتاه ، ويعان على أسبابه . وصدق التوجه معونة وتوفيق ، وفوز وفلاح ، وحاشا لله أن يتوجه إليه عباده مخلصين ، ويردهم خائبين .

ثم إن الصلاة بركوعها وسجودها ، وقيامها وقعودها تعويد للنفس على طاعة الله فيما أمر ونهى ، وإن لم تدرك معناه ، ولم تحط بسره ومغزاه ، وهى كذلك تعظيم للمولى القدير ، وتذكر لنعمه ، وتعرف إليه ، وإلى شريعته ، واستمطار لعطائه ، ومحبة ومواصلة بين عبادة السابقين واللاحقين وموالاة لأوليائه ، على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ، وأزمانهم وأجناسهم .

لذلك كان المؤمنون الذين يحققون الحِكَمَ التى يمكن أن تثمرها هذه الصلاة من أكثر الناس إخلاصا ، وأرسخهم يقينا وأفضلهم إيمانا ، وأكرمهم أخلاقا ، وأعزهم جانبا ، وأجرئهم على كلمة الحق ، وأكثرهم تعاونا على البر والتقوى ، وأبعدهم عن التعاون على الإثم والعدوان .

لقد هيأ الله سبحانه بتشريعه وحكمته للصلاة جوا طيبا من الإجلال والتعظيم ، والخشوع والرقة ، والوقار والسكينة ، والتعاون والاجتماع .

* **الأذان** : فشرع للدعوة إليها ، والجمع عليها نداء لم تتجل فيه مقاصد الصلاة ومعانيها فحسب ، بل تجلت فيه كذلك مقاصد الإسلام ، وشعار التوحيد ، وروح الدين بوضوح وبلاغة وإيجاز ، أصبح بها هذا النداء الذى يرفع به المؤذن صوته من مكان عال خمس مرات كل يوم دعوة

(١) سورة فاطر : ٢

مركزة إلى الإسلام تعريفا بمقاصده وتعليماته ، قد يؤثر فى نفوس كثير من الناس ، فيشرح صدورهم للإسلام ، وليس لهذا النداء الذى يجمع بين الجمال والبساطة نظير فى أساليب الدعوة والإعلام بالعبادات والديانات الأخرى : إنه النداء الدينى الوحيد الذى ابتعد عن كل مظهر خارجى ، وعن استعانة بالآلات والإغراءات ، وجاء فيه لباب الدين وخلاصته .

* **إنه يضم الإعلان بعظمة الله وكبريائه ، وأنه أكبر من كل كبير ،** ويضم الشهادتين : **شهادة « أن لا إله إلا الله » وشهادة « أن محمدا رسول الله »** ، ثم الدعوة إلى الصلاة وحضورها فى جماعة فى المسجد ، ثم الإخبار بأنها وسيلة الفلاح فى الدنيا والآخرة ، وأنه لافلاح بدونها ، فأصبح بذلك كله كلمة جامعة ، ودعوة كاملة ، ونداء بليغا ، يخاطب العقل والقلب ، ويلفت المسلم وغير المسلم ، وينشط الكسلان ، وينبه الغافل .

يقول حكيم الإسلام الشيخ أحمد بن عبدالرحيم الدهلوى رحمه الله :

واقتضت الحكمة الإلهية أن لايكون الأذان صوت إعلام ، وتنبيه بل يضم مع ذلك أن يكون من شعائر الدين بحيث يكون النداء به على رءوس الخامل والنبيه ، تنويها بالدين ، ويكون قبوله من القوم آية انقيادهم لدين الله ، فوجب أن يكون مركبا من ذكر الله ومن الشهادتين ، والدعوة إلى الله ليكون مصرحا بما أريد به [1] .

* شرع الله للصلاة الطهارة الكاملة فقال : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق ، وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين ، وإن كنتم جنبا فاطهروا ، وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ، ما يريد**

(١) الأركان الأربعة لأبى الحسن الندوى ص ٥٠ ، ٥١

الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون ﴾ [٢] .

وذلـك لأن الـطهارة إذا كانت منبعثة عن إيمان بالله وتصديق بوعده وابتغاء لمرضاته ، فإنها توقظ النفس من سباتها وتنبهها من غفلتها ، وتورثها مزيد اهتمام ، وتهيئها لمناجاة الله ، واستقبال الصلاة وما فيها من ذكر ودعاء وتضرع ومناجاة ، ونور وسكينة أكرم استقبال .

* **وفرض الله للصلاة الطهارة الباطنة كذلك بالإقبال على الله فيها ،** والإعـراض عن الدنيا وفتنتها ، والتوجه الكامل للذى خلق فسوى وقدر فهدى ، فكانت النية ، وكان الإحرام ، ثم كانت تلاوة فاتحة الكتاب بما فيهـا من حمد لله ، وثنـاء عليه ، واستمداد منه ، واستعانة به ، وطلب لهدايته ، وتفويض تام له .

* **ثم أقيمت لها المسـاجد** : تلك البيوت التى أذن الله : أن ترفع ويذكـر فيهـا اسمه ، والتى يتجلى فيها الوقار ، والسكينة ، والخشوع ، والخضـوع ، مهبط الـرحمات ، وملتقى الصالحين ، وموضع نظر الله فى أرضه : **﴿ فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال ، رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾** [١] .

لقد كانت هذه المساجد مركز حياة المسلمين وتعلمهم ودراستهم ، ومصـدر الإصـلاح والتـوجيه : تعـالـج فيهـا قضايا المسلمين الدينية ، والاجتـماعية ، ويعرفون فى ساحاتها كل ما يرفع من شأنهم فى حياتهم ، ويكتب لهم السعادة بعد مماتهم ، وكان رسول الله ـ ﷺ إذا حدث حَدثٌ

(١) سورة المائدة : ٦

(٢) سورة النور : ٣٦ ، ٣٧

أو نزل بالمسلمين أمر وكانوا فى حاجة إلى توجيه جديد أمر أن ينادى فى الناس : (الصلاة جامعة) ، فيفضى إليهم بالنصح والتذكير ويعلمهم الكتاب والحكمة ويبصرهم بما يصلح من حالهم ، ويوقظ من قلوبهم ، ويشد من عزائمهم .

وظلت المساجد هكذا ، تؤدى رسالتها العظيمة فى خدمة الإسلام ودعم وحدة المسلمين ، فكانت القطب الذى تدور حوله رحى الحياة ، تتفجر فيها ينابيع العلم والهداية ، وتنبثق منها أنوار الإصلاح والإرشاد ، وتنطلق منها موجات الكفاح والجهاد ، ولا يزال المسجد على الرغم مما عرا المسلمين من بعد عنه وعن روحه وتأثيره يؤدى دوره الذى لا ينكره إلا مكابر أو جاحد ، ولا بد لنهضة المسلمين ورفعتهم التى يرجونها أن تعود إلى هذه المساجد جلالتها وروعتها التى كانت لها من قبل ، وتصبح المركز الأول للتوجيه والإرشاد والشورى فى الحياة ، **فإن العودة إليها عودة إلى الله ، واهتداء لسبيله ، واستشعار لرقابته ، واستمداد من فضله ، واستعانة صادقة به .**

والمساجد **تتجلى فيها عظمة الله وحده** ، فلا عظمة فيها لمخلوق ، ولا اختصاص لعظيم أو كبير ، ولا فضل لذى حسب أو نسب ، وهو مكان مشاع يتساوى فيه الناس جميعا الحر منهم والعبد ، والحاكم والمحكوم ، والغنى والفقير ، يذكرهم بقول الحق فى كتابه العزيز : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير** ﴾[1].

* **وشرع الله الجماعة للصلاة** ، وأبان الرسول صلوات الله وسلامه عليه عن فضلها ، فقال : « صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد بسبع

---

(١) سورة الحجرات : ١٣

وعشرين درجة »(1) . وقال : «صلاة الرجل فى جماعة تضعف على صلاته فى بيته وفى سوقه خمسا وعشرين ضعفا ، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ، ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة وحطت عنه بها خطيئة ، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه مالم يحدث ، تقول : اللهم صل عليه ، اللهم ارحمه ، ولا يزال فى صلاة ما انتظر الصلاة »(2) .

وقد توعد النبى - ﷺ - على تركها ، والتخلف عنها ، وأشار إلى أن ذلك من سمات النفاق ، فقال : « والذى نفسى بيده لقد هممت أن آمر بحطب ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها ثم آمر رجلا فيؤم الناس ثم أخالف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم »(3) . وبين أنه ما يتركها جماعة إلا من استحواذ الشيطان عليهم ، وتمكنه منهم ، فقال : « ما من ثلاثة فى قرية ولا بَدْوٍ لاتقام فيهم الجماعة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان فعليكم بالجماعة فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية »(4) .

وحث أصحابه رضى الله عنهم - على الجماعة وحذر من تركها أو التهاون بها ، وبين : **أن فى الحرص عليها الهداية ، وفى الإعراض عنها الضلالة** ، **يقول ابن مسعود** رضى الله عنه : (من سره أن يلقى الله تعالى مسلما فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن ، فإن الله شرع لنبيكم ﷺ -سنن الهدى ، وإنهن من سنن الهدى ، ولو أنكم صليتم فى بيوتكم كما يصلى هذا المتخلف فى بيته لتركتم سنة نبيكم ، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم ، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها الا منافق معلوم النفاق ، ولقد

(1) متفق عليه
(2) متفق عليه
(3) رواه الشيخان
(4) رواه أبو داود

كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقام فى الصف) [1] .

وفى هذه الجماعة حكم جليلة ، ومصالح جمة : بعضها اجتماعى ، وخلقى : كالوحدة والاجتماع ، والتعارف ، والتعاون تحت راية الدين ، وفى ظل رقابة رب العالمين .

وبعضها دينى أخروى : كالمحافظة على الصلوات ، والتنافس فى إحسانها وإتقانها والاستكثار منها ، وإصلاح ما لعله يطرأ عليها من فساد أو خلل عند الانفراد ، **ومعرفة ما فات من** : أحكامها وآدابها ، وأذكارها وقراءتها ، والتأسى بالعلماء العاملين ، والفقهاء المخلصين ، والعباد المخبتين ، ومنها : أن إخلاص المخلصين وإخبات المخبتين وخشوع الخاشعين يؤثر فى الجماعة كلها ، ويسرى نوره من خلالها ؛ فيوقظ النفوس الخامدة ، ويحرك الهمم الفاترة ، وقد يكون سببا فى قبول عبادة الجميع ، وجبر ما فيها من نقص وخلل ، وإكرام الله بعض الناس ببعض أمر تقره قواعد الشريعة ، ويشهد به قول الرسول ـ ﷺ ـ فى الحديث المشهور : **« هم القوم لا يشقى بهم جليسهم »** [2] .

نعم إن لاجتماع المسلمين راغبين راهبين خائفين طامعين سرا عجيبا فى نزول البركات وتدفق الرحمات ، وهذا هو السر فى دعاء الاستسقاء وجماعتها وفى جمع الحج ، وقد كان رسول الله ـ ﷺ ـ شديد الاهتمام بتسوية الصفوف ، كثير الترغيب فى إقامتها ، ووصلها ، وسد خللها شديد الإنكار على الإخلال بها والتفريط فيها ، ذلك لأن فوائد الجماعة لا تتحقق ولا تكتمل إلا بالمحافظة عليها وقيام المسلمين فيها كالبنيان المرصوص ، **ولأن الصلاة والجماعة تربية للحياة كلها ، فمن لم يحسن القيام بها لم يحسن شيئا من عمل الدنيا أو الآخرة** . .

---

(١) رواه مسلم

(٢) جزء من حديث قدسى طويل رواه البخارى وغيره

* **وشرع الله صلاة الجمعة واختصها بشروط وآداب** : تزيد فى جلالها ، وترفع من شأنها ، وتورث مزيدا من الاهتمام بها ، وتعين على النفع بها فى عبادة الله والتعرف عليه ، والتقرب إليه ، وتذكر هديه والانتصاح بنصائحه ، وجمع شمل المسلمين تحت راية الدين ، وهيمنة رب العالمين .

يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ (١) .

وفى الحديث الشريف : « لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات ، أو ليختمن الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين » (٢) .

وفى الحديث كذلك : « من ترك ثلاث جمع تهاونا بها طبع الله على قلبه » (٣) . وفيه كذلك : « لقد هَمَمْتُ أن آمر رجلا ليصلى بالناس ثم أحرق على رجال يتخلفون عن الجمعة بيوتهم » (٤) .

* **وشرع الله فى يوم الجمعة : الاغتسال ، واستعمال السواك ، والتطيب ، والنظافة ، التامة ،** وبين ما يترتب على ذلك من عطاء أخروى إلى جانب ما نلمسه من أثر صحى ، واجتماعى .

فقال ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ : « لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع من طهر ، ويدهن من دهنه ، أو يمس من طيب بيته ، ثم يخرج فلا يفرق بين اثنين ، ثم يصلى ما كتب له ، ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى » (٥) .

ويشير قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ : « فلا يفرق بين اثنين » إلى أن

---

(١) سورة الجمعة : ٩

(٢) رواه مسلم

(٣) أصحاب السنن

(٤) رواه مسلم .

(٥) رواه البخـارى

صاحب هذا الفضل قد بكر إلى الجمعة بحيث لا يحتاج إلى أن يفرق بين اثنين بالمرور، أو الصلاة، وذلك ما صرح به حديث آخر. قال عليه الصلاة والسلام: « **من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة، ثم راح فى الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة، ومن راح فى الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة، ومن راح فى الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشاً أقرن، ومن راح فى الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة، ومن راح فى الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر** »(١).

وما منا من أحد إلا وهو محتاج إلى يوم تتحرك فيه همته ويتفرغ فيه قلبه لعبادة الله والتقرب إليه وجلاء القلب وصقله فيسرى نوره فى سائر الأيام، ويمتد بإشراقه سرا ساريا فى الشهور والأعوام، ولقد كان ذلك يوم الجمعة فى الأسبوع، وليلة القدر فى رمضان ورمضان فى سائر الشهور: (إنه اليوم الذى يستحب التفرغ فيه للعبادة، وله على سائر الأيام مزية بأنواع العبادات واجبة، ومستحبة وقد جعل الله لأهل كل ملة يوما يتفرغون للعبادة ويتخلون فيه عن أشغال الدنيا فيوم الجمعة يوم عبادة، وهو فى الأيام كشهر رمضان فى الشهور، وساعة الإجابة فيه كليلة القدر فى رمضان، ولهذا من صح له يوم الجمعة وسلم سلمت له سائر جمعته، ومن صح له رمضان وسلم سلمت له سائر سنته، ومن صحت له حجته وسلمت صح له سائر عمله، فيوم الجمعة ميزان الأسبوع، ورمضان ميزان العام والحج ميزان العمر وبالله التوفيق)(٢).

لقد أكرمنا الله تعالى معشر المسلمين وخصنا بهذا اليوم العظيم وهو يوم الجمعة وهدانا إليه بعد أن ضل عنه من قبلنا من اليهود والنصارى يقول النبى ﷺ: « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب

---

(١) رواه الشيخان

(٢) زاد المعاد: ١/١٠٦

من قبلنا ثم هذا يومهم الذى فرض عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله له ، فالناس لنا فيه تبع اليهود غدا والنصارى بعد غد » (١) .

وعن فضل يوم الجمعة يقول النبى - ﷺ - : « خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أُدخل الجنة ، وفيه أخرج منها » (٢) . وقال : « إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة فأكثروا علىَّ من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة علىَّ

قالوا : يا رسول الله ، وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ؟

قال : يقول بليت ، قال : « إن الله حرم على الأرض أجساد الأنبياء» (٣) .

* وقد شرع الله كذلك للمسلمين صلاة العيدين : عيد الفطر ، وعيد الأضحى .

يأتى عيد الفطر بعد شهر كامل يقضيه المسلمون بين الصيام والقيام ، والتلاوة والذكر ، والبر والمرحمة ، لقد جعله الله ميقاتا للعطاء والتشرف بضيافة الله .

وأما عيد الأضحى : فإنه يأتى فى آخر عشر ذى الحجة وهى أيام لها فضلها ، ومزيتها ، وفيها ذكريات جليلة توقظ المشاعر ، وتبعث الهمم : إنها ذكريات إبراهيم ، وإسماعيل ، ومحمد - عليهم جميعا الصلاة والسلام .

وإذا كانت الأعياد فى الشعوب والأمم وعند سائر الملل والنحل مواسم تحرر وانطلاق ، ومناسبات لذة وتمتع ، واتسمت عند أهلها بخلع العزار ، وطرح أردية الحشمة والوقار ، والإسراف فى اللهو والتسلية ، حتى أصبحت

(١) رواه البخارى :

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه أبو داود بإسناد صحيح .

بعيدة كل البعد ، تتناقض أشد التناقض مع العبادات ومفهومها ، فإن هذين العيدين عند المسلمين الذين شرعا فى الإسلام يختلفان عما عهده الناس وتوارثوه فى أمر الأعياد ، إنهما عيدان يبدءان بالصلاة لله رب العالمين بشعار : هو التكبير لدى الذهاب إلى الصلاة وفى انتظارها ، وفى الخطبة بعدها .

ثم صدقة الفطر قبل صلاة العيد لإحراز فضيلتها ثم الأضحية بعد الصلاة ، وقد شرع فى هذين العيدين الصلاة بالمصلى خارج البلد إظهارا لشوكة المسلمين وكبتاً لعدوهم ، وغيظاً لِشَانِئِهم ، وتكثيراً لجمعهم ليعظم لهم العطاء .

لقد كان للجمعة والجماعة ومحافظة المسلمين عليها فى الأمصار ، والأقطار فضل كبير فى حفظ هذا الدين ، وسلامة الشريعة الإسلامية والأوضاع الدينية ، وبقائها على ما تركها عليه رسول الله ﷺ - وأصحابه ، وبعدها عن تحريف المحرفين ، وعبث العابثين ، **فلو كان المسلمون** - أعاذهم الله من ذلك - **تركوا الجمعة** ، والجماعة ، وانفردوا بعبادتهم ، وصلواتهم فى بيوتهم وقاموا بها منفردين منعزلين ، موزعين مشتتين ، لحرفت هذه الصلوات ومسخت مسخاً كبيرا أفقدها أصالتها ووضعها الأول ، وتنوع المسلمون فيها وصاروا فرقا وأقساماً كما فى كثير من مظاهر حياتهم المدنية ، وآدابهم الاجتماعية ، وكان للصلاة أنماط ونماذج محلية وفردية ، كما هو حاصل لدى اليهود والنصارى ، لقد كانت هذه الجماعة عاملاً كبيراً من عوامل وحدة المسلمين فى العبادات ، وعاصما لإحكام الدين من التحريف

ولقد بلغ اهتمام الإسلام بالجماعة : أنه رغب فى إقامتها ، والحرص عليها حتى فى أوقات المحن ، والشدائد حين يلقى المسلمون عدوهم ، ويواجهون خصمهم ، لأن الصلاة فى ذاتها سبب المعونة الربانية ، ومصدر الفلاح الالهى ، ومنبع العطاء العاجل والآجل . قال سبحانه وتعالى :

﴿ يأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ﴾ (١) .

ولأن فى إقامتها مع الجماعة مزيدا من العون والعطاء تتضاعف به بركاتها وتكثر به خيراتها ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ، ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ، ولاجناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم ، وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا ﴾ (٢)

ولم تجز الشريعة الإسلامية ترك الصلاة أو تأخيرها عن ميقاتها فى أمن أو خوف ، شدة أورخاء ، صحة ، أو مرض ، سفراً وإقامة ، إلا أنه قد جعل لكل حالة من الحالات وضعاً خاصا يتلاءم مع تلك الحالة ، يتحقق به التيسير ورفع الحرج الذى أكرم الله به هذه الأمة ، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين ، فإن خفتم فرجالا أو ركبانا ، فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم مالم تكونوا تعلمون ﴾ (٣) .

٢ - الصدقات والنفقات :

لعل من نافلة الحديث أن نقول : إن المال مهم غاية الأهمية للأفراد والجماعات وأنه قوام الحياة وأساسها ، وعليه تقوم النهضات ، وتتقدم الحضارات ، وبه صيانة الحرمة ، وقوة الشوكة ، والعزة والمنعة ، فذلك أمر

---

(١) سورة البقرة : ١٥٣

(٢) سورة النساء : ١٠٢

(٣) سورة البقرة : ٢٣٨ ، ٢٣٩

واضح لايحتاج إلى بيان . ويكفى أن يصفه القرآن الكريم بأنه قيام الحياة ، وينصح بالتوسط فيه إن ملكه المرء فلا يسرف حتى يقف عاجزا عن التصرف ، ولا يقتر حتى يتعرض للسخط والملامة . يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما** ﴾ [(١)] . ويقول : ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولاتبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا** ﴾ [(٢)].

ويثنى على فريق من عباده بالتوسط فى النفقة بين الإسراف والتقتير فيقول : ﴿ **والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما** ﴾ [(٣)].

ولما كانت للمال هذه الأهمية فى إعداد العدة ، واتخاذ الأهبة فى درء الأخطار ، واتقاء الأضرار ، وجهاد الكفار كان الجهاد بالمال مقدما فى القرآن الحكيم على الجهاد بالنفس . قال الله سبحانه : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم ، وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ، ذلك الفوز العظيم ، وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين** ﴾ [(٤)].

وكان للنفقة فى سبيل الله امتيازها عن الإنفاق فى الوجوه الأخرى بزيادة أجرها ،وكثرة أضعافها ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ **مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ، فى كل سنبلة مائة**

---

(١) سورة النساء : ٥
(٢) سورة الإسراء : ٢٩
(٣) سورة الفرقان : ٦٧
(٤) سورة الصف : ١٠ - ١٣

حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم ﴾ (1)

ثم لما كان للمال الأهمية البالغة فى دفع الحاجات ، وتفريج الكروب بإطعام الجائع ، وكسوة العارى ، وفك ضائقة المحتاج فإن الله أوصى بالبذل فى هذه الوجوه ، وفرض من ذلك نصيباً معلوماً فى أموال الأغنياء يرد على الفقراء ، وسمى ذلك زكاة تارة ، وصدقة تارة ، مشيرا بهذه الأسماء إلى أمور اتسم بها البذل والإنفاق فى الإسلام ، فقد سماها الله زكاة ؛ لأن الزكاة لغة : التطهير والنماء .

وهذا الجزء القليل الذى يبذله المؤمن الغنى من ماله يطهر صاحبه من الرذائل : من رذائل الشح ، والبخل وقلة المبالاة بالناس ، وعدم الاهتمام بهم ، ثم يحليه بطائفة من الفضائل كالسخاء ، والإيثار وحب الخير للناس ، ورعاية المجتمع ، ويطهر المال كذلك ، وينميه ، ويجعله مباركاً طيباً ، ولاتمتد إليه أيدى السراق والخونة ، ولايسطو به الظلمة والمجرمون ، قال الله تعالى : **﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ، والله سميع عليم ﴾** (2) .

وسماه الله صدقة ، لأن بذل المال لله ، وابتغاء مرضاته دليل الإيمان وآية اليقين ، وأمارة التصديق ، قال النبى ﷺ : « والصدقة برهان » نعم إنها برهان ساطع ، ودليل قاطع على إيمان صاحبها بالله وأن المال ماله هو المعطى أولا والمستخلف ، ثم هو الآخذ الوارث ، ثم هو المثيب على البذل والإنفاق ، المعاقب على البخل والتقتير **﴿ آمنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجركبير ، ومالكم ألا تنفقوا فى سبيل الله ، ولله ميراث السموات والأرض ، لا يستوى منكم**

---

(1) سورة البقرة : ٢٦١

(2) سورة التوبه : ١٠٣

من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير ، من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا ، فيضاعفه له ، وله أجر كريم ، يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ، بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ذلك هو الفوز العظيم ﴾ (١)

والصدقات فى الإسلام تقوم بوظائف شتى ، وكلها تخدم الأغراض السامية ، والأهداف النبيلة التى أوصى بها الدين ، وبشر بها سيد المرسلين ، ولهذا فقد كان القرآن الحكيم حريصاً على بيان مصارفها بيانا قاطعا حتى لاتتجاوز الأهداف التى توخاها الإسلام ، وحتى لاتتسرب إلى أيدى الأغنياء ، والكهنة ، وبعض ذوى الحسب والنسب كما آل إليه الحال بالنسبة للديانة اليهودية ، إذ آل كثير من أموال الصدقات إلى الأحبار والرهبان ، وذوى الأحساب ، والأنساب ، وحرم منها فى كثير من الأحايين من هم فى أشد الحاجة إليها من الفقراء والمساكين ، ففسد حال هؤلاء ، وحال هؤلاء ، فسادا اقتصاديا وفسادا اجتماعيا لسنا بصدد شرحه والكشف عنه ، فإنه قد يعرف ببيان ما آثره الإسلام فى قصر إعطاء الصدقات لفئات بعينها دون ماعداها .

قال الله تعالى : **﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب ، والغارمين ، وفى سبيل الله وابن السبيل ، فريضة من الله ، والله عليم حكيم ﴾** (٢)

فلا ينبغى أن تخرج الصدقات فى الإسلام عن هذه الأصناف الثمانية ، ولسنا الآن بصدد تفصيل القول عن كل صنف من هذه الأصناف ، فقد تكلفت كتب الفقه ببيان ذلك وأفاضت فيه إفاضة لامزيد عليها .

---

(١) سورة الحديد : ٧ - ١٢

(٢) سورة التوبة : ٦٠

وإنما الذى نريد أن ننبه إليه : ماينطوى عليه نظام الصدقة من تكافل اجتماعى بين المجتمع الإسلامى بمواساة الغنى للفقير والمسكين ، ومراعاة المجتمع للذين يتفرغون لشئون المجتمع ، وإعانتهم على القيام بما ندبوا إليه من ذلك خير قيام .

ثم إعطاء المؤلفة قلوبهم ، وهم الذين دخلوا فى الدين ، ولم يتمكن من نفوسهم التمكن الكامل ، ولازالوا يعبدون الله على حرف ، وذلك لتنشرح للإسلام صدورهم ، وتقربه أعينهم ، وذلك مثل الطفل تمنحه قطعة من الحلوى مقابل استذكار درس ، أو إقامة صلاة ، فإذا مرن على ذلك ، وعرف فائدته ، وذاق حلاوته ولذته كان قيامه بواجبه دينياً أو دنيويا أحب إليه من كل شىء .

ثم يعطى المكاتبون ؛ لا ستخلاص رقابهم ، وشراء حريتهم من سادتهم ، وفى هذا أكبر دليل على أن الأسلام تواق إلى الحرية معين عليها ، مرغب فى منحها .

ثم من أحاطت به المغارم والديون جعل الله له فى ذلك المال نصيبا يسدد به دينه ، ويستأنف به حياته ، حتى يعود عضوا نافعا ، وإنسانا صالحا .

أما ابن السبيل : وهو المسافر الذى نفد ماله أوضاع فينبغى أن يعان من هذه الصدقات حتى يبلغ أهله ، فإنه فى هذه الحالة أخو الفقير والمسكين ، وإن كان فى بلده غنياً ، والله على كل حال فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه .

أما الإنفاق فى سبيل الله فهو قمة الإنفاق ، والصدقة عليه من أفضل الصدقات ، وقد مرت بنا آيات كريمة فى ذلك تبين أن الجهاد بالمال سابق ومقدم على الجهاد بالنفس ، وأنه سبب فى العطاء العظيم والأجر الوافر ، والنبى ﷺ يقول وهو المبلغ عن ربه والناطق بوحيه ، والذى شهد له ربه

بأنه ﴿ ماينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ﴾ [1] « من جهز غازيا فقد غزا ، ومن خلف غازيا فى أهله بخير فقد غزا » [2] .

إن الصدقات شرعت فى الإسلام : سدًّا لحاجات الفقراء والمساكين ، وتفريجا لكروب المحتاجين ، وتثبيتا للإيمان فى القلوب ، وتحريرا للرقاب من ذل الرق ، وإعزازا لدين الله ، والدفاع عن حرمات الإسلام .

وهذا هو أحد جوانب الصدقات ، وهو جانب العطاء .

أما مايترتب عليه وينتج عنه ، وهو الذى يطلق عليه الجانب الاجتماعى : فهو الوجه الآخر لتشريع الصدقات ، ونستطيع أن نتبين : الأثر الاجتماعى للصدقات حين نطرح السؤال الآتى :

ماذا يكون الحال لو بخل الأغنياء ، وشحوا بأموالهم على الفقراء ، والمحتاجين ، وعلى البذل فى الوجوه الأخرى ؟

إن صورة المجتمع تصبح صورة مخيفة مفزعة ، فالفقراء والمحتاجون تمتلىء صدورهم بالأحقاد ، والضغائن ، وتفيض نفوسهم بالشر ، وتمتد أيديهم إلى هذه الأموال التى لم يحصلوا عليها طواعية ، ليستولوا عليهم بوسائل أخرى ، يفسد بها نظام الحياة ، ويصبح المجتمع طوائف متناحرة ، تتربص كل منها بالأخرى ، وتغدو الحياة جحيما لا يطاق .

ولقد يقول قائل : إن الدول والحكومات تقوم بفرض ضرائب وجبايات ، وتبذل معونات وصدقات ، ألا تسد هذه مسد الزكاة ؟ ألا تصلح عوضا عنها ؟

والجواب على ذلك : أن مايفرضه البشر على البشر لا يمكن أن يرقى إلى ماشرع الله لعباده ، فان مايفرضه البشر فيه قصورهم وأهواؤهم ، وربما

(١) سورة النجم ٣، ٤

(٢) متفق عليه .

حمل ألوانا من التسلط والابتزاز ، ثم هو فى أغلب الأحيان يوضع فى غير موضعه ، ويوجه إلى غير مستحقيه .

أما الزكاة التى شرعها الحكيم العليم لعباده فإن لها خصائص وسمات تميزها عما عداها من ضرائب مفروضة ، ومعونات مبذولة ، فمن أبرز هذه الخصائص أنها قربة لله عز وجل ، ولا بد أن يصحبها . النية ، والإخلاص ، والاحتساب لتكون مقبولة ، ولاشىء من ذلك يقصد فى الضرائب ، بل إنها فى الأعم الأغلب تكون مصحوبة بروح السخط والمقت ، والاستثقال والاستكثار ، لأن دافع هذه الضرائب لايعتقد أنها مشروعة من الله ، ولايرجو عليها أجرا ولاثوابا ، بل يعتقد أنها مفروضة عليه من أفراد وربما أقل منه وأنها تنفق فى كثير من الأحيان فى الأهواء ، والشهوات احتفاظاً بسلطة ، أو لخدمة أفراد محدودين ، ثم لايرافقها شىء من الترغيب فى الإخْلافِ ، والجزاء ، أو الترهيب من النكول والبخل ، بل إنها كثيراً ماتؤدى تحت ضغط التهديد والتغريم ، التى تزيد دافعها كراهية وسخطا .

ولهذه الحكمة البالغة ، والتى لاتتأتى إلا فيما شرع من الله جاءت الزكاة فى القرآن الكريم والسنة المطهرة مشفوعة بما يرغب فى إخراجها بطيب نفس ، وصدق نية ، وكريم احتساب ، وذلك ببيان مايترتب على إخراجها من نتائج ، وثمرات فى الدنيا والآخرة ، من إخْلَافٍ ، وثواب ، ونمو ، وبركة .

يقول الله تعالى : **﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ، الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون ﴾** [1] .

(١) سورة البقرة : ٢٦١ ، ٢٦٢

ويقـول : ﴿ إن المصـدقـين والمصـدقـات وأقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ولهم أجر كريم ﴾ [١] .

ويقول النبى ﷺ : « من تصدق بعدل تمَرة من كسب طيِب ولايقبل الله إلا الطيب فإن الله يقبلها بيمينه ، ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل » [٢] .

ويقـول : « ما نقصت صدقـة من مال ، ومازاد الله عبدا بعفو إلا عزا ، وماتواضع أحد لله إلا رفعه الله » [٣] ويقول : « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أَعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفا » [٤] .

وينعى القـرآن على أولئـك الـذين استـولى الشـح ، والحرص على نفوسهم فصاروا يعيشون فى الحياة ولاهم لهم إلا الجمع والمنع : يأخذونه من غير حله ، ولا يضعونه فى محله ، فويل لهم حين أخذوه ، وويل لهم حين بخلوا به ومنعوه ، وويل لمن سلك فى الجمع والمنع مسلكهم . يقول الله سبحانه : ﴿ ياأيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أمـوال النـاس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهـم ، هذا ماكنزتم لأنفسكم فذوقوا ماكنتم تكنزون ﴾ [٥] .

ويقول عليه الصلاة والسلام : « من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مُثِّلَ له يوم القيامـة شجاعاً أقرع ـ له زبيبتان ـ يطوقه يوم القيامة ، ثم يأخذ

---

(١) سورة الحديد : ١٨
(٢) متفق عليه
(٣) رواه مسلم
(٤) متفق عليه
(٥) سورة التوبة : ٣٤ ، ٣٥

بلهزمتيه ـ يعنى : شدقيه ـ ثم يقول : أنا مالك ، أنا كنزك ثم تلا ﴿ ولايحسبن الذين يبخلون . . . ﴾ الآية [1] .

ومن هذه الخصائص : أنها تؤخذ من أغنياء الناس ، وترد على فقرائهم ، فهى تؤخذ من الأغنياء الذين يستوفون شروط وجوبها ، ويملكون النصاب الذى حددته الشريعة وتصرف فى مصارف عينها الله سبحانه ، ولم يكل أمر تعيينها الى رأى حاكم أو عالم أو مشرع أو مقنن ، ويرى كثير من الفقهاء ، وجوب صرفها فى المكان الذى وجبت فيه ، وإنفاقها على فقراء البقعة التى تجبى فيها ، وهذا بخلاف هذه الضرائب ، والمكوس فإنها تؤخذ من الجميع : من عرق الكادين مثلما تؤخذ من فضول الموسرين ، ثم إنها تنفق فى وجوه إذا وزنت بميزان الشريعة تبين أنه إذا كان فيها الكريم المشروع ، ففيها الخبيث الممنوع .

لقد كانت الزكاة الإسلامية بهذا التوجيه الإلهى ترعى : جانب الفقير ، ومصلحة الغنى كذلك ، فإذا كان المرء بالشهادتين يدخل فى الإسلام ، فإنه بالصلاة قد أوفى بالجانب المهم فى عهده مع الله ، وتوثيق صلته بالذى خلقه وصوره ، وشق سمعه وبصره وهو بالزكاة والصدقات يبدأ عهداجديدا مع إخوانه فى الدين ، وشركائه فى المجتمع : عهداً ترفرف عليه رايات الحب ، ويغمره التعاون والتراحم . .

ومن هذه الخصائص أنها وسيلة لتقويم مؤديها ، ورفعه إلى مقام المراقبة والإحسان وتحليته بالفضائل النفسية الرفيعة ، والكمالات السامية ، فإن الصدقات لون من العبادة يحتاج فى قبولها لمراقبة الله ، والبعد عن الرياء والمن وأذى المتصدق عليه حتى يظفر المتصدق بأجره موفورا غير منقوص .

وكم أثنى القرآن الكريم على المخلصين فى صدقاتهم ، وحذر من

---

(١) رواه البخارى

الذين يبطلون صدقاتهم بالمن والأذى كما حذر من الرياء ، وبين : أن كل ذلك مبطل للعمل ، محبط للصدقة فقال : ﴿ الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ، ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم ، يأيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولايؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا ، لايقدرون على شىء مما كسبوا والله لايهدى القوم الكافرين ﴾ (١) .

وثناء الله على المتصدقين من أجله ، والباذلين لأموالهم ابتغاء مرضاته ، وذكره لأوصافهم ومشاعرهم تدل على ماوصلوا إليه من سمو لايدانى ، ولا يمكن أن يحصل فيما يشرع البشر للبشر يقول الله سبحانه : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا ، إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولاشكورا ، إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا ، فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا ، متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا ﴾ . (٢)

ويقول سبحانه : ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة : أنهم إلى ربهم راجعون أولئك يسارعون فى الخيرات ، وهم لها سابقون ﴾ (٣) .

٣ ـ الصيـام

لانعتقد أنه بوسعنا ولا بوسع بشر ـ مهما أوتى من علم ، ورزق من حكمة ـ أن يحيط علما بأسرار الله التى تضمنتها العبادات التى شرعها ،

(١) سورة البقرة : ٢٦٢ ـ ٢٦٤
(٢) سورة الانسان : ٨ ـ ١٣
(٣) سورة المؤمنون : ٦٠ ، ٦١

والشعائر التى وضعها ، ولولا أن الله بمنه وكرمه أوضح من ذلك جوانب ، وأشار إلى أخرى إيناسا للنفوس ، وجذبا للقلوب ماكان لبشر أن يخوض فى ذلك ، أويتكلم فيه ، والتسليم معيار الإيمان وميزان الإخلاص ، وليس بمؤمن من خامر قلبه فى شىء من شرع الله شك أو تردد أوشبهة أو ريبة ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ، وأولئك هم المفلحون ، ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون ﴾ (١) .

وهـذا الركن الذى نحن بصدد الحديث عنه وهو الصيام : له آثاره البعيدة المـدى على النفوس ، وله فوائده المحققة على المجتمع ، فى كافة جوانبه وأحواله ، ونود ـ هنا ـ : أن نورد فى ذلك كلام عالمين جليلين لهما المكـانـة العـالية ، والمنـزلـة السـامية ، والتجـربـة والمعـرفـة ، والـذوق والإحساس ، أما أولهما فهو حجة الإسلام أبو حامد الغزالى .

يقول رحمه الله : المقصود من الصوم : التخلق بخلق من أخلاق الله عز وجل ، وهو الصمدية ، والاقتداء بالملائكة فى الكف عن الشهوات ، بقدر الإمكان ، فإنهم منزهون عن الشهوات ، والإنسان رتبته فوق رتبة البهائم لقدرته بنور العقل على كسر شهوته ، ودون رتبة الملائكة لاستيلاء الشهـوات عليه ، وكـونه مبتلى بمجاهدتها ، فكلما انهمك فى الشهوات انحط إلى أسفل السافلين ، والتحق بغمار البهائم ، وكلما قمع الشهوات ارتفع الى أعلى عليين ، والتحق بأفق الملائكة (٢) .

أما الثانى فهو العلامة ابن القيم ، يقول رحمه الله :

المقصـود من الصيام : حبس النفس عن الشهوات ، وفطامها عن المألوفات ، وتعديل قوتها الشهوانية ؛ لتستعد لطلب ما فيه غاية سعادتها

(١) سورة النور ٥١ ، ٥٢
(٢) إحياء علوم الدين : ٢١٢/١

ونعيمها ، وقبول ماتزكو به مما فيه حياتها الأبدية ، ويكسر الجوع والظمأ من حدتهـا وسورتها ، ويذكرها بحال الأكباد الجائعة من المساكين ، وتضييق مجارى الشيطان من العبد بتضييق مجارى الطعام والشراب ، وتحبس قوى الأعضـاء عن استرسالها لحكم الطبيعة فيما يضرها فى معاشها ومعادها ، ويسكن كل عضو منها ، وكل قوة عن جماحه ، وتلجم بلجامه .

فهـو لجام المتقـين ، وجنـة المحـاربـين ، ورياضة الأبرار المقربين ، وللصوم تأثير عجيب فى حفظ الجوارح الظاهرة ، والقوى الباطنة ، وحمايتها عن التخليط الجالب لها المواد الفاسدة التى إذا استولت عليها أفسدتها ، واستفراغ المواد الرديئة المانعة له من صحتها .

فالصـوم : يحفظ على القلب والجـوارح صحتهـا ، ويعيد إليهـا ما استلبته منها أيدى الشهوات ، فهو من أكبر العون على التقوى ، كما قال تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ (١) .

وقـال النبى ﷺ : « **الصـوم جُنة** » وأمر من اشتدت عليه شهوة النكاح ـ وله قدرة عليه ـ بالصيام ، وجعله وجاء هذه الشهوة ، والمقصود أن مصـالـح الصوم لما كانت مشهودة بالعقول السليمة ، والفطرة المستقيمة شرعه الله لعباده رحمة لهم وإحسانا إليهم وحمية وجنة (٢) .

إن الفضائل النفسية ، والفوائد الاجتماعية التى يثمرها الصوم أجل من أن تحصر ، وإذا كان الصـوم يثمر التقوى وعفة النفس ، واستقامة الجوارح ويقظة الضمير ، ورحمة القلب ، وخشية الرب فإن هذه الفضائل تنعكس على المجتمع كله ، وتنشر بركاتها عليه ، وقد أشار كلام الغزالى

---

(١) سورة البقرة ٨٣

(٢) زاد المعاد فى هدى خير العباد : ١٥٢/١ .

وابن القيم إلى كثير من هذه الآثار ، ومعظمها مستقىً إما من القرآن الكريم ، أو من كلام النبى ﷺ .

والتقوى التى جعلها الله غاية للصيام ، والجُنَّة التى وصف بها النبى ﷺ الصوم يمكن أن يندرج تحتهما كل ما أدركنا وما لم ندرك من حكم الصيام ، فليس للتقوى حد تقف عنده ، أو غاية تنتهى إليها ، وكذلك الجنة قد تكون من التقصير ، والمخالفات ، وقد يرقى بها صاحبها فتكون من الشبهات ، وقد يزداد رقيا فتصبح جنة من الغفلات والخطرات .

ويشير ابن القيم فى موطن آخر من كتابه القيم : « زاد المعاد فى هدى خير العباد » إلى لون آخر من بركات الصوم فيقول : لما كان صلاح القلب واستقامته على طريق سيره إلى الله تعالى متوقفا على جمعيته على الله ولم شعثه ، بإقباله بالكلية على الله تعالى ، فإن شعث القلب لايلمه إلا الإقبال على الله تعالى ، وَكَانَ فضول الطعام والشراب ، وفضول مخالفة الآثام ، وفضول الكلام ، وفضول المنام ، مما يزيده شعثا ، ويشتته فى كل واد يقطعه عن سيره إلى الله تعالى ، أو يضعفه أو يعوقه اقتضت رحمة العزيز الرحيم بعباده أن شرع لهم من الصوم ما يذهب فضول الطعام والشراب ويستفرغ من القلب أخلاط الشهوات المعوقة له عن سيره إلى الله تعالى ، وشرعه بقدر المصلحة ، بحيث ينتفع به العبد فى دنياه وأخراه ، ولايقطعه عن مصالحه العاجلة والآجلة [1] .

إن المجتمع الذى يستقيم على شريعة الصوم يكون مجتمعا قويا فى عقيدته ، قويا فى استجابته لأمر ربه ، قويا بتماسكه وتراحمه ، قويا بأخلاقه الكريمة ، وشمائله النبيلة .

إنه مجتمع تسوده مراعاة أمر الله ، وأداء أمانته ، والغيرة على دينه تسوده

---

(١) زاد المعاد : ١٦٨/١ .

الأمانة ، ويختفى فيه الجحود والخيانة ، يسوده الصدق ويندر فيه الكذب ، يسوده الصراحة والإخلاص ، ويقل فيه الكذب والمداهنة .

إن تأثير الصوم لايقف عند حد ، فإن الله سبحانه لايقبل من الصيام إلا ما ابتغى به وجهه ، وأثمر لصاحبه بعدا عن الشهوات والموبقات ، واستمساكا بالخيرات والقربات ، يقول النبى ﷺ : « **من لم يدع قول الزور ، والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه** » (١) ويقول : « **كم من صائم ليس من صيامه إلا الجوع ، وكم من قائم ليس من قيامه إلا السهر** » . (٢)

شهر رمضان

وقد اختار الله سبحانه ـ بحكمته البالغة ـ شهر رمضان المبارك ليكون موسم الصيام المفروض على المسلمين من كل عام ، وقد أشار القرآن الكريم إلى السر فى اختيار هذا الشهر لهذه الفريضة المباركة ، ذلك أنه الشهر الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان .

يقول الله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ، أياما معدودات فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر ، وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ، فمن تطوع خيرا فهو خير له ، وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر ، يريد الله بكم اليسر ولايريد بكم العسر ، ولتكملوا العدة ، ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون** ﴾ (٣)

---

(١) رواه البخارى .
(٢) رواه النسائى وابن ماجه والحاكم وقال صحيح على شرط البخارى
(٣) سورة البقرة ١٨٣ ـ ١٨٥

يقـول السيد أبو الحسن الندوى : وجعل الله الصوم فى رمضان ، فجعل أحدهما مقرونا بالآخر ، مرتبطا به ، فذلك قران السعدين ، والتقاء السعادتين فى حكمة التشريع ، وذلك لأن رمضان قد أنزل فيه القرآن ، فكان مطلع الصبح الصادق فى ليل الإنسانية الغاسق ، فحسن أن يقرن هذا الشهر بالصوم ، كما يقترن طلوع الصبح الصادق بالصوم كل يوم ، وكان أحق شهور الله - بما خصه الله من يمن ، وسعادة ، وبركة ورحمة ، وبما بينه وبين القلوب السليمة من صلة خفية روحية : بأن يصام نهاره ويقام ليله .

وبين الصوم والقرآن صلة متينة ، ولذلك كان رسول الله ﷺ يكثر من تلاوة القرآن فى رمضان ، يقول ابن عباس رضى الله عنه : **(كان رسول الله ﷺ أجود الناس ، وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه جبريل فى كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن فلَرَسولُ الله ﷺ حين يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة)** .

وينقل عن بعض رسائل العارف بالله ، **العالم الربانى أحمد بن عبد الأحد السرهندى فى بعض رسائله كلمات مشرقة فى ذلك يقول :**

إن لهذا الشهر مناسبة تامة بالقرآن ، وبهذه المناسبة كان نزوله فيه وكان هذا الشهر جامعا لجميع الخيرات والبركات ، وكل خير وبركة تصل إلى الناس فى طول العام قطرة من هذا البحر ، وإن جمعية هذا الشهر سبب لجمعية العام كله وتشتت البال فيه سبب للتشتت فى بقية الأيام ، وفى طول العام ، فطوبى لمن مضى عليه هذا الشهر المبارك ورضى الله عنه ، وويل لمن سخط عليه ، فمنع من البركات ، وحرم من الخيرات (١) .

---

(١) رسائل الامام الربانى الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندى ١/٨ المتوفى سنة ١٠٣٤هـ (الأركان الأربعة لأبى الحسن الندوى صفحة ١٩٧)

ويقول فى رسالة أخرى : (إذا وفق الإنسان للخيرات ، والأعمال الصالحة فى هذا الشهر حالفه التوفيق فى طول السنة ، وإذا مضى هذا الشهر فى توزع بال ، وتشتت حال مضى العام كله فى تشتت وتشويش) [1] .

لقد أصبح رمضان بما شرع فيه من صيام ، وسن فيه من قيام ، ومارغب فيه من عبادة وذكر ، وتلاوة للقرآن الكريم ، وصدقات وتراحم موسماً فذا من مواسم العبادة المتعددة المناحى ، المتشعبة الجوانب ، تلك العبادات التى تطبع النفوس بطابع الرحمة والخير ، وتغمر المجتمع كله بموجة جارفة من الحب والمودة ، والتعاون والتراحم وتذكر فيه الأمة واجبها نحو دينها ، ونحو كتاب الله الذى أنزل عليها .

نعم إن هذا الشهر يحدث تغييرات بعيدة المدى فى حياة الناس ، ويعلمهم كيف يحيون ، وكيف يستعدون للحياة الآخرة . وكم من معرض عن ربه ، مقصر فى واجبه نحو نفسه ، منحرف المسلك ، عاد بهذا الشهر وبالروحانية والإشراق والصفاء التى تغمر المجتمع فيه مقبلا على ربه ، منشرح الصدر بطاعته ، مستقيم السلوك ، عف اليد ، طاهر القلب ، نقى الضمير .

وكم من عبد كان يسير تارة ، ويعثر تارة ، يقبل على ربه حينا ، ويعرض أحيانا ، لايكاد يذوق لذة العبادة وصفاءها ، حتى يقع فى مرارة التقصير وكدره ، أكرمه الله فى ذلك الشهر بإقبال لا إعراض بعده وصفاء لايشوبه كدر ، ورضا لايعقبه سخط .

كم لله فيه من عطاء لعباده بحسب أحوالهم ، وبحسب أعمالهم ، أحسنوا فأحسن الله إليهم ، وتقربوا إلى ربهم فتقرب إليهم ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان .

---

(١) رسالة (٤٥) أيضا (الأركان الأربعة صفحة ١٩٧) .

القران الكريم

ومن العبادات التى لها التعلق الكامل ، والمناسبة التامة بالصيام ، وبشهر رمضان المبارك تلاوة القرآن الكريم ، وتدبر معانيه ، وإحياء القلب به ، وقد ورث المسلمون سنة الاهتمام بتلاوة القرآن فى ذلك الشهر العظيم عن نبيهم محمد ﷺ ، فقد كان جبريل عليه السلام يدارسه القرآن فى كل ليلة من ليالى هذا الشهر العظيم ، وكان لهذه العبادة ولهذا اللقاء أثرهما فى تدفق الخير على يديه ﷺ ، وجريانه أضعافا مضاعفة .

يقول ابن عباس رضى الله عنه : **(كان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير ، وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان جبريل يلقاه فى كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة)**. [1]

والقرآن الكريم هو كتاب الله عز وجل ، وهو الذكر الحكيم ، وهو النور المبين وهو الحبل الذى من اعتصم به نجا ، وهو الروح الذى تحيا به القلوب ، وتستنير البصائر ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

وفى الحديث الذى رواه الترمذى : « **كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم** ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، هو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا :

---

(١) رواه البخاري .

﴿ **إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به** ﴾ من قال به صدق ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم» [1] .

هو هداية للقلوب بما اشتمل عليه من **ألوان الإعجاز : اللغوى ، والبلاغى ، والنفسى ، والعلمى .**

وما من متخصص فى فرع من فروع المعرفة إلا واجد فى القرآن الكريم دقائق وحقائق من العلم الذى تخصص فيه سبق القرآن إلى بيانها بأسلوب يتناسب مع كل عصر ، بحيث لا تقع به فتنة ، ولا تحدث به ريبة ، وذلك لون آخر من الإعجاز والحكمة ، والرحمة ، وقد يكون لبسط القول عن القرآن وعما فيه من ألوان الإعجاز ، والهداية مواطن أخر ، ذلك أن الذى يهمنا هنا هو الأثر الذى يترتب على هذه التلاوة التى يحرص المسلمون عليها فى هذا الشهر الكريم ، ويحتفلون بها أيما احتفال ونكتفى من هذه الآثار الطيبة بالإشارة إلى الأمور الآتية :

أولا : فى تلاوة القرآن الكريم معرفة الله عز وجل ، والتعرف إليه ، فما من كتاب إلا وهو يحمل روح صاحبه ، ويتضمن التعريف بواضعه ، وبخاصة إذا كان قد كتبه عن نفسه ، وعن آثاره وأسراره ، والقرآن الكريم تجلت فيه صفات الحق جل وعلا ، ومراضيه ومساخطه : ففيه يَجِدُ المؤمن صاحب القلب النقى ، والعقل المتدبر ، عظمة العظيم وسطوة الجبار ، وعفو الرحيم وإحسان المحسن ، ولطف اللطيف ، وحكمة الحكيم ، ومحبة الودود ، ولذلك فهو أَجَلُّ أنواع الذكر ، لأنه ذكر الله بكلامه ، ووصف له بما وصف به نفسه ، وثناء عليه بما أثنى به على ذاته ، وبالطريقة التى اختارها وأحكمها ؛ ومن أجل ذلك فهو حياة القلوب ، ونور

---

(١) رواه الترمذى .

البصائر ، وباعث الهمم : به تطمئن القلوب ، وتنشرح الصدور ، وتسكن الخواطر ، وتسارع النفوس إلى ربها راغبة راهبة :

﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ، ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾(١).

﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب ﴾(٢)

﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ، وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾(٣) .

ثانيا : فى تلاوة القرآن الكريم تذكر لشريعة الله ، وما يريده رب العباد من : العباد من صلاة ، وزكاة ، وصيام ، وحج ، ونسك ، وبر وتراحم ، وتحاب وتآلف ، وصدق حديث ، وأداء أمانة ورعاية للعهود ، ووفاء بالمواثيق ، وما يترتب على ذلك من أجر جزيل ، وثواب عظيم فى العاجلة والآجلة لمن أخلص ذلك لله وحده ، وابتغى به وجهه ، وقام به إيمانا واحتسابا ثم تذكر لما نهى الله عنه ، وحذر منه من تقصير ومخالفات ، وفواحش وموبقات ، سواء تعلقت بالقلوب كالحقد والحسد وسوء الظن والكبر والعجب ، والفخر والرياء وحب المحمدة ، أو بالجوارح كالكذب والغيبة والسرقة ، والزنا ، وشرب الخمر ، ولعب الميسر ، والسحر ، وقذف المحصنات الغافلات ، وتذكر لما رصد الله على ذلك من عقاب ، ورتب عليه من عذاب نفسى ، وجسدى ، وحرمان مادى وأدبى : منه ما يعجله الله فى الدنيا ، ومنه ما هو مرصود لمستحقه فى آخرته جزاء وفاقا على ما اكتسب من آثام ، وفرط فى جنب الله .

(١) سورة الزمر : ٢٣
(٢) سورة ص : ٢٩
(٣) سورة الحشر : ٢١

ولا ريب أن للصيام أثراً عظيما فى إعداد المسلم للعبادة ، وتأهيله لجنى ثمـراتهـا ، والانتفـاع بخيراتها وبركاتها ، فإن النفوس به تصبح مستعدة للخير ، راغبة فى البر ، كارهة للشر ، خائفة ونافرة من الفجور ، وإذا كانت التلاوة عبادة لها ثمارها فإن هذه الثمار تكون أزكى وأنمى وأبقى إذا كان القلب مستعدا والنفس متهيئة ، وكأنما كانت هذه الحكمة تجول فى خاطر النبى ﷺ حين قرن بينهما فى أنهما يَشْفَعَان لصاحبهما ، ويُشَفَّعان فيه ، يقـول عليه الصلاة والسلام : « الصيام والقرآن يشفعان للعبد : يقول الصيام : رب منعتـه الطعام بالنهار فشفعنى فيه ، ويقول القرآن : رب منعته المنام بالليل فشفعنى فيه قال : فَيُشَفَّعَان » [1] .

الحـــج

الحج هو الركن الخامس فى الإسلام ، وهو الفريضة التى تستوجب مفارقة المألوفات والعادات استجابة لرب الأرض والسموات .

والحج تلبية لدعوة الله تبارك وتعالى التى كان أول من أعلنها فى الناس إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام حين قال له ربه : ﴿ وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منـافـع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعـام ، فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ، ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم ، وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ [2] .

ولهـذا فإن المسلم حين يستعـد لتلبية هذه الدعوة بالإحرام : الذى يفارق فيه العادات والمألوفات ، وبتطهير باطنه : بالنية الصادقة ، والتوبة النصـوح ، وتـطـهـير ظاهـره : بالاغتسال فإنه يعلن استجابته لأمر ربه

(١) رواه أحمد

(٢) سورة الحج : ٢٧ ـ ٢٩

الحج وما فيها من خير فقال : تحت عنوان (شعائر الله وحكمتها) - :

وقد اختار الله أمورا ظاهرة محسوسة اختصت به ، ونسبت إليه ، وتجلت عليها رحمته ، وحفتها عنايته بحيث إذا رؤيت ذكر الله ، وارتبط بها وقائع وحوادث ، وأفعال وأحوال تذكر بأيام الله وآلائه ، ودينه وتوحيده ، وحسن بلاء أنبيائه ، وسماها (شعائر الله) التى جعل تعظيمها تعظيمه والتفريط فى جنبها تفريطا فى جنبه ، وسمح للناس أن يقضوا بها حنينهم الكامن فى نفوسهم ، ورغبتهم الفطرية فى الدنو والمشاهدة ، بل حث على ذلك ، ودعا إليه فقال : ﴿ **ذلك من يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب** ﴾ (1) . وقال : ﴿ ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه ﴾ (2) .

إنه ما من مكان أو شعيرة فى الحج إلا وهو يثير من الذكريات ويهيج من العواطف ما هو كفيل بإحياء القلوب ، وتوجيهها إلى ربها ، وخلعها عما يباعد بينها وبينه ، وغرس مشاعر الحب والحنان ، والتراحم ، والتناصر بين المسلمين على اختلاف أجناسهم وألوانهم ، بل على اختلاف الأزمان التى عاشوا فيها ، والمواطن التى ينتسبون إليها ، يحس المؤمن بحب ، وحنين نحو إخوانه الذين سبقوه بالإيمان ، وجاهدوا فى الله حق جهاده ، ويذكر بوقوفه على عرفات وقفته ووقفة الناس بين يدى ربهم يوم القيامة ، فتستيقظ الضمائر ، وتخشع القلوب .

ويذكر وقوف الرسول ﷺ بعرفة فى حجة الوداع ومن حوله المهاجرون ، والأنصار ، والمسلمون من كافة أنحاء جزيرة العرب ، وهو يخطب فيهم خطبته المشهورة الجامعة :

« أيها الناس اسمعوا قولى فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا

---

(1) سورة الحج : ٣٢

(2) سورة الحج : ٣٠ ، الأركان الأربعة .

بهذا الموقف أبدا ، أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت . فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وإن كل ربا موضوع ، ولكن لكم رءوس أموالكم : لا تظلمون ولا تظلمون . قضى الله أنه لا ربا وإن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله ».

إلى أن يقول : «أيها الناس : إن لكم على نسائكم حقاً ، ولهن عليكم حقاً ، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع ، وتضربوهن ضرباً غيرَ مُبَرِّح ، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيراً ، فإنهن عندكم عوان لايملكن لأنفسهن شيئا . وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاعقلوا أيها الناس قولى فإنى قد بلّغت .

وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا أمرا بينا ، كتاب الله وسنة نبيه . . .

أيها الناس : اسمعوا قولى واعقلوه ، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين إخوة ، فلا يحل لامرىء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم ، اللهم هل بلغت ؟ »

قالوا : اللهم نعم .

فقال رسول الله ﷺ : «اللهم اشهد » .

ويذكر كذلك إكمال الدين وإتمام النعمة على هذه الأمة حينما أنزل الله على رسوله ﷺ فى هذا الموقف فى يوم الجمعة عشية عرفة ﴿ اليوم أكملت

لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا [1] ﴾ .

ففى الحج يربط المسلم قلبه بذكريات أبى الأنبياء إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - وما كان منه من : جهاد ، وتضحية ، وتقديمه أمر ربه على النفس ، والولد دون ما تردد أو جزع ، وإنها لعبرة أنْ يؤمر عليه الصلاة والسلام - وهو الأثير عند ربه ، الوفى بعهده - أن يذبح ولده الوحيد بيده بعد أن أصبح قرة عينه ، وسكينة نفسه ، ولكنه يستجيب استجابة المؤمن بحكمة ربه ، ويعرض ذلك على ولده فيستجيب كذلك ، ويكون من أمر الله عز وجل ولطفه ، وعطائه ومنته ماذكره سبحانه فى كتابه عبرة لمن أراد أن يعتبر ، وذكرى لمن أراد أن يتذكر : ﴿ فبشرناه بغلام حليم ، فلما بلغ معه السعى

قال : يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ؟

قال : ياأبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين .

فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين ، إن هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم ، وتركنا عليه فى الآخرين سلام على إبراهيم ، كذلك نجزى المحسنين ﴾ [2] .

إن الحج بعث لهذه العبرة ، وإحياء لهذه الموعظة الفذة التى يسوقها الله تبارك وتعالى للمسلمين من خلال تلك القصة الفذة التى أجراها الله على نبيه وخليله إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام .

وفى الحج تذكر لنصائح القرآن الكريم التى اقترنت به ، وما فيها من حكم وأسرار ، نتذكر تلك الآية التى نزلت تنهى المسلمين عن تمكين المشركين من الحج بعد عامهم هذا - وهو العام الهجرى التاسع - وما كان

---

(١) سورة المائدة : ٣

(٢) سورة الصفات : ١٠١ - ١١٠

من توجيه الله لمن يعتمدون على هذا الموسم فى معايشهم بأن حظر الحج على المشركين لن يضيرهم فى شىء ، وأن الرزق بيد الله يمنحه من شاء متى شاء : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم ﴾ (١) .

نتذكر أن المعايش بيد الرزاق فلا ينبغى أن يكثر بها انشغالنا ، وليكن على الله سبحانه اعتمادنا بعد أداء ما افترضه ، والقيام بما أوجبه ، وفى نفس المعنى يخاطب الله عز وجل نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى كتابه : ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لانسألك رزقا ، نحن نرزقك والعاقبة للتقوى ﴾ .

ونتذكر كذلك أن الحج : إنما هو تعويد على مكارم الأخلاق ، ومقابلة السيئة بالحسنة ابتغاء وجه الله ، وإحسان إلى الناس طلباً للإحسان من الملك الديان ﴿ الحج أشهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ، ولا فسوق ، ولا جدال فى الحج ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، واتقون يا أولى الألباب ﴾ (٢) .

والحق أن الحج بما فيه من أوضاع ، وشعائر ، ودعوات ، وابتهالات ، وذكريات : مدرسة تملأ القلب رضا وسكينة ، وإيماناً وطمأنينة ، وتغمره بالخير من جميع نواحيه ، فيعود مسلما مؤمناً حقاً وصدقاً ، مسارعاً للاستجابة لربه الذى خلق فسوى ، وقدر فهدى ، يصدق عليه قول الصادق المصدوق ﷺ : ﴿ ذاق طعم الإيمان من رضى بالله ربا ، وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبياً ورسولا ﴾ (٣) .

---

(١) سورة التوبة : ٢٨

(٢) سورة البقرة ١٩٧ .

(٣) رواه مسلم

والله من وراء القصد

وهـو وحـده ولى التـوفيق ، والهـادى لأكرم سبيل وأقوم طريق ، لا حول ولا قوة إلا به ولا ملجأ منه إلا إليه .

نسأله ونضرع إليه أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته

★ ★ ★

خاتمة

وبعد هذه الجولات التى طوفنا فيها حول موضوع العبادة وما يتعلق بهـا.

وبيان مالها من صلة وثيقة بالإيمان، والأخلاق والعمل والسلوك.

وبيان مالهـا من تأثـير على النـاس أفراداً، وجماعات فى حاضرهم، ومستقبلهم: فى المبتدا من أمورهم، والمنتهى بطريقة تربط بين النصوص والأذواق، وتحلل إشارات القرآن والسنة فإننى أحمد الله تبارك وتعالى على توفيقه ومعونته. فقد نبه هذا العمل إلى أمور كثيرة يحتاج إليها المؤمن والعالم.

ويستطيع المتصفح لهذا الكتاب أن يضع يده على كثير من: المعارف والعلوم التى يطمئن إلى قوة براهينها، ودقة استنباطها. وبحسبنا أن نضع بين يدى القارىء بعض هذه المعالم البارزة:

- العبادة: اتجاه كامل إلى الله بالقلوب والجوارح.
- العبادة: شكر لله واعتراف بفضله لأنه الخالق الرازق.
- ليس المنظور إليه فى العبادة كثرتها، وإنما المنظور إليه إخلاصها لله، ومدى الإقبال عليه فيها.
- القلوب: كالأبدان تعتريها الأعراض والأمراض، والصحة والسقم.
- العبادة: مطلوبة ومشروعة لذاتها، ولآثارها.
- العبادة: لاتسقط عن العبد بحال مادام أهلا للتكليف.
- العبادة: شرف للعابدين، وقدم صدق للمتقين.
- العبادة: سبب العطاء فى الدنيا، والنعيم فى الآخرة.
- يتفاوت ثواب العبادة لاعتبارات كثيرة فى معرفتها خير كثير.

- الإيمان والعبادة مقترنان : لاعبادة بدون إيمان ، ولا إيمان لمن أهمل العبادة .
- الإيمان : نعم الدافع إلى العبادة .
- العبادة : ضرورية للداعية تصفية لقلبه ، وتطهيرا لنفسه ، وتقربا إلى ربه .
- لكل عبادة سر خاص فى إصلاح العبد فالعبادات للإنسان كالأدوية للأبدان .
- البعد عن الآثام ، والعزوف عن الحرام يجعل العبد موفقاً للطاعات ، معاناً على العبادات .
- إنكار الفتن ، وكراهيتها : يقوى الإيمان ، ويحصن الإنسان .
- العبادات : خير عاصم من شر فتن الدنيا .
- عبادات الإسلام : أسوار تحرس الدين ، وتصون اليقين .
- **من وفق إلى العبادات أعين على الفضائل .**
- من رزق الفضائل ، وأبعد عن الرذائل أعين على العبادات .

النصائح

إن الإقبال على الدين ، وتبنى قضاياه وإقامة شعائره فى مدارسنا وجامعاتنا ومصالحنا ومجامعنا ضرورى لرفعة شأننا فى هذه الحياة مثلما هو ضرورى لسعادتنا حين نلقى الله .

لذلك فإنى أطالب : بأن يتبنى ولاة الأمور هذه القضية ، وينشروها بكل ما يستطيعون من وسائل النشر والإعلام ، نشر العارف بها ، الغيور عليها .

أطالب بأن يكون للصلاة - وهى عماد الدين - مَكَانها الرسمى بين كل جماعة فى مدرسة ، أوجامعة ، أو لجنة : فى الجيش والشرطة ومعسكرات العمل ونحوها ، وأن يكون الكبار أسوة حسنة للصغار فى ذلك .

أطالب بأن نتخلى عن النظرة المادية الضيقة للأمور ، لننظر إليها نظرة المؤمن بربه الموقن بحكمته ، الراجى لرحمته ، الخائف من عذابه ، وذلك بأن نأخذ الشريعة وتعاليمها وآدابها مأخذ الجد فى حياتنا .

وأن نرفع شعار : الدين فوق المنفعة ، الشريعة لا الهوى حكمة الرحمن لاتخبط الإنسان .

وأسوق فى هذا إشارات :-

قوله تعالى : **﴿ يمحق الله الربا ، ويربى الصدقات ، والله لايحب كل كفار أثيم ﴾** [1] .

لاينبغى أن يكون تشجيع السياحة بما تجلبه من موارد مادية فى بعض

(1) سورة البقرة ٢٧٦

البلاد الإسلامية سبباً فى إغضاء العيون عما يكتنفها من سوءات وموبقات .

لاينبغى أن تقف السلطة على الحياد بشأن التيارات التى تخالف الدين ، وتحاربه بل عليها أن تتدخل ـ ولو بوسائل الإعلام على أقل تقدير ـ إن عليها كسلطة مسلمة أن تفهم الدين ، وتتبنى مافيه من حقائق ونصائح .

وأخيرا فليس هذا سببا لانكماش اقتصادى أو اجتماعى أو دولى ، وإنما هو انفتاح إلى الخير والفلاح ، ويكفى : أن ننظر من حولنا إلى بلاد تحافظ على دينها ، وتغار عليه ، قد فتح الله لها أبوابا من السعادة والرفاهية لم تكن تحلم بها .

وأخيرا ماذا أقول ؟ وبم أختم هذه الكلمات ؟

أسوق نصيحة نوح عليه الصلاة لقومه : ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ، ويجعل لكم أنهارا ﴾ (١)

أم أذكر نصيحة مؤمن آل فرعون : ﴿ ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ، وإن الآخرة هى دار القرار ، من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ، ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ﴾ (٢) ﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ (٣) أم أسوق هنا ما افتتح الله تبارك وتعالى به كتابه بعد فاتحة الكتاب .

---

(١) سورة نوح ١٠ ـ ١٢
(٢) سورة غافر ٣٩ ، ٤٠
(٣) سورة ق ٣٧

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ آلم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم ، وأولئكَ هم المفلحون ﴾ [1] . صدق الله العظيم

« اللهم صَلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم ، وعلى آل سيدنا إبراهيم ، وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد » .

★ ★ ★

(١) سورة البقرة : ١ ـ ٥ .

المراجـــع

- **إحياء علوم الدين** : لحجة الإسلام الإمام أبى حامد الغزالى ــ دار الشعب ،
- **الإسلام دين الفطرة** : للأستاذ إبراهيم الجبالى ــ تحقيق محمد موفق أبو اليسر البيانونى ..مكتبة الهدى ــ حلب ١٣٩٢ هـ ــ ١٩٧٢م .
- **أسنى المطالب فى أحاديث مختلفة المراتب** :
للشيخ محمد ابن السيد درويش ــ المكتبة التجارية الكبرى بمصر .
- **الإصابة فى تمييز الصحابة** : للحافظ ابن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢ هـ نشر مكتبة الكليات الأزهرية .
- **الإيمـــان** : الدكتور عبدالحليم محمود ــ دار الإسلام ــ القاهرة ١٩٧٢م
- **الإيمان والحياة** : الدكتور يوسف القرضاوى ــ مكتبة وهبة .
- **البـداية والنهاية** : لِلْحافظ المفسر المؤرخ ابن كثير القرشى المتوفى سنة ٧٧٤هـ مكتبة ومطبعة محمد صبيح وأولاده ، .
- **بهجة النفوس** : لابن أبى جمرة .
- **الترغيب والترهيب** : للحافظ زكى الدين المنذرى المتوفى سنة ٦٥٦هـ .
- **التفكير فريضة اسلامية** : الأستاذ عباس محمود العقاد ــ دار الهلال
- **تفسير القرآن العظيم** : الحافظ الفقيه المفسر : ابن كثير القرشى ــ دار إحياء الكتب العربية عيسى الحلبى وشركاه .
- **جامع العلوم والحكم** : فى شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم :
للحافظ : ابن رجب الحنبلى المتوفى سنة ٧٩٥هـ .
تحقيق الدكتور محمد أحمدى أبو النور ــ مطابع الأهرام التجارية .
- **حجة الله البالغة** : للإمام الكبير الشيخ أحمد المعروف بشاه ولى الله أبى عبدالرحيم الدهلوى ــ تحقيق ومراجعة الشيخ سيد سابق . دار الكتب

الحديثة بالقاهرة ، ومكتبة المثنى ببغداد .
- **حقائق الإسلام وأباطيل خصومه** : للأستاذ عباس محمود العقاد ــ دار الهلال
- **الرحمة المهداة فى فضل الصلاة** : للإمام النبهانى
- **رسالة التوحيد** : للإستاذ الإمام الشيخ محمد عبده مطبعة المنار بمصر سنــة ١٣٤٦هـ .
- **رياض الصـالحين** : من كلام سيد المرسلين : للإمام أبى زكريا محيى الدين النووى المتوفى سنة ٦٧١هـ مكتبة الجمهورية المصرية بالصنادقية بمصر .
- **زاد المعاد فى هدى خير العباد** : للإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١هـ مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبى وأولاده بمصر.
- **صحيح الإمام مسلم بن الحجاج بشرح النووى** :
المطبعة المصرية ومكتبتها .
- **صيد الخـاطـر** : للعلامة أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى ــ تحقيق الشيـخ محمـد الغزالـى .
- **العبـادة : أحكـام وأسرار** : للدكتـور عبدالحليم محمود ــ دار الكتب الحديثة . الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ ـــ١٩٦٨ .
- **العبادة فى الإسلام** : للدكتور يوسف القرضاوى ــ دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع ثانية ١٣٩١هـ ١٩٧١م
- **العبـوديـة** : للعلامة تقى الدين بن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨هـ المكتب الإسلامى للطباعة والنشر.
- **العقيدة الإسلامية والأخلاق** :
- **فتح البارى بشرح صحيح البخارى** :
للحـافظ ابن حجـر العسقـلانى المتـوفى سنـة ٨٥٢هـ مكتبة ومطبعة

مصطفى الحلبى مصر .
- **فقه السيرة** : للشيخ محمد الغزالى ــ خرج أحاديثه محدث الشام العلامة محمد ناصر الدين الألبانى ــ نشر دار الكتب الحديثة بالقاهرة .
- **القاموس المحيط** : للفيروز أبادى .
المطبعة الحسينية المصرية ــ طبعة ثانية سنة ١٣٤٤هـ
- **كشف الخفا ومزيل الالتباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس** : للشيخ اسماعيل بن محمد العجلونى المتوفى ١٣٦٣هـ نشر وتوزيع مكتبة التراث الإسلامى - حلب .
- **لسان العرب**: للعلامة جمال الدين بن منظور المتوفى سنة ٧١١هـ الدار المصرية للتأليف والترجمة .
- **مدارج السالكين بين منازل « إياك نعبد وإياك نستعين »** . للعلامة شمس الدين ابن القيم .
- **المسائل فى أعمال القلوب والجوارح والمكاسب والعقل** : للحارث المحاسبى .
- **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم** : للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى ــ دار الشعب .
- **المنقذ من الضلال** ــ مع أبحاث فى التصوف للدكتور عبدالحليم محمود - دار الكتب الحديثة .
- **المخصص لابن سيده**
- **النبأ العظيم - نظرات فى القرآن** : الدكتور محمد عبدالله دراز ــ مطبعة السعادة ١٣٨٩هـ ١٩٦٩م .

الفهرس

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

رقم الإيداع بدار الكتب ٩٢٨٤ / ٨٩

هــذا الكتــاب

كم كانت حاجتنـا ، وحـاجـة الأجيال من بعدنا ملحَّة لكى نجد : من يبصرنا بحقيقة العبادة ، وصحة أدائها ، وصور قبولها .

ـ خاصــة فى هذه العصـور التى اخْتلَّت فيهـا المـوازين ، واضطربت القيم ، واختلطت المفاهيم ـ .

ومنهج البحث الذى نقدمه للقراء .. ـ اليوم ـ .. هو : نسيج متميز . باعتباره : دراسة متخصصة موثقة مستوعبة لكل أطراف المـوضـوع ، وشتى آفـاقـه تلتـزم المنهـج العلمى الدقيق فى : التعريف والتقسيم ، والاستدلال ، والاستنتاج .

بالإضافة إلى مايتميز به ـ عن الدراسات الأكاديمية ـ من : سلاســة الأسلوب ، وجـاذبيـة العـرض ، وإشراق المـأخـذ ، ووجدانية الاستنباط شأن مؤلفه : العلامة الفاضل : الأستاذ الدكتـور على عبد اللطيف منصور فى مسيرة حياته ، وطبيعته الفذة المتميزة : بسعة الاطلاع ، وسهولة الأداء ، وقوة الإقناع .

وإذا كان القارىء الكريم يراه ـ هنا ـ فى هذا الكتاب : كاتباً سلساً ، جذاباً ، ومفكراً : دقيقاً ، وعالماً فاقهاً .

فقد عَرَفَتْهُ منابرُ الدعوة . فى مصر ، وليبيا ، والكويت .

ومقاصير العلم : فى الأزهر ، والجامعة الإسلامية بالمدينة المنـــــورة .

وأجهزة الإعلام : فى الإذاعات القرآنية ، والبرامج العامة فى ليبيا ، والمملكة العربية السعودية ، والكويت .

عَرفَتْهُ رجلاً متميز الأسلوب ، متميز العرض ، متميز الفكرة ..

ومن هنـا كان هذا الكتـاب ـ الذى نقدمه للقراء ـ : جماع مايتطلع إليه الباحث عن مواطن الفهم ، والدارس المتفحص عن دقائق العلم ، والمسترشد إلى أفضل مناهج الدعوة : بما يحويه من استيعاب الكتاب ، وروح الكاتب .

سائلين الله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه ، وثقلاً فى ميزان حسنات مؤلفه ، وأن يجعله نافعاً ـ لنا وله ـ ولجميع المسلمين .

دار الصفوة